

التَّنبِيْهُ الْمَغْرِبِ عَمَّا عَلِيَهُ الْآنَ حَالُ الْمَغْرِبِ

السَّفَرُ الْأَوَّلُ

تأليف

الحسين بن الطيب بن اليماني، بوعشيرة بن
الحزرجي، ملكنا سي، ثم المرأشي

تقديم وتصحيح
محمد المنوني



التَّزْيِيرُ الْمُعْرِبُ عَمَّا عَلَيَّ الْآنَ حَالُ الْمُخْرِبِ

السِّفَرُ الْأَوَّلُ

تأليف

الحسين بن الطيب بن اليماني بوعشرة بن
الحزرجي المكناسي ثم المرأشي

تقديم وتصحيح
محمد المنوني



زقنة الرضاء الحي الصناعي - الرباط
الطبعة 32843 م - ص. ب. : 1213
79 57 02 / 79 69 14 فاكس : 79 01
المطبعة الفدرية



الطبعة الأولى

1415 هـ - 1994 م

رقم الإيداع القانوني 1994/931

ردمك 9981- 808- 16-4

تقديم

محمد المنوني
كلية الآداب — الرباط

القصد في هذا العمل إلى النصف الأول من كتاب «التبیه المغرب، عما عليه — الآن — حال المغرب»، تأليف الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين، الخزرجي المكناسي أصلاً، المراكشي داراً ومنشئاً وولادة، حسب تقديم المؤلف لاسمه ص 30⁽¹⁾، وواضح من هذا أنه ابن مباشر للطيب بن اليماني بوعشرين وزير السلطان العلوي محمد الرابع، إلى أن توفي عام 1286/«1869».

والملاحظة الأولى أن المؤلف — على قرب عصره — لم تدون له ترجمة بالمصادر المهمة، فلا ذكر له في «السعادة الأبدية» لابن الموقت، ولا في «الاعلام» لابن إبراهيم، أو «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان، كما أنه غير وارد عند ابن داني في «الدرة السنية»⁽²⁾، ولا عند غريط في «فواصل الجمان»، ثم لم يرد إسم الكتاب عند ابن سودة في «دليل مؤرخ المغرب الأقصى»، هذا إلى أن التحريات في مراكش — بلد المؤلف — لم تسفر عن أية معلومات عنه.

وهذا فإننا أمام فراغ حول ترجمته، حتى إذا رجعنا إلى السفر الأول من كتاب المؤلف لا نستخرج إلا معلومات ضئيلة عن حياته، فيشير عند ص 197 من المخطوط إلى وفاة زوجه والده كبار أولاده، بتاريخ أواخر عام 1295 / «1878»، مما يحدد سنه — إذ ذاك — على وجه من التقريب، وبالتالي يوقت ولادته — تقديراً — بنحو عشرة الخمسين ومائتين وألف هجرية.

وعن تعلمه الأولى يُبرز — في الصفحة نفسها — إسم مؤدبه السيد علي رزكو، ثم يذكر أستاذه في العلوم محمداً السباعي الدرياحي، قائلاً ص 227

(1) الإشارة هنا وفي الأحوال التالية إلى صفحات النص المخطوط.

(2) من مخطوطات خ. س 481.

— 228 — وبسببه أنقذني الله من ظلمات الجهل وموارد الردى...»، ومن هذا الأخير — فيما يظهر —، سرى إلى المؤلف التفنن في التعبير الذي صاغ به عروض الكتاب.

وفي التصوف اعتمد الشيخ ماء العينين.

وعند حديث المترجم عن نبأهته، يشير إلى أنه كان منتظما في سلك الكتاب في حاشية السلطان الحسن الأول ثم إبنه العزيز، وفي عهد هذا الأخير صار بين الكتاب المرموقين، فيثبت النص الكامل لرسالتين كتبهما عن س العزيز، للإعلام بانتصاره على قبيلة «الرحامنة» ص 47 — 50، ثم على قبيلة «الأعشاش» بالشاوية ص 55 — 59.

وهذا قدم المؤلف نموذجين من نثو الديواني، وإلى ذلك أثبت من شعره ثلاث قصائد مديحية ص 61 — 62 و 150 — 151 و 233 — 234، وإذا كان أسلوبه في القصائد نازلا عن طريقته في كتابته النثرية، فهو — على كل حال — يدل على معاناته للشعر إلى جانب النثر، وإضافة لهذه التماذج يشير المؤلف في تصميم الكتاب، إلى أنه أثبت في الباب الثامن بعضا من نثو وشعره، غير أن هذا الباب لا يزال ضمن السفر الثاني الذي سنتبين أنه — الآن — غير معروف، وفي الخزانة العامة كراسة غير تامة التأليف، في حجم صغير. بشتمل على 31 ص، وتحمل رقم 1261 ج، جمعها أحد أبناء المترجم، وأثبت بها بعض التماذج من نثر والده وشعره.

وأخيرا يأتي توقيت الفراغ من تأليف السفر الأول، بأوائل المحرم 1324/«1906»، وعند هذا التاريخ تقف معلوماتنا عن المؤلف.

وأستدرك هنا فأشير إلى أنني وقفت — وشيكا — على إشارة مقتضبة عن المؤلف، كتبها مؤرخ مراكش ونادرتها، القاضي عباس بن إبراهيم، فيعدد بعض أبناء الوزير الطيب بوعشرين، ويذكر بينهم المترجم هكذا «ومنهم السيد حسن الكاتب، كان رجلا له مروءة وسمت حسن وخط مقبول (كلمة غير واضحة) ومملكة في الترسيل، وله علاقة بالتاريخ، ومعرفة بالشطرنج، ألف تاريخا في الدولة يوجد عند ولده السيد عبد العزيز، استعمل في الكتابة سفيرا مع بناصر غنام إلى

الجزائر، وولي على طنجة قبل نصر مولاي عبد الحفيظ بها، ودفن بباب أغمات».



هذه فقرة مؤرخ مراكش بخطه المدمج السريع، ومنها يصل بنا المطاف إلى تحليل الكتاب، وقد تبيننا أنه يحمل إسم «التنبيه المغرب عما عليه — الآن — حال المغرب»، غير أن المؤلف لم يتقيد في تصميمه بعنوان عمله، ووسع مضامينه فجاء برناجه كالآتي

الباب الأول	دولة السلطان الحسن الأول.
الباب الثاني	دولة ابنه السلطان العزيز.
الباب الثالث	في أحوال الوقت وأخبار الثائر بو حمارة.
الباب الرابع	به أخبار متنوعة، بينها إرسامات المؤلف عن رحلته للجزائر، ثم إنطباعاته عن مدن فاس ومراكش ومكناس.
الباب الخامس	ملوك الدولة العلوية إلى عصر المؤلف.
الباب السادس	الدول العظام بالمغرب من الادارسة إلى العلويين.
الباب السابع	في ذكر الغزوات التي تقدمت للملوك بالمغرب، وما يجر إليه الحديث — مما يناسب المقام — من كل عجيبة وكل مغرب.
الباب الثامن	في نسب المؤلف، وذكر وزارة والده الطيب بوعشرين، وبعض نثر المؤلف وشعره.
الخاتمة :	في ذكر السيرة النبوية، والصحابة العشرة والأئمة الأربعة.

الموجود من الكتاب هو النصف الأول، في سفر ينتهي عند آخر الباب الرابع، دون أن يعرف هل كتب المؤلف السفر الثاني وأتم الكتاب ؟.

255 ص عدا الفهرس التصديري، مسطرة 18، مقياس 180/230 م.م، خطه مغربي بين المبسوط والمجهر، حسن واضح مجدول ملون، مشكول في الغالب، مع تهميشه بتعاليق تفسيرية للتعايير الغامضة من عمل المؤلف، على أنها تقل عند الباب الرابع.



أما تدوين «التنبية العرب» فجاء معظمه في شكل مذكرات لانطباعات المؤلف عن وقائع الفترة التي عايشها أيام العاهلين الحسن الأول والعزیز، وهو واقع يبرزه في عدة مناسبات، ومنها قوله عند بدايات الكتاب «... وما ذكرت فيه إلا ما أسندته لعلمي ودرايتي، وفهمي الركيك وعبارتي» ص 17.

ويعاود نفس الملاحظة آخر الكتاب «... وإنما ذكرت ما ذكرت من حفظي وفهمي، وبحسب ما وصل إليه علمي» ص 253.

وفي مناسبة أخرى «... وما ذكرت إلا ما عاينته ورأيت وشاهدته، ولم نستند فيه لغيري» ص 165.

وهو يشكو من انعدام المصادر التي يرجع إليها، بعد ما خلفها في بلده مراکش عند انتقاله لفاس، فيود ذلك في الفقرات التالية «... حيث لم يكن لديّ كتاب نستمد منه ونعتمد عليه من كتب التاريخ» ص 17.

«... ولنا مرثية وتعزية في هذا السلطان الجليل (الحسن الأول)، تركها بمراكش من جملة كتيبي» ص 33 — 34.

«... وذلك لعدم كتاب ننقل منه عليّ عسير» ص 165.

«... وليس عندي — الآن — شيء منها لغربي، وانتقالي عن أهلي وبلدي» ص 198.

«... ولم يحضر لدي — الآن — الكتاب المذكور» ص 223.

«... حيث لم نجد ما نستعين به على ذلك، لفراقي كتيبي وتقاييدي» ص 253.

أما الجهة التي ألف بها كتابه فيحددها قائلا «... بعد أن كنت بفاس موله البال، ومستغرق الأحوال» ص 230.
لهذا الواقع يعتبر المؤلف الكتاب إنما هو مختصر ص 106، وهي إشارة يكررها آخر الكتاب «... مع الاختصار الذي كاد أن يكون لغزا، ومعانيه الدقيقة رمزا» 255.



وتبدو ظاهرة الاختصار — أكثر — في عروض الكتاب أيام السلطان الحسن الأول، غير أن المؤلف غطى — على العموم — تاريخ عهد السلطان العزيز حتى نهاية 1323/«1906»، فيرصد وقائعها إنطلاقا من نكبة الوزيرين الجامعيين، إلى رحلة العزيز من فاس لمراكش، ويتوسع في الحديث عن انتفاضة الرحامنة جيران مراكش، ثم عن قومة الأعشاش بالشاوية، مع الإشارة لانتفاضات قبائل الريف وذوي منيع ومسفيوة، ثم إجراءات عزل الوزير الصدر المختار بن عبد الله، وما تبع ذلك من عزل وتنكيب لمجموعة من الولاة، دون أن يغفل إحصاء أبناء الحسن الأول، أما ثورة بوحمارة فيفصل ما جرياتها في نفس مستوعب.

وخلال عروض هذه الأحداث، ترد تفاصيل تخلو منها المصادر المعروفة عن هذه الفترة، وتلك إحدى مزايا الكتاب.

هذا إضافة إلى معلومات أخرى لم تعرف تفاصيلها إلا من جهة المؤلف، ومنها تتبع سيرة المنهبي بعد وفاة أحمد إلى عزله.

ومن ذلك لائحة مطولة تكاد تستوعب أسماء الكتاب في بلاط الحسن الأول، فتزيد — كثيرا — على ما عند ابن أبي وغريط.

ثم حديثه عن منطقتي الحوز والغرب، وتحديد قبائل ومدن كل من الجهتين، وطبيعة علاقتهما بالحكم المركزي.

ومن الافادات التي انفرد بها الكتاب عن المصادر العربية المعروفة الاعلان عن سفارة مغربية إلى الجزائر مفتتح عام 1321/«1903»، وكانت برئاسة الأمين بناصر غنام وعضوية المؤلف، وهو الذي دون وقائعها في مؤلف أثبت نصه — كاملا — أول الباب الرابع ص 121 — 139.

وبعد هذا أتى على أسماء الموظفين السامين بحاشية السلطان العزيز وزراء وسواهم.

مع الإشارة إلى محاولة أجنبية لاحتلال مدينة فضالة (المحمدية)، خلال عام 1323/«1905» ص 235.

ثم إحصاء زيارات الشيخ ماء العينين للمغرب أيام السلطان العزيز إلى عام 1324/«1906».

فهي نماذج للأخبار التي انفرد «التنبية المغرب» بالكشف عنها أو بتفاصيلها، ومنها نتبين ناحية أخرى من مزايا الكتاب.

وناحية ثالثة تبرز أبعاد الخطة التوثيقية للمؤلف، فيتحرى تدوينه للأخبار، ولا يثبت منها إلا ما تأكد استحضاره له، ويعرض عما يبدو له إشتباه في ذكره أو غاب عنه مصدره، وهو يكرر الإشارة لذلك أكثر من مرة، فيقول ص 17 «وقد أعرضت في هذا المسطور، عن التعرض لتاريخ كثير من الأمور، حيث لم يكن لدي كتاب...».

وعند ص 247 — 248 «... وطال عهدي بذلك، ولذلك لم نشرحها خوفا من ذكرها على غير وجهها، حيث نسيت صورتها».

وإذا شك في تحديد مصدر يذكره بمثل هذا التعبير ولعلني رأيها في كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب» ص 85.

وفي حال نسيانه لاسم مكان «... في محل ضل عني اسمه» ص 89.

ومن جهة أخرى قد يضطر المؤلف لإهمال بعض التفاصيل «... وقد تعلق بهذه القضية أمور وغرائب ونكت أضربت عنها، لأنني لست بصدها» ص 110.

«... لأمر طويل شرحها، ومستبشع إبرازها ونشرها» ص 110.

«... وفي خلال هذه الأخبار أمور لم يسمح الوقت بإفشافها وإبرازها» :

ص 144.



وفي الكتاب وقفات نقدية وإن كانت قليلة، فيقارن المؤلف أيام س الحسن الأول مع آخر دولة العزيز، ويعلق قائلا «وفتح على هذه الدولة العظيمة بسعود غا» ورجال أحلامهم فاشية، وقلوبهم على الاسلام والمسلمين صافية»: ص 33. ثم يصوب سهام النقد الصارخ إلى سيرة المنهبي، وضدا على سياسة الحكومة في مقاومة ثورة بوحمارة.

ويعقب على ذكره لحاشية العزيز عام 1323 / «1905» «وكل هؤلاء الناس لا زالوا موجودين في الوقت... وعلى يدهم تدور أمور السياسة، وغالبها مختل لجريانه على غير مهيعة من أجل العصبية التي لبعضهم والطمع» ص 145. وفي اتجاه آخر ينتقد انتهاك حرمة جامع القرويين ليلة 27 رمضان، ويشنع على ما يقع فيه من الضجيج والازدحام، فيفضي ذلك إلى خصومات ومناوشات بالجرح والقتل والترافع للحاكم، ويضيف «ولا يبعد أن يجد الكفار السبيل للدخول إليه ويدخلون، وكذلك النساء، وقد قيل ذلك» ص 163 — 165.



وعلى عكس هذه المواقف تنعدم الحاسة النقدية للمؤلف عند عروضه أيام السلطان الحسن الأول وفي عهد وزارة أحمداد، فيمنح تأييدا مطلقا للسياسة المتبعة، وتصل به موالاة الحكم الأحمدى إلى تبرعه بالتشفي ضدا على الذين تنزل بهم عقوبات الدولة، في عبارات نابية.

ومن الملاحظات على المؤلف إهماله للربط بين الأحداث، مثل سلوكه عند الإشارة للقبض على البشير بن مسعود اليزناسني، ثم عند حديثه عن ثورة الرحامنة، وقد كان هؤلاء ينادون بالشرعية، ويطالبون بإرجاع الأمر لمولاي محمد ولي عهد السلطان الحسن الأول.

ومن المجازفات أنه يسجل أعمالا دون أن تأخذه الرأفة للتعليق عليها. كقوله عن وقعة الأعشاش «وقبض على الشيوخ والكهول والأطفال، وطوقهم السلاسل والأغلال» : ص 60



والمؤلف يؤدي عروضه في صياغة يطغى عليها السجع الحريري، ويتخير التعابير التي تشف عن تمكن لغوي قوي، ونادرا ما يلتجئ للتعبير الدارج، كقوله ص 82 — 83 وجاء أهل الطبل والغيطه لباب دار السلطان... بعد أن أكلوا العصا»، وفي ص 213 «...وانخرطوا من عصي وزراويط...»، وفي ص 215 «بدقة الباب».

وبلغ به هيامه بالسجع إلى أن وقع في لحنه فاضحة «... وكانت أيامه لهم أعيادا ومواسم، وروضا نضيرا باسم» ص 31.



أما عملي في إخراج المخطوط فقد قمت بمعارضته وتصحيحه على النسخة الوحيدة المتوفرة الآن، وراعت المحافظة على النص، إلى جانب إثبات الترتيب الأصلي للمخطوط، وهو الموضوع بمكانه بين قوسين مربعين، فضلا عن هوامش التعليقات الشارحة التي دونها المؤلف، وهو ينقلها عن «القاموس» للفيروزبادي، وقليلًا عن «المصباح» للفيومي، ومرة عن «مختار الصحاح» للرازي، حسب إشارات المؤلف التي يذيل بها هوامش الكتاب، مسميًا لكل من المصباح ومختار الصحاح باسميهما، ويرمز للقاموس بحرف (ق)، وهو عمل سائرته في نقلي لهذه التعليقات، وبما أن «التنبيه المعرب» بمثابة مذكرات للمؤلف، لم يكن هناك داع لإضافة تعليقات جديدة.

ختامًا لا أنسى تقديم عبارات الشكر للمعونة التي ساعدني بها في مقابلة الكتاب، الكتبي الأريحي الكريم، السيد مصطفى ناجي صاحب مكتبة دار التراث بالرباط، ونفس الشكر للكتبي الأريحي النشيط، السيد مبتسم محمد مدير مكتبة المعارف بالرباط، وهو صاحب المبادرة لنشر «التنبيه المعرب» والله — سبحانه — ولي التوفيق.

الرباط 28 / 06 / 1413

23 / 12 / 1992

وعلى اليد، وصحبه، غيوث النجاة ونحو الزور، وقتلة
 الكفار واليعزراء ما بين الكيم والصغيم، وأمنوا بالله ثم
 استغاثوا، وقدروا من أجله وفاموا، وخاصوا الحج والحب
 ٢. قرأته وعاموا، حالتي التعسيم والتيسيم، ونصروا ونصم
 • وقروا مع وكتم مع • وثبتم وكتم مع • فنعهم الموت ونعم النعيم
الباب الثاني في بيان أحوال الوقت وتنقائته • وتقلباته وتطوراته
 • وقاء آل البيت (أول) • من كل قبضي ومن كل إمرة جعلته
 • وسما للفساد • ولما استحسنتم من أبناء الجحيم
 • [وقد أيتنا من التنبيه على أن علياً (عليه السلام) هو الخليفة
 والدة السائل أن يجعله وإبائ من المفقولين • وعلى كميل
 قبله وتر مع محمولى • وقد ثبت ما على ثمانية
 أبواب وخاتمة وتتمة نذكر فيها حال البقاء هو ما يفهم في الوقت
الباب الثالث الأول
 • الكلاع على دولة أمير المؤمنين قورنا الحسنى على
 (أجم) الولاية واختصاره • وما اكتسبها من السعد والبهاء
 وشعاري الزنوار
الباب الثاني
 • دولة نجدة الذهب (أول) • أمير المؤمنين موأنا عبد الغني
الباب الثالث

لح
 نجدة الماء بالضم تعطفه وال
 يحزم الماء لغة مبهمة

د
 وأولاً أو مثلاً بحجته

ح
 حزننا (أول) بانكم أوليها
 تحزنونهم ومن الزور نوري
 وأخره بعد

الصالحين من الأئمة على وجه
 حتى يتركوا ما هم فيه
 المؤمنون بالله والكثير
 الربا مال وأربابا ههنا
 السطح تحفة العبد
 الطويل أوعاء الجمع
 السهام ههنا
 زرق السبد والفضي
 ماؤه وحسنه ههنا
 زرق البطل يرفق زرقها
 وزرقها وزرقها أوسع
 وحال وأمنة كأقروم
 وزرق ههنا
 شمع الجبل بماوكل
 ههنا وأنام على السه
 أسرف ههنا
 النخبة بالضم والفتح المختارة
 والتمجيد اختار ههنا
 القوم زماكان شمساً بينهم
 البطل الجمع أئمة ومؤيدون
 التواتر التثنية جمع أروع جمعاً

في أخبار العرف وأخبار الثام البعثان . الخ ما أرى بها كاذب
 والتمتاع . وأرفع الناس برك : المؤمن الكبير والاشتهار .
 [الباب الرابع] .
 في أخبار الجن آية والسبب : وطلونا البهاء وما بهما من البهجة والآن ونسي
 وكل ما يشتمى . [الباب الخامس] .
 في ذكر ملوك قن : النرونة العلوية السريعة . ذات البهال التوريقية
 والعناية الساعنة الحقيقة . من ترون بر ابتهم اني (ان) . يستحب
 التيسيم والامكان [الباب السادس] .
 في التفرع للزول العظماء . التي تراقوت المغرب وذاي ملوكها البهائم
 . من لرون بتجهم قولا ناديسر (الكر) رضى الله عنه التي هذه الدولة
 العلوية . والنخبة المصطفوية . قدام الله جلاليها . وقز على
 المسلمين أئمة ماوكلها . على حسب الاختصار . لأنها بلغت
 قبيل التواتر : (التمتاع) والاشتهار .
 [الباب السابع] .
 في ذكر (الجن) وات التي تفرقت للملوك بالمغرب .
 وذاي قاتلهم اليه الحديث مما يناسب المقام
 في كل عجيبه وكل غريب .
 [الباب الثامن] .
 في ذكر (نقيب) لوزارة والبرند وذاي بعدي انشاها
 ونظمتها . وما استحسننا ، من كلام عيم نله .

الخاتمة

الحسنى ويجعل لنا (اخيرة ما مورا غلا وانما اشئى
 بمينه وكرم به وامن قلنا وكذب فتبخنا من المير محمد
 يومئذ اجعلوا الشيعه الاثلاثه والبعث العترة
 فكل الوجوده وشراب الوجوده جامع الحفيدة والشرعية
 صاحب الدرجة الرفعة هذه والفرز المنيعه والنسب
 الشريف يستحقنا ونحبه دارك وجودنا الشيخ
 فاء العيني بنى شيخنا الشيخ محمد قاضى
 فامير بن الطالب اخيه بن الطالب محمد بن الخيرة
 المختار بن الطالب العتيق بن الطالب فلك بنى
 سيد محمد بن سيد بنى الصغرى بن سيد بنى
 ابن محمد بن السيد بنى بنى بنى بنى بنى
 محمد بن سيد بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 ابن بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 جملان بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 ابن بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 الله لا اله الا الله محمد بنى بنى بنى
 الحسين المشير بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 على بنى بنى بنى بنى بنى بنى بنى
 سيدنا محمد بنى بنى بنى بنى بنى بنى

انتهى ما نسى

[2] بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله.

قال العبد الفقير الفاني
الحسن بن الطيب بوعشرين بن اليماني،
أتاحهم الله في الدارين غاية الأمانى

الحمد لله الذي له الملك الكبير، والسلطان الذي لا يلحقه تبديل ولا
تغير، ولا توهين ولا تكسير، الغني عن المعين والظهير⁽¹⁾ والمشير والوزير، والجليل
والحقير، والمثري والفقير، لا إله إلا هو العليم الخبير، السميع البصير، ذو التصرف
الكامل، والحكم الشامل، والانشاء والخلق، والفتق والرتق، والحكمة البالغة وكال
التدبير.

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله البشير النذير، السراج المنير،
الذي شكا إليه البعير، وحن لفراقه الجذع الشهير، وفار من بين أصابعه الشريفة
الماء النмир، وأروى به الجيش الكثير، وأشبعه من الطعام اليسير، المبين للأمة كيف
المسير، وما إليه المصير، وحق الأمير على المأمور وحق المأمور على الأمير، وعلى آله
وصحبه غيوث النداء، وبحور* الهدى، وقتلة الكفار والعداء، ما بين الكبير والصغير، [3]
آمنوا بالله ثم استقاموا، وقعدوا من أجله وقاموا، وخاضوا لجح الحروب⁽²⁾ في
مرضاته وعاموا، حالتي التعسير والتيسير، ونصروه ونصرهم، وقواهم وكبرهم، وثبتهم
وكرهم، فنعم المولى ونعم النصير.

أما بعد فهذا تقييد لطيف، ومسطور نفيس ظريف، في بيان أحوال
الوقت وتنقلاته، وتقاليباته وتطوراته، وما آل إليه الأمر، من كل فتق ومن كل إمر⁽³⁾،
جعلته ترويحاً للنفس، ولمن استحسنه من أبناء الجنس، وسميته

(التبيه العرب عما عليه الآن حال المغرب)

(1) الظهير المعين، ويطلق على الواحد والجمع، وفي التنزيل «والملائكة بعد ذلك ظهير»، انتهى
«مصباح».

(2) لجة الماء معظمه، واللج — بخذف الهاء — لغة فيه، انتهى «مصباح».

(3) وأمر إمر منكر عجيب، «ق».

والله أسأل أن يجعله وإياي من المقبولين، وعلى كاهل فضله وكرمه
محمولين، وقد رتبته على ثمانية أبواب وخاتمة، وتتمة نذكر مآل الفتان، وما يظهر في
الوقت من الحدثان (4)؛

الباب الأول

في الكلام على دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن على الاجمال والاختصار،
وما اكتنفها من السعد والبهاء وشوارق الأنوار.

★ الباب الثاني

[4]

في دولة نجله الذهب الابريز، أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز.

الباب الثالث

في أحوال الوقت وأخبار الثائر (5)، الفتان، الذي ملأ الدنيا بالكاذب
والبهتان، وأوقع الناس بذلك في الهوس (6)، الكبير والأشطان (7)؛

الباب الرابع

في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا إليها، وما فيها من البهجة والرونق (8)
وكل ما يشتهي.

الباب الخامس

في ذكر ملوك هذه الدولة العلوية الشريفة، ذات الظلال الوريقة (9)،

(4) حدثان الأمر بالكسر أوله وابتدأؤه، كحدثائه، ومن الدهر نوبه، كحوادثه وأحداثه، «ق».

(5) الثائر من لا يبقى على شيء حتى يدرك ثاره، «ق».

(6) الهوس الذق والكسر، إلى أن قال والافساد، «ق».

(7) الشطن — محرقة — الحبل الطويل، أو عام، الجمع أشطان، «ق».

(8) ورونق السيف والضحى ملوه وحسنه، «ق».

(9) ورف الظل يرف ورفا ووريفا ووروفا اتسع وطال وامتد، كأورف وورف، «ق».

والعناية الشاخصة (10)، المنيفة (11)، من لدن بدايتهم إلى الآن، بحسب التيسر والامكان.

الباب السادس

في التعرض للدول العظام، التي تداولت المغرب وذكر ملوكها الفخام، من لدن فتحه مولانا إدريس الأكبر رضي الله عنه إلى هذه الدولة العلوية، والنخبة (12)، المصطفوية، صان الله جلالها، ومد على المسلمين أفياءها (13)، وظلالها، على حسب الاختصار، لأنها بلغت مبلغ التواتر (14)، في الانتشار والاشتهار.

الباب السابع

في ذكر الغزوات التي تقدمت للملوك بالمغرب، وذكر ما يجر إليه الحديث مما يناسب المقام من كل عجيبة وكل مغرب.

الباب الثامن

في ذكر نسبنا ووزارة والدنا، وذكر بعض إنشائنا ونظمنا، وما استحسناه من كلام غيرنا.

* الخاتمة

[5]

في ذكر النبي ﷺ وكيفية بعثته وذكر الصحابة العشرة، والأئمة الأربعة، رضي الله عن جميعهم ومجد وعظم وكرم، لتكون هذه الخاتمة كفارة لما أسلفناه في هذا الكتاب، العذب (15)، المستطاب، الذي أتى بما تستحسسه العقول، وتتصف له الرجال الفحول، والله أسأل أن يتممه على أحسن المراد، ويجعله ناهجا نهج الصواب في كل إصدار وكل إيراد، إنه العلي القدير، السميع البصير، نعم المولى ونعم النصير، عليه اعتمادي، وإليه ركوني واستنادي.

(10) فمخ الجبل علا وطال، «ق».

(11) وناف وأناف على الشيء أشرف، «ق».

(12) النخبة بالضم وكهزمة المختار، وانتخبه اختاره، «ق».

(13) الفيء ما كان ثمنا فينسخه الظل، الجمع أفياء وفيء، «ق».

(14) التواتر التابع أو مع فترات... «ق».

(15) العذب من الطعام والشراب كل مستساغ «ق».

الباب الأول

في الكلام على دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن
بن أمير المؤمنين مولانا محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن
بن هشام، قدس الله أرواحهم في دار السلام، ورضي عنهم
وعن آبائهم الكرام.

لما مات أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن رحمه الله كان مولانا الحسن قدسه الله غائبا في بلاد تسمى بوريقي من بلاد قبيلة حاحا، محاصرا للقبيلة المذكورة عن أمر أبيه، لخروجهم عن طاعة عاملهم ولد يبي، وكان والده المذكور بمراكش وقتئذ، فمرض بعض يوم فيما ظهر للناس ومات عند الزوال من يوم الخميس الثامن عشر من رجب الفرد الحرام، عام تسعين ومائتين وألف، فاجتمع إذ ذاك أهل الحل والعقد من الوزراء والشرفاء* والكتاب وقواد الجيوش والقبائل وأهل مراكش بدار السلطان، وعقدوا البيعة لنجله (16)، الأبر مولانا الحسن، ولم يختلف عليه أحد فيها، وكان المتولي لعقدها وجمع الأعيان عليها حاجب أبيه الفقيه الأرشد، أبا عمران السيد موسى بن أحمد، ثم اشتغل بتجهيز أمور الجنائز، واحتفل لها احتفالا (17) عظيما ما سمع بمثله، ودفن سيدي محمد ليلا بقبة جده مولانا علي الشريف بباب أيلان من مراكش رحمه الله، ثم توجهت الرسل بالخير لأمر المؤمنين مولانا الحسن فقام بأعباء الخلافة أحسن قيام، وحملها على كاهل المبة والاعظام، وتلبث يسيرا إلى أن اجتمع عليه من كان غائبا عنه في أغراض المملكة من جيوشه، وولى على القبيلة المذكورة من ظهرت له توليته من العمال، وأوصاهم بما تُنبغي الوصاة (18) به من الأقوال والأفعال.

(16) النجل الولد والوالد ضد، انتهى «ق».

(17) الاحتقال الوضوح والمبالغة، كالحفيل، وحسن القيام بالأمر، «ق».

(18) أوصاه ووصاه توصية عهد إليه، والاسم الوصاة والوصاية والوصية، «ق».

ثم نهض قاصدا مراکش نهوض عز وتأيد، ونصر ما عليه من مزيد، ومر على شيشاوة وزار أولياءها، وذبح الذبائح وسلك طريق الأدب مع الأولياء والصلحاء وقدر قدرهم، وأعطى أموالا كثيرة، وكسا الكسا (19) الرفيعة، وفعل الفعل الجميل، والخير الجزيل، ولم يزل ذلك دأبه إلى أن وصل لمراكش في يوم كان عيداً، وموسماً كبيراً وحيداً، وخرج له الجُم الغفير من مراکش وسلموا عليه وعزوه في أبيه وجددوا بيعته، واختلط بالناس ودعا لهم ودعوا له، ودخل من باب يغلى، وحصل للرعية فرح كثير بخلافته، لما يعلمونه من حسن طلعته (20)، ويمن نقيته (21)* وحصول كفايته، وعليّ همته وكثرة شفقتة ورحمته، وثباته ووفور عقله [7] ومعرفته ودرايته، وقد حلت فيه المملكة محلها، وكان أحق بها وأهلها.

ولما استقر بداره أقر حاجب أبيه المذكور على حجابته وزاده الوزارة عليها، وعرف له حقه وجازاه مجازاة الكرماء على وقوفه في بيعته، واختصاصه إياه بها على كثرة أعمامه وبني عمه وإخوته، ونوه (22) به التنويه التام، وصير في يده من الأمور الخاص والعام، فأصبح أبو عمران قطب الدائرة، ورئيس تلك المملكة الفاخرة، وأقبلت عليه الوجوه، ونال فوق ما كان يرجوه، وتأثل (23) مجده، وسما عرشه وسعده، واختص بنفوذ الكلمة من بين سائر الوزراء، وتقدم وتركهم وراء.

ثم جاءت الوفود بالبيعة للسلطان من جميع الأقطار، وأعيان كل البلاد والأمصار، وطأطأت (24) له الرؤوس وخضعت الأعناق، وبذلوا من الطاعة كل ما يطاق، فقابل كلا بما يليق بجلاله وكرمه، وأفاض عليهم جلايب إحسانه ونعمه، وباشر الأمور مباشرة أمثال (25) الملوك، وسوى في الحق بين الشريف والمشروف

(19) الكسوة بالضم الثوب، ويكسر، الجمع كسى وكساء «ق».

(20) حيا الله طلعته رؤيته أووجهه، «ق».

(21) النقية النفس والعقل والمشورة، وتفاذ الرأي والطبيعة، «ق».

(22) نوهه وبه: دعاه ورفع، «ق».

(23) أثل يائل أثلا وتأثل تأثل، وأثل ماله تأثيلا زكاه وأصله، وملكه عظمه، والأهل كساهم أفضل كسوة وأحسن إليهم، والرجل كثر ماله، وتأثل عظم، والمال اكتسبه «ق».

(24) طأطأ رأسه طامنه وخفضه، فتطاطا، «ق».

(25) الأمثل الأفضل، الجمع أمثال، والمثالة الفضل، وقد مثل ككرم... «ق».

والغني والصعلوك (26)، وحمد الناس سيرته، وأشريت قلوبهم وداده ومحبته، وصار حالهم كحال من سقط منه درهم فعوضه الله عنه بدينار.

[8] ثم أخذ في أسباب السفر لمدينة فاس واستعد له كل الاستعداد، واجتهد في تنظيم الأمور وتمشيتها على مقتضياتها غاية الاجتهاد،* وحشد (27) الحشود الكثيرة، وجمع الجموع الغزيرة، ولما تكامل له الأمر وفق المراد، ومهد البلاد وساس العباد، قام الرحامنة على عاملهم، وراموا ثلب (28) المملكة على عاداتهم، فأخره السلطان عنهم وأرخص لهم الرسن وطول الأمل، وتمثل بقولهم «مكره أخاك لا بطل»، وقد سقاهم على ذلك بعد حين كؤوس المرارة، وأطفأ من شدتهم كل الحرارة.

ثم نهض من مراکش في ثالث رمضان من العام المذكور مؤيدا منصورا، فرحا بما آتاه الله من الملك مسرورا، يجر الطم والرّم (29) من الجيوش والرجال، ملأ منها السهل والجبال، فقابلته رعيته وقبائله في سفره بمزيد الطاعة، والهدايا الوافرة جهد الاستطاعة، ولم يزل اليمن يقدمه والسعادة تخدمه إلى أن وصل لفاس، وكل أيامه كذلك من غير احتمال ولا التباس، ما رأي ما يخذش (30) في وجه المملكة أو يهضمها (31)، وينقصها حقها ويثلمها (32)، إلى أن استأثر (33) الله به، وقبضه إليه، وقد تكفلت بأخباره (ومآثره كتب التاريخ الموضوعة في هذا الشأن ككتاب «الاستقصا، لأخبار ملوك المغرب الاقصا» وغيره، فعاش جليلا حميدا، ومات عزيزا شهيدا، رحمه الله وغفر لنا وله، ودفن بثغر الرباط ضجيعا لجد جده أمير المؤمنين سيدي محمد، بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله، بن أمير المؤمنين مولانا

(26) الصعلوك كعصفور الفقير، «ق».

(27) حشد يحشد ويحشد جمع، «ق».

(28) ثلبه ثلبا من باب ضرب عابه وتنقصه ولامه وطرده وقلبه وثلمه، والمثلبة المسبة، وتضم اللام.

(29) الطم بالكسر العدد الكثير، جاء بالطم والرّم بالبحر والثرى، أو الرطب واليابس، أو التراب والماء، أو بالمال الكثير، «ق».

(30) خدشه يخذشه خمشه، والجلد مرقه قل أو كثر، أو قشره يعود ونحوه، «ق».

(31) هضم الطعام الدواء يهضمه نهكه، وعليهم هجم أو هبط، وفلانا ظلمه وغصبه، «ق».

(32) ثلم الاناء والسيوف ونحوه كضرب وفرح، وثلمه فانتلم وتسلم كسر حرفه فانكسر، والثلمة بالضم فرجة المكسور والمهدوم، والثلم محركة أن ينتلم حرف الوادي، «ق».

(33) واستأثر بالشيء استبد به وخص به نفسه، والله — تعالى بفلان إذا مات ورجي له الغفران، «ق».

[9] اسماعيل بن الشريف، عام أحد عشر وثلاثمائة وألف أوائل حجة الحرام ختام العام المذكور، وقد دخلنا لمقامه وزرنا، ودعونا* له ولجده المذكور بما نرجو من الله تعالى قبوله، وهو مقام حفيل، عليه من البهاء والرونق وحسن المنظر ما لا تفي بشرحه الأقلام، ولا تبلغ لكنّه — بدون المعاينة — الأفهام، وأيام مملكته أكثر من العشرين عاما كما يأتي.

وقد وقعت له مع أهل فاس وقعة شنيعة أثر حلولة بها، أبان فيها عن حسن التدبير، من ملك ذكي خبير، نشأت عن وقعة بنيس المشهورة، التي هي — إلى الآن — في الألسن مذكورة، مات فيها من الفريقين كثير، وكان أمرها من الأمر الغريب العسير، ثم اصطالح معهم بعد أن كان الظهور لجلاله الرفيع، ومقامه المنيع، وقبض على عاملهم السراج، لريبة تعلقت به في هذه الوقعة ونفاه إلى مراکش، فبقي بهامدة طويلة يعالج الحشرات، ويتأوه من النكبات والعثرات، إلى أن تعطف عليه بعد اللتي والتيا ورده لمحلّه، ولما وصل لفاس مات يوم دخوله لداره رحمه الله، واستراح من تلك الغصة، التي لا رأفة فيها ولا رخصة.

ثم أخذ أمير المؤمنين بعد الوقعة في تمهيد الأقطار، وتسكين الروعة في الانجناد والأغوار، وواصل في ذلك الليل بالنهار، والعشايا بالأسحار، ونفي الدجاجيل عن مملكته، وحصلوا في قبضته كالهبري ومولانا الكبير وهابه أهل الغرب برمته⁽³⁴⁾ لما تحققوه من صرامته⁽³⁵⁾ وإقدامه وشجاعته، وجودة رأيه وسياسته،^[10] وعلا صيته⁽³⁶⁾ في جميع الأوطان، وسارت* بأخباره العجيبة الركبان، وسمت همته العليا إلى توسيع المملكة وتمتين عروتها⁽³⁷⁾، وانفساح دائرتها وتنظيم أمتها، ولم شعنها⁽³⁸⁾، وجمع كلمتها، فتيسر له ذلك، وبلغ فيه أقصا ما هنالك، واتسعت دائرة ملكه كثيرا، وكان بإدارة الأحوال وصرف وجوه الأحوال بصيرا، وجال في أقطار مملكته القرية والشاسعة⁽³⁹⁾ في سائر أيامه النية الناصعة.

(34) ودفع رجل إلى آخر بعيدا بحبل في عنقه، فقبل لكل من دفع شيئا بجملته أعطاه برمته، «ق».

(35) الصارم السيف القاطع كالصروم، والماضي الشجاع، وقد صرم ككرم، «ق».

(36) الصيت بالكسر الذكر الحسن، «ق».

(37) العروة من الدلو والكوز المقبض، «ق».

(38) الشعث محرّكة انتشار الأمر، «ق».

(39) شسع المنزل كمنع شسعا وشسوعا بعد، فهو شاسع وشسوع، «ق».

فوصل للريف مرتين، ودوخه (40) كرتين، وطاف على أمه المحشورة، وقبائله المذكورة، على اتساع أقطاره، وكثوة أوعاره، وعلو مناره، فثقف أطرافه، ووطد (41) أكنافه (42)، وولى فيه وعزل، بمعونة من الله عز وجل.

وقبض في المرة الثانية على البشير بن مسعود الزناسني وبعض من أقاربه وذويه، ولم تكن سماء تظله ولا أرض تؤويه، جزاء على ما اقترفه من التهاون بمنصب المملكة، والتجاسر على خليفة السلطان لما وجهه لتلك البلاد بالحركة، وهو من هو في رفعة الشأن بتلك الأقطار، والحكم على صناديد (43) هاتيك الديار، وكثوة الأموال التي جلت عن المقدار، واتساع دائرة أبطاله، وكثوة عُدده وعُدده ورجاله، فافترسه السلطان اقتراس الأسد الضاري (44)، وانقض عليه انقضاض البازي على الصيد العاري، واستخرجه من كنه (46) وسلبه من عزه على كبر سنه، فأصبح حقيرا أسيرا، بعد أن كان أميرا كبيرا، ثم وجهه ومن معه لفاس* يسجنون بها وكان ذلك اخر العهد بهم، وبمجموعهم المفلولة (47) من بعدهم، فذهبوا وتفرقوا شذر مذر (48)، حتى لا خبر ولا أثر، وتعجب الناس من ذلك وتحققوا به يمين السلطان الغضنفر، وما سناه له من التيسير والظفر، العلي الكبير المالك، وولى في محله عددا من العمال، وأصلح ما انثلم من تلك الأحوال، وجبى من هنالك شيئا كثيرا من الأموال.

(40) داخ البلاد قهرها واستولى على أهلها، كدوخها، ودوخه: أذله، «ق».

(41) وطد الشيء يَطِّدُه وطدا وِطَّةً فهو وطيْد وموطود أثبته وثقله، كوطده فتوطد، وإليه ضمه، وله منزلة مهَّدها «ق».

(42) أنت في كنف الله تعالى في حرزه وستره، وهو الجانب والظل والناحية، كالكنفة محرَّكة «ق».

(43) الصنِّد كزبرج السيد الشجاع كالصنديد، أو الحليم أو الجواد أو الشريف «ق».

(44) ضري به كرضي ضري وضراوة وضريا وضراة لهج، وضراه به تضرية وأضره، والضرو بالكسر الضاري من أولاد الكلاب، كالضري، وكلب ضار بالصيد... «ق».

(45) انقض الطائر هوى ليقع «ق».

(46) الكن بالكسر وقاء كل شيء وستره، كالْكِنَة والكنان بكسرهما، والبيت، الجمع أكنان وأْكِنَة... «ق».

(47) فله وفلله ثلثه فتقل وانقل ومنقل، والقوم هز مهم فانقلوا، وقم فل منهزمون، الجمع فلول وأفلال، وسيف فليل ومفلول وأفل ومنقل منثلم، وفلوله ثلثة، واحدها فُل «ق».

(48) تفرقوا شذر مذر ويكسر أولهما: ذهبوا في كل وجه.

ووصل إلى وجدة ودخلها، ونظر حالها وأصلح شأنها، ولما قضى من ذلك الوطن الأغراض، وأزال منه الشقاق (49)، والأمراض، رجع لقرار ملكه وبحر فلكه مدينة فاس، الطيبة الأنفاس، مؤيدا منصورا، وبكل لسان مذكورا، وقعد على أريكة ملكه يياشر الأمور، وينظر في عواقب ما تأتي به الأيام والدهور.

وقد كانت وقعت بينه وبين قبيلة غياثة في وجهته هذه للريف قبل القبض على البشير بن مسعود وقعة مشهورة، وعثو باليوار (50) — لولا لطف الله — موقورة (51) وكان النصر فيها أخيرا للسلطان، الذي هو نور هذا المغرب الهتان (52) فهدم لهم الديار، وحرقت الأشجار، ومحا منهم الآثار، وطلع عليهم في جبالهم التي هم بها معتصمون، وعن طوارق الجدثان متحصنون، وأراهم خلاف ما كانوا يظنون، وانشمروا لرؤوس الجبال هارين، ولنجاتهم ونجاة أولادهم طالبين، لكن [12] إنمحص (53) من جيوشه وعساكره شيء كثير، بقدرة الله العلي الكبير، سقطوا في هوة (54) غامضة لم يكن عندهم علم بها، حيث اضطربهم الأعداء وألجأوهم إليها، إلى أن امتلأت من الخيل والرجال، والأموال الكثيرة ذوات البال، وماج (55) الناس موجا ظنوا به وقوع الكائنة على نفس السلطان، وانبهت المسالك بكثرة الغبار والدخان، وكادت الهزيمة تتم على المحلة لولا حلم الله الملك الديان، وظهر السلطان في ذلك الوقت من الشجاعة والصبر والثبات ما تحدث الناس به دهرا طويلا، وكان ذلك على رفعة وشدة بأسه دليلا، وحاز به ذكرا جميلا، وثناء جزيلا.

ولما رأى ما حدث من الفرع والاضطراب، وقرب انغلاق الأبواب، رجع من محل المعركة تمهيدا لمحلتة وتسكين روعتها، وتأمين جمعها وأمتها، فاستبشر الناس بمقدمة وفرحوا، وابتهجوا بسلامته وانشرحوا، وهان عليهم ما حل بإخوانهم بالنسبة

(49) الشقاق الخلاف والعداوة، «ق».

(50) اليوار الهلاك، وكساد السوق، «ق».

(51) الوقر بالكسر الحمل الثقيل، أواعم، الجمع أوقار «ق».

(52) الهتن الانصباب، أو هو فوق المطلق... «ق».

(53) التمحيص الابتلاء والاختبار والتنقيص. «ق».

(54) الهوة كقوة ما انهبط من الأرض، أو الوهدة الغامضة منها، كالهواة كرمانة، «ق».

(55) الموج: اضطراب أمواج البحر. «ق»

إليه إذ بقاءه بقاء للجميع، ولا سيما في ذلك الصقع الفظيع، وقال لسان حالهم بجهة العير يفدي حافر الفرس، فلبث ⁽⁵⁶⁾ في محله ثلاثة أيام ريثا ⁽⁵⁷⁾ راجع الناس بصائرهم، وعقدوا على النصرة ضمائرهم، ثم قصد بعدها غيابة في جبالهم وأوعارهم، واستخرجهم من عشاشهم وأوكارهم، وكان له من النصر والظفر ما قدمناه، واسلفناه وشرحناه.

[13] ورجع السلطان بعد حين من فاس لمراكش فجلس فيها مدة حتى استقامت أمورها، وأمنت سبلها وجموعها، وأوقع فيها بأولاد أبي السباع وقبض على كثير من رجالهم وصناديدهم بحيلة دبرها، وشبكة نصبها ويسرها، وأورث نساءهم وأولادهم البكاء والعيول، والحزن الكبير الطويل، ولولا تلك المكيدة ما حصلوا، ولا مستهم شوكة الغالبيين ولو بذلوا ما بذلوا، لأنهم كلهم شجعان وأبطال وفرسان، لا يصبرون على الهزيمة، ولا يرضون بالذميمة، ولكن أمر الله إذا جاء لا تنفع فيه التهمة ⁽⁵⁸⁾، فانكسرت شوكتهم، وذهبت حذتهم، وزالت نخوتهم، وصاروا في ذلك الوقت أذل من وتد بقاع، وتفرق من بقي منهم في كل الأصقاع والبقاع، طلبا للنجاة من مثل هذه الفتكة العديمة المثال، والفعلة التي بدلت الأحوال، وكثرت الأهوال، ولم يبق سوى المستضعفين من الرجال والنساء والبنين، تبكي عليهم ربوعهم بالصراخ والأنين، وتناديهم ألا هلموا فليس إلا الصبر الجميل والانتكال على الرب المعين.

وذلك بعد أن فتك بالرحامنة مثلها، وفرق جموعهم كلها، وأكثر لهم العمال، وأشبعهم من الأهوال والإهمال، في خبر يطول جلبه، وغاية الأمر فهذا لُبه.

ثم رد وجهته للكتناني بجبال المصامدة من الموحين لتعصبه وتمرده في غيبة السلطان لفاس وقتاله لجيوشه المحاصرة له، وطلبه بالنزول من جبله والقدوم على حضرته وإلا يأذن بالحصار، وإخلاء الديار، فلم يمكنه إلا الامتثال، خوفا مما يجر إليه الحال، فجاء إليه مستجيرا بكبير زاوية أهل تمكدشت، فأجاره وشافهه

(56) اللبث ويضم واللبث محركة والنَّات واللَّبات واللَّبات واللَّبات واللَّبات... «ق».

(57) الريث الإبطاء كالتريث، والمقدار، وما أرائك ما أبطأك... «ق».

(58) التميم التام الخلق، والشديد، وجمع تميم، كاتممهم لحزرة رقطاع تنظم في السير ثم يعقد في العنق، وتم المولود تميما : علقها عليه، «ق».

واجتمع به وولاه على أهل جبله، وغض الطرف عما اعتذر به وأظهره من علله، وسدل عليه جلباب الأمن والكرم، وردّه لنحله مغمورا بالنعم، واستقام حال الكتتافي وأخلص الطاعة، ودخل فيما دخلت فيه الجماعة، وبقي على ذلك إلى أن مات، وذهب وفات، رحمه الله، فقدم ولده على حضرة السلطان وولاه في محل أبيه، وكبره على قبيله وذويه، ولا زال على طاعة السلطان، إلى الآن وحتى الآن.

ثم صار السلطان يستنزل الأسود من الصياصي (59)، ويلين قناة كل مرید عاصي، إلى أن أطاعته البلاد، وخضعت لصولته العباد، ولم يزل يذهب لفاس تارة ولما ركش أخرى سائر أيامه، ما ركن إلى دعة ولا شيع من منامه، ووصل إلى جبال أيت ومالوا وقبائل فازاز وما والاها، ودوخ ذلك القطر المديد، والصقع (61) العريض البعيد، مرة بعد أخرى، وأيادي الله تتزايد لديه وتترا، وأوقع بقبيلة أيت سخمان وقعة بعد العهد بمثلها، ولم يوقف لغيو على شكلها، لقتلهم ابن عمه مولاي سرور، ومن كان معه من الجيش المغلور، فأبقاها فيهم ديناً على الملوك، وتوجه [15] *لقطر السوس الأقصا مرتين: الثانية. منهما كانت عام ثلاثة وثلاثمائة والف، ووصل إلى وادي نون ووفدت (62) عليه الوفود هنالك من قبائل الصحراء متبركين بمقدمه، ومستظلين بظل حرمة ورايته وعلمه، فقابل كلا بالجميل، وأنعم عليهم بالخير الكثير الجزيل، وكتب من وادي نون كتاباً إلى الشيخ الجليل، والغوث الذي ماله من مثيل، سيدي ماء العينين أطال الله حياته في عافية الدارين، يطلب منه القدوم عليه لمحلته، بقصد التبرك به والاجتماع معه ورؤيته، وتمثل في آخر ذلك الكتاب بما نصه

وأبرح (63) ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار
ومكث بوادي نون نحو العشرة أيام.

(59) الصياصي جمع صبيصة بالكسر، ولها معان، منها الحصن وكل ما امتنع به، «ق».

(60) القناة الرمح، «ق».

(61) الصقع بالضم الناحية، «ق».

(62) وفد إليه وعليه يفد وفداً ووفوداً وفادة قدم وورد، وأوفده عليه وإليه، وهم وفود وفود وأوفاد ووفد، «ق».

(63) وأبرح أي أشد. «ق».

ثم نهض راجعا لمحل سلطنته، ومقر مملكته، مدينة مراکش الحمراء، ذات البساتين الشهيبة الخضراء، والبهجة البهية الغراء، والنخيل الباسق (64) الأفنان (65) كأنها الياقوت والمرجان، وبينما الشيخ يهيء الأمور إذ بلغه نهوض السلطان من وادي نون، فأمسك عن القدوم وبعث الجواب، عن شريف ذلك الخطاب، بأن الاجتماع المطلوب بوادي نون لم يمكن الآن، فأجابه السلطان بالجمي لأبي محل وجده الحال به من الأوطان، فامتثل ذاك وتحرك من محله بدرا طالعا، ونورا ساطعا، وغوثا (66) جامعا مانعا، وسمة تشهد أنه من أكابر الصالحين، الناجحين*الراجحين، ما شئت من سناء (67) تحجل (68) منه الأعمار، وبهاء (69) تجله الأبرار، وقدر تصغر عنده الأقدار، وحالة تحبها القلوب، ويتقرب بالانتماء إليها من علام الغيوب، فلا شك أنه من بقية الناس أهل الصدق والوفا، والقناء في محبة الله ومحبة المصطفى، فله دره ما أعظم منظره ومرآه، وأحلاه وأغلاه،

آياته تبليك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
 ووصل لمراكش حيث لم يدرك السلطان إلا بها في يوم مبارك سعيد، امتلأ من الأنوار والاشراق حتى كأنه عيد، وقابله السلطان بمزيد الاعتناء والكرامة، والمراعاة البالغة التي هي على حسن الاعتقاد علامة، واجتمع به وشافهه وطلب منه الدعاء في خلوة بقعر داره، وأطلعه على الحقير والجليل من أخباره، وكمين أسرار، فدعا له وبشرو، وسكن أهواله بما ألقاه له وقرره، وابتهج السلطان بمقدمه، وأجرى عليه وعلى أتباعه ومواريد كثير من نعمه، وأنزله بدار الفقيه الحاجب الأنجد، السيد أحمد بن الحاجب الوزير السيد موسى بن أحمد، وأباح له دخول من يأتي إليه بقصد التبرك والزيارة، وجاء إليه الناس في كثرة تكل عن إحصائها [17] العبارة، وتلمنوا له واقتلوا به، واهتلوا بهديه وتعلقوا بسببه، وقد زرنه والحمد لله مرارا، وزاره أولادنا وأهلنا ودعا لنا ولهم دعاء مدرارا (70) وتلمننا له والحمد لله ونحن

(64) بسق النخل بسوقا طان «ق».

(65) الفنن محرمة الغصن، جمعه أفنان، وجمع الجمع أفنانين.

(66) الغوث: علم على القطب الفرد الجامع، «ق».

(67) السنا ضوء البق، وبالمد الرفعة... «ق».

(68) خجل كفرح استحيا ودهش وبقي ساكنا لا يتكلم ولا يتحرك «ق».

(69) البهاء الحسن، والفعل يَهْوُ كَسَرُو ورضي ودعا وسعى «ق».

(70) مدرارا أي كثيرا، «ق».

الآن تنقلب في ظل رضاه، ونحتمي بحماه، رضي الله عنه وأرضاه، وصدر الشيخ من الحضرة قافلا لحله محفوف الجناح بالعناية. والمراعات التي ما لها من نهاية.

وودع الناس وودعوه وذهب في سلامة والقلوب تتحسر على فراقه، وتلهف على بعده وانطلاقه، وسار يخترق الجبال والوهاد، بعد أن قرأوا لديه «إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد»، فحقق الله الرجاء وعاد وعاد، وستاتي بقية أخباره، وجملة مختصرة من كراماته وأسراره، إن شاء الله تعالى، وقد اعرضت في هذا المسطور، عن التعرض لتاريخ كثير من الأمور، حيث لم يكن لدي كتاب نستمد منه ونعتمد عليه من كتب التاريخ، وما ذكرت فيه إلا ما أسندته لعلمي ودرايتي، وفهمي الركيك وغباوتي، لأن المدار عندي هو بث أخبار هذا الملك الجليل، ليعلم الفرق بينها وبين ما بعدها مما أتى به الزمان البخيل، والعصر الذي ماله في الشؤم مثل، وحسبي الله ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم الكفيل، وقدم الشيخ هذا كان أول عام أربعة أو آخر عام ثلاث قبله بلا شك ولا ريب.

[18] وتوجه السلطان — أيضا — لأقطار جبال العلم* وزار أولياءها وصلحاءها المقطوع لهم بالولاية ممن تأخر أو تقدم، خصوصا القطب العلي الشان، الواضح البرهان، المعظم في جميع الأقطار وسائر الأزمان، السائر صيته مسير المثل، ولي الله عز وجل، سيدي وسندي سيدي عبد السلام بن مشيش سليل النسب الطاهر، والحسب الباهر، الذي صدحت بعلياه أولياء المنابر، وشهدت ببركته وكرامته أكابر الأكابر، زاده الله تكرمة وتشريفا، وفخرا عظيما منيفا، وعرف الناس هنالك وعرفوه، وكرعوا⁽⁷²⁾ في بحر كرمه وارتشفوه⁽⁷³⁾، وأعطى عطاء أكابر الملوك، ومهد البلاد للسلوك، ونصب العمال، وأحيا رسوم المملكة في سائر تلك الأعمال، وجبى منها جبايات، كانت لسعادته آيات وأي آيات.

(71) صدح الرجل والطائر كمنع صدحا وصدحا رفع صوته بغناء، «ق».

(72) كرع في الماء أو في الاناء كمنع وسمع كرعاً وكروعا تناولوه بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفية ولا بإناء، «ق».

(73) الرشيف كأمر تناول الماء بالشفتين، ورشفه يرشفه كنصره وضربه وسمعه رشفا مصه، كارتشفه وترشفه وأرشفه ورشفه، والاناء استقصى الشرب حتى لم يدع فيه شيئا، والرشف أنفع أي ترشف الماء قليلا قليلا سكن بعضه، «ق».

ودخل لمدينة تطوان، التي هي لكل خير برهان وعنوان، وفرح به أهلها فرحا ما عليه من مزيد، وتلقوه بالترحيب والتبجيل والتعظيم والتمجيد، وفعل معهم ما يليق بجلاله الشريف، وجانبه المنيف، ثم توجه لطنجة بعد احتفاله لدخولها الاحتفال العظيم، واستعداده الاستعداد العميم بالخيول المسومة (75) والسروج الجديدة المنعمة، والرجال العديدة المعظمة، والعدة الرائقة، والشارة (75) الفائقة، فحلها على حالة ما سمع بمثلها، وتلقاه جميع كبرائها وأهلها، حتى من استوطنها من الأجناس،* ونال حظوة (76) ورفعة لا تقاس بمقياس، وأتته الهدايا الكثيرة، والمواهب الفاخرة الغريزة، وشهد له الناس بالفضل المتين، والعقل الرصين، ومكث بطنجة نحو الثمانية عشر يوما ثم نهض منها عن عز شاخ، ونصر باذخ (77) وقدم ثابت في السلطنة راسخ، ووصل إلى العرائش ودخلها وأمطرها فضله المعلوم، وكرمه المحتوم، ثم توجه للقصر الكبير، ذي الخير الكثير، والأمن الشهير، ومنه رجع لمدينة فاس، محل العلم وموطن الأكياس.

ووصل السلطان — أيضا — لفطر تافيلالت موطن أسلافه الكرام، ومحل الأشراف الأجلة العظام، فجال بأقطارها، وتلاقى بأوليائها وبخيارها، وحمايتها وأنصارها، ومهداها بكل ما قدر عليه من تيسير أوطارها، وتفخيم آثارها، وأعطى الأموال الجزيلة، وبذل الكسا الرفيعة الجميلة، وطاف على زيارة مقامات أجداده الصالحين، الشرفاء المفلحين، وهو على غاية ما يكون من النشاط والابتهاج، والانشراح المتلائم الوهاج، لوصوله لذلك المحل السعيد، وكان يوم وصوله إليه معمورا بالمحاسن كالعيد، ومكث هنالك أزيد من نصف الشهر إلى أن استوفى غرضه في زيارة إخوته وبني عمه وتلافاهم، وأكرمهم وأعطاهم، ووسع لهم دائرة [20] كنفه وأغناهم، وكساهم وحلاهم، وبلغهم من كل خير مناهم،* ثم ارتحل والقلب منه متعلق بمعاهد السلف تعلق الفرزدق بالنوار، وله حنين إليها كحنين الناقة إلى

(74) المسومة أي عليها أمثال الخواتيم، أو معلمة بياض وحمرة، أو بعلامة، «ق».

(75) الشورة والشارة والشور والشار والشار الحسن والجمال، والهيئة، واللباس، والسمن، والزينة، «ق».

(76) الحظوة بالضم والكسر. والحظة كعدة المكانة، والحظ من الرزق، الجمع حظا وحظاء، «ق».

(77) شرف باذخ : عال، «ق».

الحوار (78) وعشيرته وأقاربه يتلهفون (79) على فراقه، وكل منهم يرسل الدموع الغزار عليه من آماقه (80) ويلهجون (81) بما أسداه (82) لهم من جلائل الكرم، وسدله عليهم من جلايب النعم، ويدعون له بمزيد النصر والتأييد، والعز الكبير المديد، والفتح المبين الوحيد.

وصدر أمير المؤمنين من تلك البلاد موفور الطاعة من قبائلها، ومسموع الكلمة من رجالها وعوالمها، والنور يلمع من جبينه، ويتصبب من كل ذاته وجوارحه ويمينه، فقصد مراكش على طريق جبال الجلاوي التي صافحت النجوم علواً وارتفاعاً، وزادت شدة ووعورة وامتناعاً، والتحفت بالثلوج وتدرعت، واحتجبت بها وتسربت وتسترّت، فقاسى الناس فيها من الشدائد ما لم يكن لهم بالبال، وخاضوا بحار المشاق والأهوال، ونالوا من الأوحال ما يطول فيه المقال، وما استخلصوا مهجهم من تلك الجبال، إلا بعد أن ظنوا أن الخلاص محال، ولما أشرفوا على أنحاء مراكش ونظروها، وهبت عليهم رياح الرحمة منها واستنشقوها، وعاینوا ما لا يوصف من سعة أنحائها، وانبساط أرضها وامتداد عمرانها وأحيائها، وكثرة أوديتها العذبة وأنهارها،* رجع إليهم نافر أنسهم، وذهب عنهم خاطر بأسهم، واكتحلوا بعد بالمنام، [2] وحمدوا على نجاتهم الله الملك العلام.

وتوجه السلطان لما تخلص من ذلك الجبل لزيارة الولي الصالح، والقطب الشهير الواضح، أبي المكارم سيدي رحال، محل الرجاء وموئل الرجال، رضي الله عنه وأرضاه، وأعطانا كما أعطاه، ونفعنا به آمين، فزاره وذبح بمقامه، وتلق بين يديه ومكث بزأوته ثلاثة أيام، حتى اجتمع عليه من كان باقياً في ذلك الجبل من عساكره وجنوده، وصناديد رجاله وأسوده.

(78) الحوار بالضم وقد يكسر ولد الناقة ساعة تضعه، أو إلى أن يفصل عن أمه، جمعه أحورة وحيوان وحواران، «ق».

(79) لهف كفرح حزن وتحسر، كتلهف عليه، «ق»

(80) مأق العين طرفها مما يلي الأنف، وهو مجرى الدمع من العين، أو مقدمها، أو مؤخرها، الجمع آماق وأمباق ومواق ومثاق، «ق».

(81) لهج به كفرح أغري به فتأبر عليه... «ق».

(82) أسدى بينهما : أصلح، وإليه : أحسن، «ق».

ثم نهض لمدينة مراكش فوصلها عن يومين لكثرة ما كان به من الشوق إليها، والاهتمام بها، وكان يوم وصوله لها من نوادر الزمان في الفرح والجد، والابتهاج الذي ما له من حدود، وانصبت عليه الناس انصباب الغيث الصيب، وتعلقوا بذيله المبارك الطيب، وقصلوا بابه بالتهاني، وقابلهم بغاية الأمن والأمان.

ولما اشتد سلكه، وتكامل ملكه، أتاه أمر الله لميقاته، على حين ما كان متأهبا لمماته، ومستشعرا انقضاء حياته، فلبى داعي الله موقنا موحدا، ومتكلا عليه ومعتمدا، فرحا مسرورا بلقاء ربه، مؤملا عفوه وغفرانه من صميم قلبه، رحمه الله [22] رحمة تلحقه بالأمراء الصالحين، وتؤهله لنيل مراتب الأبرار* المفلحين.

وذلك أنه لما وصل لمراكش من هذه السفرة الفيلاية لم يجلس بها إلا أقل من القليل وطمحت نفسه للتوجه لفاس، قاصدا قطع عرق الفساد في طريقه من بعض عصاة القبائل والأنفاس، فحشد (83) الحشود، ووفر الجنود، واستكثر من الخيل العتاق، واستعد الاستعداد الذي لا يطاق، ثم نهض من مراكش بجحفل (84) ملاء الفضاء، ونسف البحار والاضياء، في منتصف قعدة الحرام عام أحد عشر وثلاثمائة وألف، ولما قرب من بلاد تاذلا اتصل به مرض موته وتزايد به، إلى أن وصل لدار ولد زيدوح فعجز السلطان عن النهوض، وأقام هنالك ينتظر الفرج مما ألم به من السقم المبعوض، ولما كانت ليلة الخميس الثالث من الحجة الحرام من العام المذكور قرب نصف الليل مات رحمه الله وقده، عن واحد وعشرين عاما لمملكته وأربعة أشهر وخمسة عشر يوما.

وقد كان قدم أمامه قبل خروجه من مراكش ولده الأبر، الطالع السعيد الأغر، مولانا عبد العزيز، ووجهه لثغر الرباط في زي فخيم، وشأن عظيم، وأبهة ملوكية، وهمة عالية هاشمية، لتجتمع عليه جيوش الغرب هنالك برمتها، وقبائله الدانية والقاصية بأجمعها، ويقدم بتلك الجموع على أبيه في الموضع الذي يعينه له، وبمجرد ما وصل للرباط طرقة خبر الموت، ووقوع الفوت، وجاءته المكاتيب من وزراء أبيه،* بالملكث إلى أن يقدموا عليه بشلو (85) أبيه، فبكى وتضرع، وتحسر وتوجع، وصبر الصبر الجميل، علما بأن البقاء لله الواحد الجليل.

(83) حشد يحشد ويحشد : جمع، «ق».

(84) الجحفل كجعفر الجيش الكثير، والرجل العظم، والسيد الكريم، «ق».

(85) الشلو بالكسر : العضو والجسد مـ . كل شيء «ق».

ولما مات السلطان في الوقت المذكور، لم يكن علم به عند ذلك الجمهور،
 المجتمع من سائر المعمور، وأول من اكتسب الخبر في الحين الحاجب الأجل،
 الفقيه الأديب الأحفل، الرجل المقدام، والشهم الأثمي الضرغام⁽⁸⁶⁾، مبيد الظالمين،
 وقاطع دابر القوم المفسدين، صاحب السياسة الحميدة، والأثار الكثيرة العديدة،
 من ختمت به الوزارة، وكلت عن بلوغ وصفه العبارة، السيد أحمد بن الفقيه
 الحاجب الوزير السيد موسى بن أحمد، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في حماية
 النبي الشفيق، فقام إذ ذاك أحسن قيام، ومشى على نهج الخدام النصحاء الأعلام،
 وكنم الأمر عن الخاص والعام، وأصبح راحلا من الغد بالرحلة مظهورا أن الرحيل عن
 أمر السلطان، لخوفه من شيوع الخبر وهم في مجبوحة⁽⁸⁷⁾، تلك الأوطان، الخارجة
 عن الاستقامة من قديم الأزمان، وساروا النهار كله ليقطعوا مسافة الخوف إلى محل
 الأمان، وفي العشية من نفس ذلك اليوم نزلوا في محل يسمى «البروج»، فأمنوا فيه
 على أنفسهم من أهل تادلة الذين تناهوا في الصعود والعروج، إلى أن مالت بهم
 السروج.

ولما استقرت المحلة في محلها، وتكاملت باجتماع أهلها، أظهر الحاجب
 المذكور موت السلطان، بعد أن* أحضر الوزراء وأرباب الدولة والعمال والعسكر
 [24] وسائر الأعيان، وعقد البيعة لنجله مولانا عبد العزيز، وأمر بضرب البارود وإخراج
 المدافع، حتى أصطكت الأذان من كل قريب وشاسع، فأرهب بذلك الأعداء،
 ورماهم بعضال الداء، وجمع الكلمة بعد افتراقها، وقوي عضد المحلة ورجالها،
 وفكها من أوحالها، وأصبح راحلا أيضا من الغد بجثة السلطان على هيئة حسنة،
 وشارة مستحسنة، ووالى الرحيل ثمانية أيام، وفي اليوم التاسع وصلوا لثغر الرباط،
 فتلقاهم مولانا عبد العزيز بجيوشه وجميع أهل المدينة، وسلموا عليه وبايعوه وعزوه
 في أبيه، ثم اشتغلوا بتجهيز الجنازة وأمور الدفن، ودفنوها حنو قبر سيدي محمد بن
 عبد الله أمير المؤمنين قدس الله أرواحهم، ونعم أشباحهم، وقد سبق في صدر
 الكتاب الإشارة إلى ذلك، واعدنا ذكره هنا بأزيد وأبسط مما هنالك، والعود أحمد،
 وما قبله أوسع وأفيد.

(86) الضرغام كجعفر وجريال وجريالة الأسد، «ق».

(87) بُحْبُوحَة المكان : وسطه، «ق».

وأخبار هذا السلطان الجليل رحمه الله كثيرة، ومناقبه جليلة شهيرة، ولو تتبعناها لطال الحال، وكل لسان القلم وحال، والمقصود هو التعرض لها باختصار، ليعلم الواقف عليه أن زمانا مضى به لا يعود، ولا تماثل سعوده سعود، ومن اراد استيفاءها على الترتيب في التقديم والتأخير فعليه بالاستقصا فإنه شفى وكفى، [25] وكال ووفى، وها أنت سمعت ما تلوناه عليك من أخباره،* واهتباله برعيته واعتباره، ووصله لكثير من بلاده وأقطاره، ونيله لملك جديد بما فتحه من البلاد الشاسعة، والأقطار المتعددة الواسعة، التي لم تنكح لأبيه ولا لجدّه، فعند أواخر عمره وصلته البيعة من السودان، ورد عليه بها بعض أهل بلاد تينبكتوا، واجتمع بهم بمراكش ورأوه ورآهم، وكلموه وكلمهم، ورأيناه نحن كذلك، وقبل ذلك بايعه أهل قطر توات، ودخلوا في حزبه بعد أن كانوا فوضى، وولى عليهم العمال والقضاة، وتراسل مع كثير من أعيانهم وخاطبهم وخاطبوه ودعوا له على منابرهم، ولم يبق — فيما علمت — موضع لم يصله إلا بلاد درعة، وقد كان في نيته أن يصلها فعاقه عنها الأمر المحتوم، والفرض المعلوم، وأما بلاد دكالة والشاوية وتادلة ودمنات وهنتيفة وبلاد زمور ومدينة مكناس فإنها عنده محل المرور، في كل ورود وصدور، وكانت أطوع من يده لفمه، فلذلك لم نذكرها فيما تقدم من أخبار البلاد التي فتحها، والأصقاع التي دوخها، حيث وصوله لها معلوم بالضرورة ولا غرابة فيها.

• وقد تأثل ملكه بكثرة الأموال والذخائر، والزروع والضروع والبارود والعدة والقرطاس وغير ذلك مما يطول بيانه، وكانت أبوابه غاصة — دائما — بالخلق.

[26] وكان له عدد كبير من الوزراء والكتاب، وها أنا اذكر بعضهم لتعلم أنهم كانوا زينا لذلك الباب، وفخرا كامل النصاب،* فمن وزرائه أبو عمران الفقيه الأجل السيد موسى بن أحمد المتقدم الذكر في صدر هذا الكتاب، وشهرته وضخامة منصبه غنية عن التعريف به، مات رحمه الله في الثالث عشر من المحرم الحرام عام ستة وتسعين ومائتين وألف، ودفن بداخل قبة مولانا علي الشريف بمراكش، وشيع السلطان جنازته، وحضر على الصلاة عليه ودفنه، واستقل ولده الفقيه السيد أحمد بوصف الحجابة دون الوزارة، والوزارة كانت أعظم في ذلك الوقت من جميع الخطط، فلا كلام لغير صاحبها.

ومن وزرائه بعد موت أبي عمران الفقيه الأجل السيد محمد بن الوزير الفقيه السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي، وبقي على وزارته مرفوع القدر، مسموع النهي والأمر، إلى أن اتصل به مرض صده عنها عام ثلاثة وثلاثمائة وألف، ولا زال حيا ومصابا بذلك الداء الآن، وهو أواخر رمضان عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف، فأقام له السلطان من ينوب عنه في إدارة أمر الوزارة إلى أن يصح من مرضه، وهو الفقيه الكاتب العدل السيد محمد الصنهاجي الفاسي، ثم مات الصنهاجي رحمه الله بفاس، وقام مقامه في النيابة الفقيه السيد الحاج المعطي بن العربي بن المختار الجامعي أخو المنوب عنه وهو في صورة وزير، وبقي على وزارته إلى أن مات السلطان، وسيأتي خبر عزله إن شاء الله في دولة مولانا * عبد العزيز. [27]

ومن وزراء السلطان على الشكايات الفقيه الوزير المسن السيد محمد الصفار التطواني، وكان وزيرا عند أبيه وجده كذلك، مات في حياة السلطان ودفن في قبة سيدي يوسف بن علي قبالة باب أغمات من مراکش، رحمه الله.

ومن الوزراء على الشكايات أيضا بعد الصفار الفقيه الوزير السيد علي المسفيوي، وبقي على خطته إلى أن مات السلطان وأقره مولانا عبد العزيز على مكانته، وقد مات في دولته كما سيأتي، وهو من أشياخ السلطان على ما قيل.

وكان قائد مشوره قائد مشور أبيه القائد الجيلاني بن حمو البخاري، ثم عزله وولاه على ثغر طنجة، وجعل في محله على المشور القائد محمد بن يعيش البخاري، وحيث مات جعل السلطان في محله القائد ادريس ابن العلام البخاري، وبقي إلى أن مات السلطان وأقره مولانا عبد العزيز على خطته حسبما يأتي.

وكان على الحجابة الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد بحسب النيابة عن أبيه، ولما مات أبوه استقل بها إلى أن مات السلطان وانتقل للوزارة عند نجله مولانا عبد العزيز.

وكان كبير عسكره — أولا — كبير عسكر أبيه، وهو الفقيه الأديب السيد عبد الله ابن أحمد، أخو الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد، ثم أخره وولاه على مدينة فاس بعد عزل عاملهم السراج، وجعل في محله كبيرا على [28] العسكر : الفقيه* السيد محمد بن العربي الجامعي المتقدم الذكر، ولما انتقل للوزارة

بعد موت أبي عمران جعل أخوه السيد محمد الصغير أميراً على العسكر، وبقي إلى أن مات السلطان ونكبه مولانا عبد العزيز كما يأتي، وأولاد الجامعي هؤلاء هم أحوال للسلطان، وقد تأثّل مجدهم، وارتفع في أيامه قدرهم، إلى أن أختت عليهم الأيام بعده وردت منهم ما أعطتهم، وهكذا حال الدنيا، نسأل الله السلامة، آمين.

ومن وزرائه على البحر والكلام مع الأجناس الفقيه السيد فضول بن محمد غريبط، وبقي إلى أن مات السلطان وأقره — أولاً — مولانا عبد العزيز، ثم كان من أمره ما نذكره في محله إن شاء الله.

ومن كبار أمناء حضرته أمين الأمناء السيد محمد التازي الرباطي، ولما مات جعل في محله أخوه السيد عبد السلام، وبقي إلى أن مات السلطان وأقره على خطته مولانا عبد العزيز، ثم أعفي بعد أن طلب الاعفاء كما يأتي.

ومنهم الأمين النقاد الحاج محمد الزبدي الرباطي، ولما مات جعل ولده السيد العربي في محله، وبقي إلى أن مات السلطان ونكبه مولانا عبد العزيز، إلى غير ذلك مما يطول جلبه.

وأما الكتاب فمنهم الفقيه العالم العلامة السيد عبد القادر بن عبد الرحمن الفاسي.

والفقيه السيد محمد بن عبد الله الرباطي.

والفقيه السيد الهادي الفاسي.

[29] والفقيه* السيد محمد بن سليمان الفاسي أصلاً المراكشي داراً وموتاً.

والفقيه السيد محمد بن عبد السلام أجبيلاً الفاسي.

والفقيه السيد أحمد الصويري.

والفقيه الأديب الشاعر الناثر السيد ادريس بن ادريس الفاسي.

والفقيه السيد محمد عمور الفاسي.

والفقيه العالم الأجل الأديب السيد عبد الرحمن الشرفي الفاسي، وقد كان وزيراً عند

مولانا عثمان نائب السلطان بمراكش.

والفقيه السيد محمد بن داني الكبير التازي.

والفقيه السيد أحمد الكردودي.
والفقيه السيد الهاشمي أجانا.
وكل هؤلاء كانوا كتابا لأبيه، ومن كتابه الفقيه الصنهاجي المتقدم الذكر.
والفقيه مولاي أحمد البلغيثي الفاسي.
ثم ولده مولاي الطاهر.
ومنهم السيد محمد الكردودي.
وأخوه السيد علال.
والفقيه السيد الطاهر بن جلون المراكشي.
والفقيه الأديب اللبيب الشاعر النائر السيد محمد بن داني الصغير.
والفقيه الأديب الشاعر النائر حريري وقته السيد عبد الله الكنسوسي.
والفقيه السيد محمد البوعصامي.
والفقيه السيد محمد بن عزوز الرباطي.
والفقيه الأديب السيد أحمد بن فقيقة المكناسي.
والفقيه السيد العالي الستيسي المكناسي.
والفقيه المسن قاضي الحضرة السيد عبد الواحد ابن المواز الفاسي.
وولده الشاعر النائر الفقيه السيد أحمد بن عبد الواحد ابن المواز.
والفقيه الحبي السيد عبد الكريم ابن سليمان الفاسي.
والفقيه* الشاعر السيد التهامي ابن المزوار المكناسي. [30]
والفقيه السيد محمد بن الفاضل السرغيني المراكشي.
والفقيه الشاعر السيد محمد المصدار المكناسي.

وكاتب الحروف العبد المذنب الحسن بن الطيب بن اليماني بوعشرين
الخرزجي المكناسي أصلا، والمراكشي دارا ومنشأ وولادة.

وإخوته السيد المهدي والسيد الحسين والسيد عبد السلام والسيد ادريس.

وإدريس هذا كان وزيرا من بعد والدنا في حياة أمير المؤمنين سيدي محمد
بن عبد الرحمن بن هشام أزيد من الأربعة أعوام، ولما مات سيدي محمد رحمه الله
أقره على مكانته مولانا الحسن، ثم صارت أنواره تنطفئ، وأزهاره تذبل وتختفي، إلى
أن لم يبق اسم له ولا مسمى، فضاق ذرعه وتوجه للمشرق، واستوطن المدينة المشرفة

إلى أن مات بها ودفن في البقيع رحمه الله، وخلف بالمدينة أولادا ودارا، وسيأتي في الباب الثامن الكلام على والدنا وبعض من أحوالنا أن شاء الله.

ومن كتاب السلطان الفقيه الأود الأجل السيد عباس بن الفقيه الكاتب السيد عبد القادر بن عبد الرحمن الفاسي حفظه الله، وهو من نسل الولي الصالح سيدي عبد القادر الفاسي دفين حومة القلقليين من فاس، وسيأتي ذكره إن شاء الله.

ومن الكتاب الفقيه السيد الحسن الودغيري الفاسي.

[31] والفقيه السيد ادريس الوكيلى الصفريوي ثم الفاسي. وغيرهم ممن يطول* جلبهم، ويعمي تعدادهم، وكل هؤلاء الكتاب كانوا نجوما زواهر، وبدورا ظواهر، دلت حضرتهم وكثرتهم على ضخامة ملك السلطان وفخامته، وعلو همتهم وعنايتهم، وأن حضرته كانت شبيهة بحضرة المعتمد بن عباد ملك الأندلس في الاحتواء على الأدباء الأعلام، الراجحين الأحلام⁽⁸⁸⁾، أئمة الأقاليم، ومصاييح الظلام، وفرسان الكلام، وكانت أيامهم لهم أعيادا ومواسم، وروضا نضيرا⁽⁸⁹⁾ باسم.

وقد اخنى⁽⁹⁰⁾ الدهر اليوم على تلك الخطة الشريفة، وغازها البوس والكآبة الخفيفة، فتبا لدهر ما رعي حقوقها، ولا أبقي شروقها، فحضرة الكتاب حضرة البهاء والنور، والسمت المقبول المشكور، والأدب المحبوب المبرور، وخطتهم لا خطة فوقها بعد الوزارة، فهم لسان الدولة ويمينها، وبهم تتم نخوتها وشهرتها وتفخيمها، وكان الملوك يباهون بالكتاب في الزمن الأول، ويبالغون في إكرامهم وإعظامهم، وترعى لهم الحقوق عند سائر الدول، ولم يزالوا في كل ملة منظورا إليهم بعين الوقار، والاحلال والاكبار، وحالهم اليوم حال اليتامى، والنسوان الأيامى، جبر الله صدعهم، وتلافي أمرهم، بمنه آمين، وسيأتي خبرهم بأبسط من هذا إن شاء الله تعالى.

(88) الحلم بالكشر الأناة والعقل، جمعه أحلام وحلوم، «ق».

(89) النضرة النعمة والعيش والغنى والحسن، نضر الشجر والوجه واللون، كنصر وكرم وفرح فهو

ناضر ونضير، «ق».

(90) أخنى عليهم أهلكهم، والدهر عليه طال، «ق».

وللسلطان جملة كبيرة من الأولاد وكلهم نجوم تتلأأ أنوارها، ورياض تفتق [32] أزهارها، وفيهم النجباء والعلماء،* والأدباء والحلماء، ولنذكر بعض ما بلغنا من أسمائهم، وعرفناه من أعيانهم، فنقول منهم واسطة عقدهم، وتيعة سعدهم، أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز نصره الله، ومولانا حفيد النائب عن السلطان الآن بمراكش، ومولاي عبد الرحمن المدعو مولاي الكبير، ومولاي عمر، ومولاي إسماعيل، ومولاي الحسن، ومولاي إدريس، ومولاي أحمد، وسمي سيدي، ومولاي بوبكر، ومولاي التهامي، وسيدي محمد المهدي، ومولاي الزين، ومولاي محمد (بفتح الميم الأولى)، ومولاي الطاهر، ومولاي علي، ومولاي عبد الله، ومولاي الطيب، ومولاي يوسف، ومولاي المامون، ومولاي جعفر، ومولاي عثمان، ومولاي عرفة، ومولاي الأمين، ومولاي موسى، ومولاي المصطفى، ومولاي بلغيث، وغيرهم ممن لم تبلغنا أسماءهم، حفظ الله سربهم، ووفر جمعهم، وكثر نفعهم.

وللسلطان بناءات ابتكرها، وإشادات اخترعها وأظهرها، دلت على عظمة شأنه، ووضوح برهانه

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها — من بعدهم فالسن البيان
إن البناء إذا تعاضم شأنه — أضحى يدل على عظيم الشأن

وتتبعها والتعرض لبيانها ومواضعها بمراكش وفاس ومكناس والثغور وسائر بلاد المغرب يفضي إلى مجلدات، واستغراق جملة كبيرة من الأوقات، وفي الإشارة كفاية، تغني في كونها آية.

[33] وكان يحب الصالحين ويعتقدهم، وكان زوارا لهم ونحاثا* عنهم، فنال من بركاتهم ما لا يوصف من رفعة الشأن وعلو الجاه، وبلوغ الغاية القصوى من مناه، وأحسن الله عاقبته، وحفظ عليه ملكه وعافيته، فلم ير فيه شيئا لا يرضاه، إلى أن لقي الله.

وأما أهل الخطط الذين كانوا ملازمين لبابه فكثيرون وهم أصحاب الفراش، وأصحاب الأتاي، وأصحاب الماء، وأصحاب الوضوء، وأرباب السجادة، وأهل التوقيت، وأصحاب المزارك، وأصحاب المظل، وأصحاب الراوية، وأصحاب المكاحل، وأرباب الأروى، والأمشاورية، والأفرادة، وأصحاب المحفة، والأفراجية، والمسحرون، وأرباب السكين، والشويردات، وغير ذلك مما يطول تتبعه وتفصيله.

وكانت حضرته الشريفة معمورة بالمحاسن، وانهار من ماء غير آسن، وكان له أعمام فخام كبراء، وإخوة عظام نبلاء، وقد اقفرت اليوم من كثيرهم الدار، وذهبوا ذهاب الليل والنهار، رحم الله تلك النجوم الزواهر، والبدر السوافر، وفتح على هذه الدولة العظيمة بسعود غاشية، ورجال أحلامهم فاشية، وقلوبهم على الاسلام والمسلمين صافية.

وبالجملة فهذا السلطان ختمت به دواوين سلاطين المغرب، وانتهى به الملك الجليل المطرب.

حلف الزمان ليأتين بمثله حثت يمينك يا زمان فكفر

[34] ولنا مرثية وتعزية في هذا السلطان الجليل تركها بمراكش* من جملة كتيبي، وإن يسر الله وظفرت بها فإني نلحقها بمحلها من هذا الكتاب إن شاء الله.

ومما رأي في أيامه من العجائب أن جاءه رجل من قبيلة آيت يبور المعروفة من ناحية غروب مراكش، بينها وبين المدينة مسيرة نحو أربع ساعات ومعه زوجته، وهما حاملان ولدين لهما إثنان ذكرين ملتصقين من أسفل فقرات الظهر إلى عجب الذنب، منفصلين فيما سوى ذلك، ولهما مخرج واحد من جهة الدبر، وأما القبل فلكل منهما آله تامة الخلقة، ولكل منهما يدان ورجلان وعينان وقم وأنف وأذنان على نوع خلقة الانسان، ولهما صورتان جميلتان، ويتصرفان بجميع جوارحهما، ولهما عقل وفهم، ويتكلمان أيضا، وحث في كيفية فصلهما ولم تمكن لاتصالهما من جهة المخرج في العظم واللحم وقضاء حاجة الانسان، فأعطاهما، وأعطاهما أيضا سائر من وصلا إليه، وقد رأيناها نحن كذلك، ورآهما غالب أهل مراكش أوكلهم حتى النساء في الديار، فسبحان الخالق القادر على كل شيء، ثم رأيناها بعد موت السلطان قدسه الله بكثير فالفيهاها مراهقين، ولم يبلغنا إلى الآن موتهما، بل سألت عنهما بعض من يعرفهما فأخبرني أنهما لا زالا حيين في قبيلتهما، والناس يعطونهما ويحسنون إليهما.

والشيء بالشيء يذكر، وقفت في تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي رحمه الله أن في ثاني عشر ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة أيام المطيع لله أبي القاسم الفضل بن المقتدر العباسي، بعث بعض بطارقة الأرمن إلى ناصر الدولة ابن

حمدان رجلين ملتصقين عمرهما خمس وعشرون سنة، والالتصاق في الجنب، ولهما بطنان وسرتان ومعدتان، ويختلف أوقات جوعهما وعطشهما وبولهما، ولكل واحد كفان وذراعان ويدان وفخذان وساقان وإحليلان، وكان أحدهما يميل إلى النساء، والآخر يميل إلى المرد، ومات أحدهما وبقي أياما وأخوه حي، فانتن وجمع ناصر الدولة الأطباء على أن يقدروا على فصل الميت من الحي فلم يقدرُوا، ثم مرض الحي من رائحة الميت ومات، انتهى بحروفه.

ورأيت في ترجمة الناصر لدين الله أحمد أبي العباس بن المستنضي بأمر الله من التاريخ المذكور، أن في سنة إحدى وستائة، ولدت امرأة بقطيعاء ولدا برأسين ويدين وأربعة أرجل ولم يعش، انتهى.

وكنيت وقفت قديما في باب الوضوء من حاشية الشيخ يوسف الصفطي على شرح العشماوية لابن تركي أن الامام الشافعي — رضي الله عنه — رأى في بلاد اليمن امرأة أسفلها متحد وأعلاها متعدد، ولها فرج واحد، ثم أنه غاب سنين ورجع فقيل له أحسن الله عزاءك في أحد الجسمين قد مات فربط بخيط وثيق فذبل وقطع.

وفي أيام هذا السلطان دخل الفيل للمغرب ورأيناه بمكناس وفاس، ثم مات عام احد عشر وثلاثمائة وألف قبيل موت السلطان.

ولتمسك العنان عن أخباره الطويلة الذيل، الوفية الكيل، ولنصرف الوجهة إلى دولة نجله أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز نصره الله نصرا مبينا، وفتح له فتحا مكينا، مستعينا بمن لا يزال كافيا معينا.

الباب الثاني

في دولة أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز ابن أمير المؤمنين مولانا الحسن

لما عقدوا البيعة لأمر المؤمنين مولانا عبد العزيز بتادلة حين موت أبيه، قام بتدبير المملكة والقيام بشؤون المحلة الحاجب الأصلح، الناصح الأفلح، السيد أحمد بن موسى بن أحمد، على حال لم يُظهر فيه شيئاً من التقدم، ولا استبد بأمر من الأمور خوفاً مما يعقب العجلة من التندم، بل جعل نفسه من جملة وزراء الدولة وأربابها، وأتى البيوت من أبوابها، وكان لا ييدي شيئاً إلا على سبيل النظر فيه والأعلام، لا على سبيل التنفيذ والالزام، فتم له بذلك المقصود، ونال ما شاء من السعود، والحظ الوافر من الدهاء والعقل والرأي المحمود، حتى استمال القلوب ورمقته العيون، وأكبرته الظنون، وكل ذلك فعله فراراً من افتراق الكلمة، واستئصال تلك الأمة المسلمة.

[35] ولما وصلوا للرباط سالمين، ومن آفات* الزمان آمين، ألقى رسن الملك لربه، وتقوى عضده بقربه، وصار لا يفارقه لتوقف الأمر عليه، وداعية الحاجة إليه، فسرى لأرباب الدولة عند ذلك بعض ما يسري بين الكبراء، والأمراء والوزراء، وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون، وعلموا عقم ما كانوا يستنتجون، وحصلت لهم النفرة والأنفة، وأظهر كل واحد ترفعه وصلفه⁽¹⁾، ولا سيما أولاد الجامعي لأنهم وجوه الدولة وعيونها، ويدهم أمورهم وشؤونهم، وأصبح الحال لهم بعكس ذلك، فانبهت عنهم المسالك، وبقوا حيارى لا يدرون ما يفعلون، ولا ما يقدمون ولا ما يؤخرون، ولم تنزل الضعائن تكثراً وتسرى، والقلوب تمزقها الأخطار وتفري، إلى أن ظهر لكل فريق أن يتربص بصاحبه الدوائر، ويتحين له حلول الزمن الجائر، ولكن الحاجب كان سعه

(1) الصلف : مجاوزة قدر الظرف والادعاء فوق ذلك تكبرا، وهو صلف ككتف، «ق».

أقوى، والسلطان له أميل وأهوى، فحاز بذلك النصيب الأوفى، والقدر الوافر الأضفى، إلا أنه كان يتأنى في الظهور، ويتستر في كثير من الأمور، لتعذر الوقت وتباين الأحوال، وعدم تبين مطابقة الأفعال للأقوال، فارجأ الأمر وصار يسدد ويصانع، ويقوى أزره باستمالة القلوب ويقارب ويدافع، واتخذ الجواسيس للاطلاع على ما يحاوله أهل ذلك الفريق، فأتته أخبارهم وأسرارهم وما هم عليه من كل وجه ومن كل طريق، وكان في النباهة والتيقظ داهية، وفي قوة الخزم والعرفان واعية، فتم له ما أراد في أولئك الناس بعد حين، وحان عليهم يوم ما ظنوه يخين، هذا وهم في غفلتهم ساهون، وعما يراد بهم * لاهون، لا تكالهم على ما مضى من رفعة أقدارهم، وشروق أنوارهم، وكونهم أخوالا للسلطان رحمه الله وقده، وسقى ثراه بوابل الألفاف وطيبه، فركنوا إلى الأمن والدعة، وهم منطوون على الإيقاع بالحاجب ومن معه، وبثوا ذلك فيمن لم يراقب فيهم إلا ولا ذمة، ولا قرت فيهم أيادهم الهطالة ولا نعمة، فنقلوه عنهم برمته، وطرقوا به اذن الحاجب في أبوابه وسدته، ونقصوا فيه وزادوا، وبدلوا وغيروا وهدموا وأشادوا، وتجاوزوا ذلك إلى أن نسبوههم إلى الطعن في جلالة الملك، وعمارتهم فيه سوق التهاون والازدراء والضحك، وقصدتهم الاحتيال عليه عند إمكان الفرصة، لتزول عنهم تلك القصة، والله اعلم بصحة ذلك، وبما هو الحق هنالك، وحيث لم يمكن لكلا الجانبين مد اليد في صاحبه، واشاعة مثالبه، وقبضه من حنجرتة بمخالبه، انتقلوا إلى المصانعة، فرارا من المسارعة للمقارعة، وركوب متن المنازعة، قبل تبين أحوال الممانعة أو المطاوعة، ونوى الحاجب الإيقاع بهم بمكناس، ونوى الآخرون الإيقاع به بفاس، فطووا على البت لبعضهم بعضا، وصبروه عليهم فرضا.

ثم أخذ السلطان في أسباب النهوض من الرباط قاصدا حضرة فاس أو مكناس، والناس لا يدرون ما هي عاقبة أولئك الأكياس، وما يظهر الليل والنهار بينهم من البأس، فنهضوا من الرباط والقلوب * بالبغضاء مشحونة، وفي أغراض أصحابها مشغولة ومرهونة، ولما وصلوا لبني عمار أشير على السلطان بالتوجه من هنالك لزيارة الولي الأشهر، الشهم الهمام الغضنفر، مولانا إدريس الأكبر، على عادة أسلافه في التوجه لها من ذلك المكان، عند وصولهم لتلك الأوطان، وهو أمر دبر بليل، وشيء نادى على أولاد الجامعي بالهلك والويل،

فنفعت تلك الإشارة، وتوجه السلطان للزيارة، ولما علم به أهل مكناس وباشاهم، تعين عليهم الوصول إليه قبل أن يغشاهم، لقرب مكناس من مقام ذلك القطب الوحيد، والولي الجلي الشهيد، فخرجوا برمتهم، وجميع أمتهم، وسلموا على السلطان، وبذلوا له الطاعة جهد الامكان، وسألوه الدخول لمدينتهم، وتطارحوا عليه في إسعاف طلبتهم، وإجابة مسألتهم، فأجابهم لما طلبوا، وأسعفهم فيما فيه رغبوا، بعد أن أشار مرید فاس، بعدم الاسعاف حيث الحال يقتضي تقديم فاس على مكناس، فلم يسمع له كلام، ولم يستلذ بعد بمنام، وخشعت نفسه، وتخير رأسه، وبقي يقدم رجلا ويؤخر أخرى، والهواجس تتوارد عليه وتترى، فدخل السلطان لمكناس، واحتل به على رغم أنف أبي ذر، ومن عصي وبر، وثابت للحاجب نفسه، وراجعه أنسه، وعلم أن الحيلة تمت له على عدوه، وأنه لا يكثر به الآن على قربه من المملكة ودنوه، [38] وقد بلغنا* أن الحاجب هو المشير على الباشا المذكور باقتراح أهل مكناس على السلطان الوصول إلى أرضهم، والدخول إلى مدينتهم، ليتقوى عضده بعبيد البخاري ويتأقن له المراد، فتمم الله له ما أراد، « وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال »، سبحانه هو الكبير المتعال.

ثم إن الحاجب تصدى لأولئك القوم، وأقام الحجة عليهم فيما شاع عنهم في جانب السلطان، من كونهم نقضوا عهده وخرجوا من ربة الأمان، فأمر السلطان بعزلهم ولزومهم لديارهم، ثم ولى الوزارة للحاجب، وولى إمارة العسكر لأخي الحاجب السيد سعيد بن موسى، وولى الحجابة للسيد إدريس ابن موسى أخى الحاجب أيضا، وأقر القائد إدريس بن العلامة البخاري على قيادة المشور، وأقر الفقيه الوزير السيد علي المسفيوي على مكانته وهي أمور الشكايات والمظالم، وقد انحط عن درجته وصار الوزير واسطة بينه وبين السلطان، ولا يرى السلطان هو إلا في النادر، وإذا رآه فلا يزيد شيئا على السلام عليه، وبقي كذلك إلى أن مات بمراكش، ودفن بمقام سيدي أبي اسحاق بسوق الدقيق هنالك، فبقي ولده الفقيه الكاتب السيد محمد يخوض في أمور الشكايات نيابة عن الوزير، ولما مات الوزير عز عن ذلك المحل واعطي لغيره كما سيأتي، وأقر السلطان أيضا وزير* البحر على مكانته، وعن قليل انطفأ ضوءه ورجعت مكانته للوزير، وأقر الأمين السيد عبد السلام

التازي الرباطي على مكانته وكان تحت اشارة الوزير، وله عناية بالاسلام، وفيه مصلحة للأيام، ولما مات الوزير طلب الاعفاء وأعفى، ولا زال حيا إلى الآن.

وغاية الأمر ومنتهاه أن الوزير احتوى على خطط جميع الوزراء وكبراء الدولة، ولم يبق لأحد كلام معه، ولا يمضي أمر من الأمور إلا عن إذنه ومشورته، وياشر الأمور مباشرة الأكفاء، وأنزلها في محلها وسأهده الأقدار، وأتاه بكل ما يحب الليل والنهار، ومضت له في وزارته أيام ما تيسر مثلها لغيو، فكانت غرة في جبين الدهر، وزينا لأهل ذلك العصر، وانفرد بالنقض والإبرام، وترفع عن أن يكون له الكفء في أولئك الأعلام، وستسمع من أخباره، ويتلى عليك من آثاره، ما تعلم به قدره الرفيع، وسعده المنيع.

ولما مضى لعزل أولاد الجامعي نحو الثلاثة أيام ظهر للسلطان أن يقبض عليهم ويسجنهم، فقبضوا في ديارهم على حالة تنفطر لها الأكباد، وتشيب لفجعتها الأولاد، وأودعوا سجن مكناس، ثم نقلوا بعد أيام قليلة للسجن بشفر تطوان، فمات به الحاج المعطي رحمه الله وغفر له، وبقي أخوه السيد محمد الصغير مسجوناً إلى الآن* وحتى الآن يعالج الحشرات، ويتجرع غصص العثرات، بعد النخوة السماء، والمكانة القعساء، والثروة الكثيرة، والكلمة المسموعة الشهيرة، والعز الشاخي، والجد الباذخ، وهكذا حال الدنيا لا تبقى على حال، ولا تكاد تسلم من الأهوال والأحوال، نسأل الله السلامة والعافية آمين.

وقبض معهم أيضا الأمين السيد العربي الزبدي الرباطي لكونه صهرا لهم، وكان من لفهم وشيعتهم، ونقل لسجن اسفي، وبقي به مدة طويلة إلى أن تشفع فيه الشيخ الكبير، والغوث الشهير سيدي ماء الغنين رضي الله عنه، فقبلت شفاعته وسرح بعد وفاة الوزير، وهو الآن بفاس مقتصر على نفسه، ورأسه ملتوي تحت طي إبطه.

ثم إن السلطان انتقل من مكناس إلى فاس بعد القبض على أولئك القوم بقریب، وقعد على كرسي مملكته، وسرير سلطنته، على اقتبال سنه، وفتوة شبابه، وجدة عمره، وقام الوزير بواجب خدمته، وأعباء خلافته، ونهض بأثقالها، وخلصها من أوحالها وأهوالها، ووردت على بابه الوفود، واعتبرته

العساكر والجنود، وسار صيته مسيرة الصبا، وهب على الجبال والوهاد والرى، ومشى على المنهج الذي بقيت به المملكة جارية على حالها المعهود، وعزها المملود، ونفذت الكلمة في جميع أقطار البلاد، وما مال أحد عن الطاعة ولا حد، [41] إلا ما كان من قبيلة الرحامنة بحوز مراكش، ولكنه رجع عن * قريب، واعقبه النصر الغريب، والظفر العجيب.

ولنتكلم على ذلك باختصار فنقول لما مات السلطان مولانا الحسن رحمه الله، وبويع نجله مولانا عبد العزيز وذهب لفاس، قامت قبيلة مسفيوة على عاملها، وكسرت سوق الثلاثاء المعتمر في وسط أحيائها ومداشرها، فهرب العامل لمراكش واستقر بها خوفا على نفسه من افتراسها له بأنياها وأظفارها، بعد أن كان الناس يظنونهم قادرا عليها، ومفوقا سهام الخوف إليها، لما كان يظهر عليه من الجرة عليها، وشدة بطشه بها، فإذا به لم يزد شيئا على الهروب، وسوق الخوف لأهل مراكش والكروب، فوقته هذه هي التي فتحت أعين الصعاليك لما كان، ولو صبر ودافع لربح الذكر الجميل وحاز خاطر السلطان، وأحواله في التهتكات لا تخفى، ولولا الأخبار التي ساقته لما استحق أن يذكر، ويعرج على شأنه وينشر.

وبعد ذلك بقريب قام الرحامنة وكسروا سوق الأحد برأس العين من بلادهم، وخرجوا عن الطاعة وتتابع ذلك فيهم، إلى أن عمهم الفساد والطغيان، وقفاهم غالب أهل تلك الأوطان، وقبيلة الرحامنة هذه هي قبيلة كبيوة، وافرة شهية، لم يكن بنواحي مراكش أكبر ولا أوفر جموعا منها، وصلاح الحوز منوط بصلاحها، وفساده بفسادها، ثم إنهم لما فعلوا فعلتهم، وحددوا شوكتهم، اجتمعوا على أخيهم مبارك بن سليمان*، وجعلوه كبيرا عليهم لينتظم سلوكهم، ويلتزم جمعهم، ويتقوى بأسهم، ومبارك بن سليمان هذا كان معروفا بالشجاعة، ومذكورا بالشهامة والاقدام والبراعة، وكان من عمال السلطان مولانا الحسن على فرقة من إخوانه الرحامنة، ثم عزله السلطان لأمر أوجب ذلك، وولاه في ناحية الأقصاي من بلاد الريف، ثم عزله لفتنة قامت على يده، وولاه على قبائل درعة، ولما مات مولانا الحسن رحمه الله قام من بلاد درعة وجاء يهرول إلى مراكش، فدخل لمحله منها وبقي ينتظر ما يكون، في

كل حركة وسكون، ثم بدا له أن يخرج لقبيلته خوفا على نفسه من المؤاخذة لأجل المجيء من بلاد درعة افتياتا، ولما خرج زاد في اشتعال النيران، وإغراء الجيران، ولم يزل يسدي ويلحم في الخوض إلى أن صار كبيرا على القبيلة، وضرب خبائه في وسطها وأصبح يأمر وينهي، ويقدم ويؤخر، ووردت على بابه الذبائح والعارات، من جل قبائل الحوز يطلبون الأمان خوفا على أنفسهم، من تطاولهم ومضرتهم، ثم اجتمع الرحامنة برمتهم، واستمالوا كل من وُلاهم للدخول في زمرتهم، والكون في جملتهم، ولما اشتدت وطأتهم، وقرب أن نهض حجتهم، أشار عليهم كبيرهم بعقد البيعة لأخي السلطان مولاي محمد (بفتح الميم الأولى) [43] ففعلوها، واعلنوها وشهروها، ومولاي محمد برىء من بيعتهم، وبعيد من فعلتهم، ما اهتر لذلك ولا نهض، ولا حاجة له فيه ولا غرض، فظهر للدولة جعله في حكم الثقات، خوفا على المملكة من الإتلاف، فكان ذلك وهو مظلوم، وأمره شائع معلوم، وعند الله تجتمع الخصوم.

ثم جاءوا لمدينة مراکش وقاتلوها، وضيقوا بها وحاصروها، ليدخلوا في زمرتهم، وينتظموا في سلك فيئتهم، ثم إن أهل مراکش لما رأوا ذلك، وخافوا أن تنسد عليهم المسالك، قاموا وعمرو الأسوار والأبراج، علما بأن ذلك الداء لا بد له من علاج، وأن من مات منهم مات شهيدا، ومن عاش عاش سعيدا، فقاتلوا أولئك القوم قتالا شديدا، وصبروا صبرا كبيرا مديدا، ولما تمرنوا على القتال، وصاروا لا يكثرثون بالرجال، ولا بما يلاقونه من كثرة الأهوال، بداهم في الخروج من المدينة لمصادمة الأبطال، والمقارعة والنزال، ففعلوا وأذاقوهم مرارة الوبال، وجرعوهم من كؤوس الختوف ما لم يكن لهم بالبال، وكسروهم كسرا شنيعا، واشبعوهم قتلا ذريعا، وجرحا وجيعا، فولوا الأدبار، وأفرجوا عن المدينة رغما على أنوفهم التي شمخت وقعدت على صهوة الاستكبار، وعادوا للقتال مرارا، بقلوب صارمة تتلهب جمارا، وألسنة أواهة تتوعد جهارا، فقابلهم أهل المدينة مقابلة كسرت شوكتهم، وفلت حدتهم، وردوهم على أعقابهم ناكسين، وغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين، ولما* يمسوا من جهة المدينة، ورأوا أهلها أسدا حل عرينه، رجعوا القهقري، وانقلبوا إلى وراء، وتبين لهم أمر لم يكونوا يعلمونه، وبدا لهم خلاف ما كانوا يؤملونه، ولما كان يبلغ ذلك الخبر لحضرة السلطان بفاس يقوم أولياء الحضرة له ويقعدون، ويتحسرون ويتوجعون، ويتألمون ولكنهم

كانوا يتجلدون، ويظهرون السياسات العجيبة، والاختراعات الغربية، التي ردت الأمور إلى حدها المحدود، وشأنها المعهود، ما رأى الناس في وجه الدولة خللا، ولا تحدثوا إلا بأنها بلغت في الضخامة والعز غاية وأملا.

ثم أن هذه الأخبار اعجلت الدولة عن مرادها بالغرب، ورأت رتق هذا الفتق قبل أن يتسع خرقه بالكرب، فانهضت عزائمها، وانفقت كرائمها، ونهض السلطان من فاس، نهوض عز ما له من قياس، ودخل لمكناس ومكث فيه ما شاء الله.

ثم نهض منه ومر على بلاد قبيلة زمور، محل الرجال الوافرة، والخيول الكثيرة الطائفة، والأسلحة الزاخرة الباترة، فتلقته بالطاعة والاذعان، والهدايا المنوعة الحسان، على عادة ما كانوا عليه مع السلطان مولانا الحسن رحمه الله، وخرج من بلادهم على الأمن والأمان، وغاية المبة والاحسان، وهذه القبيلة هي أعتى قبائل الغرب طغيانا، وأكثرها رجالا وفرسانا، وأقواها شوكة وعدوانا، وأشدها تنمرا وأباية* وديوانا، وأحوالهم في ذلك شهيرة، وعوائدهم المؤكدة [45] كثيرة، وكان من عوائد الملوك المرور بهذه القبيلة قصدا، وقد أرضها بخوافر خيولهم ونعال جيوشهم قدا، لتتكسر شوكة من عداهم، ممن يبلغ في القساوة مداهم، فجرى أمير المؤمنين على نهج أسلافه في ذلك، وملأ أرضها رجالا وفرسانا غصت منهم المسالك.

ثم دخل السلطان للرباط على عادة الملوك أبهة ونخوة وسلطانا، وجلالة وعزا لا يحتاج برهانا، فمكث ما شاء الله، والمقصود أمام.

ثم نهض في جيوش ضخام، وعساكر وافرة ورجال أعلام، وتبصر لا يحتاج إلى تبصر، وتنمر ما فوقه من تنمر، وحالة تشهد بشدة البأس وقوة الصرامة، وهمة على النصر والظفر علامة، واجتمعت عليه قبائل تلك الأقطار، وأمم هاتيك البوادي والأمصار، وذهب يجر وراءه جيشا جرارا، ومددا مدرارا، ورجالا وافرة كبارا، وأصبحت حضرته كحضرة أبيه في قوة البهاء والنور، والرويق الذي لا يفني بشرحه هذا المسطور، وتلقته تلك القبائل على كثرتها، والأمم البالغة مبلغ التواتر في قوتها، بمزيد السمع والطاعة، والاذعان الذي ما فوقه من طاعة، والهدايا الوافرة، والعطايا الماطرة.

[46] ولم يزل في عز وارتقاء، ونصر قدمه فوق ذروة السماء، إلى أن طلعت شمسُه على الرحامنة في يوم كان عليه وبيلاً*، وعلى نكبتهم واستئصال شافتهم (2)، دليلاً، ولما أظلتهم سحائب الجيوش من كل مكان، وأسالت أعناق الجياد من المسارب والمنافذ تبحر الأرسان، ورفرفت الرايات بالفتح المبين والاشراق، والظفر المتين في الأفاق، سقط في أيدي الرحامنة وكبيرهم ورأوا أنهم قد ضلوا، وتحققوا أنهم في قبضة الأسار قلوباً أو جلواً، وعانوا ما لا قبل لهم به من السطوة التي سلموها، والقهرية التي أكبروها وعظموها، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمحاولة ذلك الحرب، والمساورة (3)، بالطنن والضرب، وسلموا الأمر وانقادوا، وما ضربوا ولا كادوا، واحدقت بهم الجيوش والأبطال، وحالت عليهم الأحوال، وعوملوا بالهوان، ووقعوا في بحر البوار والخسران، وحلت بهم من الحوادث ما لا يصفه لسان، ولا يستقصيه بنان، وقبضت منهم مساجين وأسارى، وتراهم سكارى وما هم بسكارى، وعذبوا العذاب الشديد، ورأوا من المحن فوق الوعيد، وشفّت الدولة منهم نفسها، وأودعتهم أصرها وكلها، وبلغت عقوبتها فيهم حداها، وانتصرت عليهم انتصاراً سارت بأخباره الركبان، وتباهت به الأعصار والأمصار والبلدان، وحين بلغوا هذا المبلغ العظيم، وتجرعوا العذاب الأليم، كفت الدولة عنهم يد العدوان، وبذلت لهم بعض الأمان.

[47] وأما كبيرهم فإنه فر هارباً يكبوا لزاوية* معظمة، ومحلة محترمة، بأطراف تادلة المتמרدين عن الأحكام واستجار بها، فوجه عليه السلطان وارسلوه، وما راجعوا فيه ولا ثبطوه، ووصل للمحلة في قيده وأسر، وحال تمسكه بعسره، وجعل على جمل وطيف به عليها، ليراه جميع أهلها، ثم جعل في قفص صنع لأجله، ما رأيت كيف وصفي لشكله، فحل به حلول بؤس وانتقام، ونزله نزول عذاب وإيلام، وأصبح نحى هموم وأنكاد، وزفرت مالها أعداد، وتعجب الناس من هذه المثلة (4)، التي ما رىء مثلها، ولا سمع شكلها، وكان يحمل على جمل في السفر، ويبقى نصب الأعين ومحلا للعبر، ويبقى بسجن مراكش إلى أن مات، واستراح من تلك الأزمات.

(2) الشافقة الأصل، واستأصل الله شافته أزاله من أصله، «ق».

(3) المساورة المواثبة، ساورة واثبه، سوارا ومساورة، «ق».

(4) مثل به : نكل به، وبابه نصر، والاسم المثلة. والمثله بفتح فضم : العقوبة، «ق».

ولا تسئل عما حصل من العز بتيسير هذا المرام، وانجلاء ذلك الظلام، الذي كان باكورة الفتح المبين، والظفر المتين، والسعد المعين، وتوجه مكاتيب السلطان إلى حواضر المغرب بخبر هذا الفتح، الذي ملأ البسيطة بالأمن والاشراق والنجاح، وكتبت من انشائي على لسانه ما نصه بعد الافتتاح

وبعد، فإننا — بحول الله القوي القهار، ذي السطوة الغالبة لكل مارد غوي جبار — قد تممنا العمل ولله الحمد في الفئحة الباغية، والفرقة الطاغية في هذه الناحية، قبيلة الرحامنة العاتية، المخدولة ممن لا تحفى عليه خافية،* الذي [48] يمهل الظالم حتى إذا أخذه أخذه رابية، وعامله معاملة وافية، وأوطأنا جيوش الله المنصورة، وجنوده المحشودة المحشورة، جميع بلادهم على امتناعها، وملأناها بهم على امتدادها واتساعها، وأسلنا عليهم الخيول كالسيل الهطال، وأطلقنا عليهم ليوث العرين وصناديد الأبطال، فافترستهم تلك الأسود في الصياصي، وقادت عتاتهم بالنواصي، واستخرجت ذئابهم من الأوكار، والمعازل الحصينة والأوعار، فأصبحوا في قيد الأسر والهوان يصطرخون، ومن هذا الصنع الذي من به المولى يعجبون ويعتبرون، ويعضون على أناملهم ندامة، ويودون أن لو هلكوا قبل ذلك وقامت عليهم القيامة، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين، ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين، وتلك سنة الله تعالى في كل من طغى، وتجاوز الحدود وبغى، وما ارعوى عن غيه ولا ابتغى.

ولما اقتضينا منهم من الموظف عليهم ما اقتضينا، واقمنا أودهم كما أملنا ونوينا، خاطبنا كل من كان على شاكتهم من القبائل، وظاهرهم وقت تلبسهم بتلك الرذائل، والفعل الشنيع الهائل، ووظفنا عليهم ما وظفنا، واثقلنا كاهلهم بمثل ما قدمنا لكم عن أولئك الطغام وقررنا، غير أنا قد فاوتناهم في القرض لتفاوتهم في الجريمة، والفعال الدنيئة الدميعة، فقبلوا كلهم ذلك الوظيف، وامتثلوا فيه أمرنا الشريف، ورجعوا إلى الله تعالى وأنابوا، واستغفروه جل* وعلا [49] وتابوا، واعترفوا بذنوبهم، وأقروا بما فرط من عيوبهم، ولاذوا بأعتابنا الشريفة خاضعين، وألقوا بها يد الانقياد سامعين وطائعين، فعاملناهم بالإغضاء، وفسحنا لهم في جانب العفو بعد أن ضاق عليهم الفضاء، ولم نعالجهم بالعقوبة، وقد كانت بين أعينهم منصوبة.

ثم لما تقرر بيننا وبينهم ما تقرر، وما تلكأ منهم أحد ولا تضرر، ولم يبق في تلك الناحية كبير عمل، وخاب مسعى أهلها والأمل، نهضنا قاصدين المدينة المراكشية الحمراء، ذات المشاهد البهية الغراء، والبساتين الشهية الخضراء، والنخيل الباسق الأفنان، والبهجة الواضحة البرهان، واليمن يقدمنا، والسعادة تخدمنا، والنصر العزيز يغاديننا ويراوحننا، والفتح المبين يناجيننا ويساورنا، والبنود والرايات تحفق نشاطا وارتياحا، وتلتاح في سماء المسرة ملاحا، والسلاح زاخر عبابه، وممتدة أطنابه، ورعود المدافع تسبح بحمد مولاه، وتعظمه وهو العظيم الذي لا يتناهى، فحللناها يوم تاريخه حلول عز وأمان، ومبة تامة وإحسان، بعد أن برز لمشاهدة طلعتنا السنية من أهلها خلق كثير، وجم غفير، في أحسن زي وأكمل شارة، وأبهى منظر لم تستوعبه عبارة، وفرحوا بنا فرحا ما عليه من مزيد، وانشرحوا انشراحا شأوه وافر مديد، وانزاحت الأكدار، وانتفت الأهوال والأغيار، وبسط الله تعالى — وله الحمد [50] — أمنه في النجود والأغوار، وكان ذلك اليوم* عندنا وعندهم عيداً، وموسماً عظيماً فريداً، أفرغ الله فيه أنواره، وأظهر أنصاره، وأضاء شمسوه وأقماره.

واعلمناكم لتكونوا مستبصرين بما كان، وتحملوا الله تعالى في الأسرار والاعلان، على ما جلل به عباده من الأمن والأمان، وتأخذوا حظكم من الفرح والسرور، والانشراح والحبور.

نسئل الله تعالى جلت قدرته، وعظمت منته، أن يؤلف بين قلوب المؤمنين، ويؤمننا في سربنا وسرب المسلمين، ويجعل سعينا في ذاته، ومستوجبا لمرضاته، أنه سميع مجيب، ومن داعيه وسائله قريب، عليه توكلت وإليه أنيب، والسلام.

في 21 رمضان عام 1313، قلت وهو يوم السبت وقد كشف الغيب أنه الثاني والعشرون، انتهى.

وانشأ مولاي الطاهر البلغيثي على لسان السلطان أيضا في القضية ما نصه وبعد فإننا — بحول الله مانح المواهب الجزيلة، ومبلغ من اعتصم به قصده وماملوه —، لما فرغنا مما من به سبحانه من قضاء الوطر في قبيلة الرحامنة، وصارت المارة بسبلها مضمئمة مة، صرفنا وجه العناية لتحصيل ما

اقترفه بعض القبائل جوارهم، مما يقرب من فعلهم، فوظفنا على قبيلة زمران وتكانة ومسفوية ما يناسبهم من المال والخيل والعدة والعسكر، ولم نعمل فيهم حساما حيث كانت جريمتهم بالنسبة للجريمة المذكورين أصغر، لأن الحوز كله كان خاض في الفساد والافساد، ولم يسلم أحد منه من الدخول في زمرة الفساد، ولولا ان الله* تعالى تداركه بالطفاه الخفية لا تسع على الرافع خرقه، [51] وعسر رفته ورتقه.

إلا أن ذلك منهم من خاض فيه خوضا عموميا، ومنهم من خاض فيه خوضا خصوصيا، ولكل فريق منهم عندنا ممن سلك هاتيك المسالك، حكم يخصه لأجل ذلك، فأما الذين خاضوا الخوض الخصوصي فحكمهم حكم الرحامنة في التربية، من توظيف الذعيرة عليهم بالمال والخيل والعدة والمراهين، وغير ذلك مما يستحقون أن يعاملوا به من الأنواع الجزرية، وأما الذين خاضوا الخوض العمومي فحكمهم هو ارتكاب الأمر الوسط، من زجرهم بالذعيرة بالمال والخيل والعدة والعسكر فقط، ومن هذا القبيل هؤلاء القبائل، فإنهم لم يصدر منهم ما يوجب معاملتهم بمثل ما عومل به الأوائل، ولذلك لم يرتكب في جانبهم شطط، لأن خير الأمور الوسط.

ولما تم ذلك بعناية الله طبق القصد والمراد، وعائنا ما منحنا به — جل علاه — من بوارق اليمن والاسعاد، نهضنا بحول الله وقوته، وطوله وعزته، قاصدين حضرتنا السامية، السنية المراكشية، فحللناها يوم تاريخه حلول يمن وظفر، في يوم كان بين الأيام أبهى واغر، وعناية الله تكنفنا، وعين رعايته سبحانه تحرسنا، ورياح النصر والظفر تخفق منا الرايات والبنود، بين منزلة المقدم وأخبية السعود، فقابلنا ما أولانا به سبحانه من المواهب* الجسيمة بالشكر، وحمدناه جل علاه لا أحصى ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، وما نسبة قل من كثير. [52]

وأعلمناكم لتأخذوا حظكم من الفرح والسرور، وتعمروا أندية الحبور، وتعلموا أن الله نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فهو نعم المولى ونعم الكفيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والسلام، في 21 رمضان عام 1313.

ولما استوفى السلطان غرضه، وقضى نفيه من الرحامنة وفرضه، نهض يوم مراكش الحمراء العلية، ذات البساتين البهية، والمتنزهات البهجة الشهية، والخيرات الكثيرة الجلية، والنعم المتعددة القوية، فحلها في يوم كان من الأيام الكبار، والأوقات الساطعة الأنوار، والبهجة التي فاقت المقدار، وعد ذلك من سعادة السلطان، وسكنت سائر البلاد والأوطان، واذعن الناس غاية الاذعان، وجرت الأحكام في الجبال والوهاد، وفي سائر أقطار البلاد، وجببت أموال تجل عن الحصر وتستغرق الأعداد، وأصبح الملك في عز فسيح الدارة، وشأن يجز على الذبول إزاره، وحالة عالية مختارة، وتتبع الدولة شياطين الفتن، وأشبعتهم المكائد والاحن، والتقطتهم التقاطا، وقطعت عرق الفساد من سائر تلك الأقطار قطعاً كان لغاية السعد والتيسير منطاً، وصار الناس في أمن قليل مثله، واطمئنان يعز شكله، وجرت الأحكام في جميع أقطار الرعية كلها، صحرائها وتلها، ووعرها وسهلها، وصار *الذئب في ذلك الوقت يرعى مع الغنم ولا يضرها، والدنيا هنية سالمة من كل غم ومن كل هم كلها.

ولما بلغت الدولة إلى هذا المبلغ العظيم، والقدر الرفيع الجسيم، ظهر لها أن تتوجه لتدويع بعض الأقطار النائية، التي كانت جائرة آبية، ورائحة في التهور وغادية، لاستخراج حقوق بها تعلق، وأمور بدمها ترتبت، فرأت تقديم الجهة الباغية، التي طالما ما مضى لها دهر من الزمان وهي عاتية طاغية قبائل الأعشاش من الشاوية، وهي ما هي رجالا وفرسانا، كهولا وشباناً، وكثرة خيرات وزروع، وأموال طائلة وضروع، وبلاداً متأخمة في التراب الذي لا تناله الأحكام، ولا يتقيد في الحقيقة بإمام، فقصدهم السلطان بقلب فعال، وهم حريص جوال، وعزم عريض هطال، وجمع عليهم من الجموع ما حاصر به تلك البلاد على اتساعها، وكثرة أوديتها وأوعارها، وجبالها وجميع أرضها وقفارها وعمرانها، وبلغ في الفتك بهم المبلغ القوي، وقومهم التقويم السوي، وصيرهم على الاستقامة التامة التي لا يتطرق لها احتمال، ولا يخالطها إشكال.

وقصتها لا زالت في الألسن مذكورة، وعند الكبير والصغير مشهورة، ومضمونها أن السلطان خرج من مراكش بقصد الأعشاش، بعد أن سوى [54] جناحه وراش، في جيش منصور. وعسكر موفور*، وحال تنزين به العصور،

وتباهى بجماله وحسن سنائه الأقمار والبدور، فتلقتة رعيته بما ينبغي من الطاعة والإذعان، والوقوف مع الكلمة بغاية الامكان، وسار في طريقه مسير البدر في برجه السعيد، كل يوم يحل موضعاً وكل يوم عنده عيب.

ثم خرج قصداً في تادلاً، محل كل هول وكل بلا، فأوطأ جيوشه أرضهم، وأسأل عليهم منهم ما طمهم وعمهم، وفضهم وغمهم، فادهش بذلك أهل الوطن، وذهلوا حتى عن الأولاد وعن العطن، وبذلوا له الطاعة رغماً، وقلوبهم تتوقد حمراً وتمزق هماً، فعامل كلا بما يليق به، مما لا يحل بمنصبه. ثم خيم بقبيلة بني عمير وإن لم تكن مقصودة، ولا في الأعشاش معدودة، ولكنه لما تكامل سعيه، وتقوى زنده، وتوفر رفته، رأى تقويم أود هذه القبيلة من الأمر المعين، والاتفات إليها عليه هين لين، فخيم عليها في يوم طلع عليهم بالنحوس، وسلب الأموال والنفوس، بعد أن خوفوه أرضهم، وحذروه عطشهم وطولهم وعرضهم، فلم يكثر بذلك القول، ولا أعباً بذلك الهول، فبينما هم في أخذ وترك في هذا المقام إذ طلع عليهم طلوع البدر ليلة التمام، وملأ عليهم أرضهم من خلف ومن أمام، وفكك بهم فكك الملوك، وأراهم طريق السلوك للسلوك، ونشب فيهم محالب السباع*، وألان حدثهم التي شملت جميع تلك البقاع.

فكانت هذه بشارة للفتح القريب، والنصر الغريب، وتوجهت مكاتيب السلطان إلى الانحاء والآفاق بخير هذه الواقعة، وهذا نص ما كتبه أنا من إنشائي على لسانه نصره الله بعد الافتتاح

وبعد فإننا — بحول الله الذي يمنح الجزيل، ويصنع لعبده الصنع الجميل، قد نهضنا من حضرتنا السنية المراكشية الحمراء، ذات البهجة البية والمشاهد الغراء، وأيادي الله — تعالى وله الحمد — لدينا متواكبة، ونعمه الجليلة في كل أوان علنا مترادفة، بقصد تدويع هذه الأقطار الحوزية، لازاحة ما تخللها بسبب تلك الهوائع الدنية، فافتتحنا ذلك بقبائل مسفيوة البربرية، التي هي أقرب للحضرة المذكورة من أهل هذه البرية، فألفينا أهلها خاضعين، وللأوامر سامعين طائعين، وتلقوا ركبنا الشريف بأحسن زي وأكمل شارة، بعد أن كانوا على خوف لم يستوفه طرس ولم تستوعبه عبارة، فأبقينا عليهم رفقا

بالمستضعفين، ورحمة بالأزامل والبنين، مع وقوفهم مع النهي والأمر، وعدم التخلف من زيدهم ولا عمرو

ثم تخلصنا قبيلة تكةنة ثم زمران، فبدلوا الطاعة بحسب الامكان، وقاموا باللوازم فوق المظنون، ونالوا من خاطرننا الشريف ما يرجون

[56] ثم نهضنا لقبال السراغة الوفرة العدد والعدد، الغزيرة الرجال والمدد، فتلقونا بفرح ما عليه من مزيد، في يوم يحسبه الرأي موسما أو يوم عيد، وأهدوا فاخر الهدايا، وأعز المطايا، وقاموا بأسنى الضيافات، واسترضوا جانبنا العالي بالله بأقصى الغايات وأعلا النهايات.

ثم مررنا بقبيلة هنتيفة، فتراكموا بقضهم وقضيضهم على أذيالنا الشريفة، مستظلين بظلالها الظليلة الوريقة، وقاموا بالواجب من الطاعة، وأبدأوا فيها وأعادوا جهد الاستطاعة، غير أننا وظفنا عليهم ثلاثين ألف ريال تطهيرا لهم مما اقترفوا، ومحو لما خاضو فيه من تلك الفتن واغترفوا، بعد أن توخينا الرفق بهم غاية، لما عايناه من انقيادهم إلى النهاية، فامثلوا الأمر في الحين، وحن لهم يوم من رضانا ما ظنوه يخين.

ثم دخلنا لبلاد تادلة الزاخرة، ذات الأصقاع الواسعة والأيم الوفرة، فحللنا ببلاد بني موسى وهم أول قبيلة من قبائل ذلك القطر المديد، والصقع البعيد، فوجدنا ذمهم فارغة من الوظائف والواجب، لدفعهم ذلك لاختينا مولاي حفيد الذي كنا وجهناه مقدمة لجباية تلك المطالب، فمكثنا لديهم أياما ننظر في الأمور، معتمدين على الله تعالى الذي له الخلق والأمر وإليه النشور، [57] فظهر لنا منهم خلال تلك المدة من السكينة* والاطمئنان، وإتيانهم نخلتنا السعيدة بسائر أنواع المبيعات مالا يصفه الواصف ولا يستقصيه لسان، غير أن فرقة منهم تسمى أولاد عياد، تشكى عاملهم بانحرافهم عنه وأبدأ في ذلك وأعاد، فرأينا نصرته من الواجب، وإزاحة ضيمه لديهم من أرفع المراتب، واستشهد بخلو البلاد، وفرارهم لرؤوس الشواحق تقصيا في البعاد، وطلب هدم دورهم التي إليها يحنون، وبها عند الشدائد يعتصمون، وعليها يعولون، فساعدناه على مطلبه، ووجهنا من تولى ذلك من زعماء الجيش تنويعا بمنصبه، ومنا كاد ائده أن يستأصلها، ويستوعبها كلها، بلغهم ذلك وتحققوا بما هنالك،

فوردوا لحرم سيدي علي بن ابراهيم مستحرمين، ثم أتوا في ذمة بعض أهله مدعنين، ووجهوا طائفة من شيوخهم وصبيانهم بالذبائح لجانبنا الشريف، ومرغوا خدودهم بسدة⁽⁵⁾ حرمه المنيف، طالبين التجاوز عن سيئاتهم التي أوقعتهم في المهالك، وسلوك أصعب المسالك، فأشفقنا من ردهم خائبين، بعد إتيانهم إلينا تائبين، وتجاوزنا عنهم طعما في رحمة من يغفر الزلات، ويعفو عن السيئات.

ثم وجهنا وجهة العقوبة للفيئة التي تمردت عن أداء الواجب واستعصت، وقد طالما مدت اليد بالقتل والنهب في الطرق وإتيان كل رذيلة استقصت، مع كونها جنت على المدد الذي كان عندها حين وفاه سيدنا [58] الوالد* قدسه الله ورحمه، وروح روحه في الجنان ونعمه قبيلة بني عمير، الذين سوا بين المأمور والأمير، فوجهنا لهم سرايا قلائل من جيوشنا المنصورة، التي هي بعزة الله ونصرته على الكفاح والنطاح مشمورة، فأحاطت بهم من كل مكان في الحال، وأذاقتهم شديد العقاب وأليم النكال، وقطعت منهم رؤوس، وحصل من بعض عتاتهم من يهون عليهم دونه بذل نفائس الأموال وكرائم النفوس، وهدت الديار والمداشر، وصارت بلادهم أنقى من الراحة وأخلى من المقابر، وبعد أن كنا ندبر لهم في إعادة الضرب، ليعالجوا شذائد الكرب، ويتجرعوا مرائر الحرب، وردت جماعات من لدنهم على جانبنا الشريف واستجارت بالمدافع، حيث لم يكن لهم ناصر من الله ولا دافع، وتطارحوا بالعارات، وتباروا في إنهاء التوبة أبلغ المبارات، وطلبوا العفو عما فعلوا، وقرروا ندمهم عليه ومنه اتصلوا وعنه انفصلوا، وتشفعوا بمن ننفع لشفاعته، لكبرته⁽⁶⁾ ومحبتة وديانته، فشفعناه بعد أن شرطنا عليهم من القيام بواجب الطاعة ورد الحقوق ما شرطنا، ووسعنا المادة في ذلك كما أردنا، فقبلوا الجميع، سواء في ذلك العلي منهم والوضيع، والتزموه قهرا، وتجاذبوا العمل به نهباً وأمراً.

على أنهم ليسوا من المقصودين بالذات، ولا ممن إليهم أعملت هذه [59] الخطوات، وإنما ساق لهم ذلك ما اقتضته السياسة وأوجبته الحقوق*، زجرا لما

(5) السدة بالضم باب الدار، «ق».

(6) كبر كفرح كبرا كعنب طعى في السن، وعلته كبره كتمرة، وهو كبرهم بالضم وكبرتهم بالكسر : أكبرهم، أو أقعدهم بالنسب، «ق».

ارتكبه من الجفاء وتسنموه من العقوق، وكفّاهم عن العود للتلبس بتلك الجرائم والفسوق، والوجهة — إن شاء الله — هي لقبيلة الأعشاش من أطراف الشاوية، الفرقة الباغية في هذه الناحية، فبعد الفراغ من عمل من قبلهم إذ أبرزته القدرة وحسم المادة وإقامة أودهم للجادة، نطلع (7) بحول الله على أولئك الطغاة بقوة قوية، وهمة هاشمية علوية، ونمحو — بعون الله — منهم عرق الفساد، ونستقصي أهل الجحد والاحاد، والبغي والعناد، ونوالي عليهم الفجائع، ونرميهم بما لا قبل لهم به من تتابع السرايا وبث الطلائع، حتى يرجعوا — إن شاء الله — للطاعة قهرا، ويسلكوا فيها طريق الاستقامة جهرا، ويدخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، ويؤدوا كل حق لديهم وتباعة، والله على ذلك قدير، وبالإجابة حقيق جدير.

واعلمناكم بما هيا الله تعالى لنا من النصر الذي لا كفاء له، والفتح الذي أزره السعد وأضاء له، لتعلموا الشيء على الحقيقة، وتبنوا الأعمال على القواعد الوثيقة، والمصانع الأنيقة، انتهى.

ثم نهض السلطان عنهم عن عز دونه الثريا، وفخر حدث عنه ولا حرج ولا ثنيا، ولم يزل في صعود تراوجه وتغاديه، وفتوح تخاطبه وتناديه، إلى أن نزل بأطراف الأعشاش، وغيرهم من القبائل الطنانية (8) المعمورة بكل من زاغ وطاش (9) في يوم كان النصر يلمع فيه، والفتح كاد أن يخاطب الناس بفيه*، [60] فحل في محل لا يمكنهم التخلص إلا منه قبل نزول المحلة فيه بقوتها، وتعمره بهيبتها وعزتها، فضاحت عليهم الأرض برمتها، ونزلت عليهم المذلة بجملتها، وبقوا حيارى مبهوتين، وأسارى مضموكين، فحلت بهم الجيوش من كل مكان، وأخذت عليهم منافذ تلك الفيا في والأوطان، وأحدقت بهم إحداق الهالة (10) بالقمر، وسحقته حتى لا خبر ولا أثر، وفعلت بهم الفعل الذي بقي أثره،

(7) طلع فلان علينا كمنع ونصر أتاناً، «ق».

(8) الطنين صوت الذباب والطنس، وطن صوت، كطنطن وطن، «ق».

(9) الطيش النزق والخفة، طاش يطيش فهو طائش وطياش، والطياش من لا يقصد وجهها واحدا.

«ق».

(10) الهالة : دارة القمر، الجمع هالات، «ق»

ودام خبوه، وهو محل يسمى صخرة الدجاجة، ما أوسع أرضه وأكثر فجاجه، جاء في الحدود بين قبائل ذلك المعمور، ومجمع ذلك الجمهور المشهور، أهل الطعن والضرب، وعدم المبالاة بالحرب، فحل به حلول السبع في أجمه⁽¹¹⁾، والسيد في خدمه، وطول المقام به، وعاملهم في الشهامة وشدة البأس على حسبه العالي ونسبه، وصير أرض الأعشاش قاعا صفصفا، لا ترى فيها إلا الوحش وما سواه عفا، وحسبنا الله وكفى، ووقع الفتح الذي لم يكن في الظنون، ولا رأى أحد بأنه يكون، إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وما النصر إلا من عنده.

ثم إنه نصب عليهم العمال، وقبض منهم الأموال، وأخرج الحقوق، وقوم أودهم⁽¹²⁾ عن ارتكاب كل العقوق، وقبض على الشيوخ والكهول والأطفال، وطوقهم السلاسل والأغلال*، وشرذ بهم من خلفهم تشريدا، أيما توجهوا أخذوا وقتلوا تقتيلا شديدا، فعانوا من المحن ما لم يكن لهم في حساب، قد ملأوا منها الأجياب والوطاب، وانغلق عنهم من الله كل باب.

ولما أشبعوا فتكا، وتضلعوا ضنكا، أقلع السلطان عنهم بعد أن لم تبق فيهم باقية، لا ثاغية ولا راغية، عن عز راسخ رسوخ الأطواد، ونصر مبشر بكل مراد، وأبهة ملوكية تثبت الهناء وتعز الأجناد، وتعطي أنها نور الأعين وحياة العباد، وأمن الأموال والنساء والأولاد والبلاد، ولي قطعة من الشعر في هذا الفتح الصميم، والنصر العميم، فلا بأس باللاتيان بها، ولو كانت لا يوبه لها، ونصها

أبشر بما تهوى ونيل مراد	هذا زمان السعد والاسعاد
بمسرة تأتي كما الأعياد	هذا أوان النصر جاء مبشرا
رغما على ذي الصد والاحاد	هذا بريد ⁽¹³⁾ الفتح حل ببابكم
وتسامعت في حواضر وبواد	وطلائع ⁽¹⁴⁾ الظفر العظيم تتابعت

(11) الأجمة الشجر الملتف، والجمع أجم، مثل قصبة وقصب، انتهى «مصباح» .

(12) الأود الأعوجاج، وفعله من باب فرح، «ق» .

(13) البريد المرتب، والرسول، وفرسخان أو اثنا عشر ميلا، أو ما بين المنزلين، والفراق، لانه ينذر قدام الأسد، والرسول على دواب البريد، «ق» .

(14) طليعة الجيش من يبعث ليطلع طلع النعم سوحد والجميع، الجمع طلائع، «ق» .

وتناسقت في شواهدق ووهاد
 طابت بسعدك يا سليل الهاد
 قرت به عيني وراق فؤادي
 سر الخلافة بغيتي وعمادي
 ثبتت مآثره كما الأطسواد
 أضحت بذا آي الكتاب (16) تنادي
 حل التبار بهم وبسالأولاد
 وشفا الاله حرارة الأكباد
 تغشاهم بمرارة الأنكباد
 في قيد ما اقترفوا من الافساد
 وسبحت بحر هداية ورشاد
 قرت مفاخركم بكل بلاد
 في يته أنوارك وأبيادي
 برجاحة ومهابة وسداد

والعز أقبل والميامن ساعدت
 والنور أشرق والنسا أيامه
 سيد الملوك وضضى (15) الأشراف من
 عبد العزيز القوم فاق ثناؤه
 الله أثر ملكك السامي الذي
 وحبك طاعة خلقه وودادهم
 *فقدأم الأعشاش يا ملك السورى [62]
 وطما بأرضهم الهوان وأظلمت
 ماذا عليهم لو أنابوا قبل أن ؟
 لكنهم عدمو الرشاد فأصبحوا
 دامت لك العلياء (18) يا أسد الوغى (19)
 وأقر عينك بالوزير الذ به
 وأتاح (20) منصبه رضاك وخلدت
 أخذ الوزارة كابرا عن كابسر

وكان ذلك عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف.

ثم رجع السلطان لمراكش، ومر على قبائل الشاوية ودكالة فألفاها على
 حالة كبيرة من الطاعة، انقياد لا تستقصيه يراعة، وبذلت له كرائم الأموال،
 ونفائس الأفعال والأقوال، ثم دخل مراكش بنصر جديد، وملك وحيد فريد،
 واهتزت له الدنيا وتمهدت، وصف مشاربها وتقعدت، وتمكن عزتها
 وتوطدت (21)، وأصبحت المملكة نجر ذيؤها على النديون فخرا وارتياحا، وتزداد
 في كل حين نورا وانشرحا، بشواهد قاصعة وبراهين صحاحا.

-
- (15) الضضىء كجرجر وحرجير، والضضؤضؤ كهدهد وسرسور الأصل والمعدن، «ق».
- (16) وهي قوله تعالى «فل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى»، وقوله عز من قائل «يا أي
 الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأوى الأمر منكم».
- (17) التبار كسحاب الهلاك، «ق».
- (18) العلياء السماء، ورأس الجبل، والمكان العالي، وكل ما علا من شيء، «ق».
- (19) الوغى مقصورا الجلبة والأصوات، ومنه وغى الحرب، وقال ابن حني الوغى بالمهمله
 الصوت والحلبة، وبالمعجمة الحرب نفسها، انتهى، «مصباح».
- (20) تاح له الشيء يتوح تهبأ، كتاح يتيح، وأتاحه الله تعالى فأتيح، «ق».
- (21) وطد الشيء أنبتة وثقله، وبابه وعد، ووطده أيضا توطيدا، انتهى «مختار».

ثم اقتعد السلطان على أريكة سلطنته الفخيمة، ومملكته العظيمة، ومشت أوامره في سائر الأقطار، وامثلت كلمته عند الكبار والصغار، وعمت هيئته كل قلب متكبر جبار.

[63] وفتح *سوس الأقصا بكلمته وصلحاء عماله الفتح الثاني، وما وراءه من كل قاص وداني، وارتاعت منه العدا وراقت به المعاني وعلت المباني.

وتناول وهو بمراكش قبائل الريف وبقية وسباها، ورماها بالداهية (22) الدهياء وجد ثمارها وجناها، وسكن روعتها وما والاها، وأجرى الأحكام في صقعها وأرضها، وقال اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها.

ثم تناول قبائل ذوي منيع في قفر شط المزار، بعيد القطر والدار، وفعل بهم الفعل العجيب، وقهرهم القهر الغريب، وجاءت مساجينهم ومساجين بقية تجر أرسان الأغلال والقيود، من غير أعمال سيف ولا رمح ولا احتياج للكثير من الجنود، وإنما ذلك بحسن التدبير، وحصول التيسير، من الرب العلي الكبير.

ووجه الجيوش لجمالة قبيلة مسقية الذين هم أمنع من عقاب، وأحذر من غراب، وأبعد من الهزيمة والامتهان، تمنعهم بذلك الجبل الذي ما حل به أحد وهان، فجبلهم الجبل المنيع، ومسكنهم المسكن الرفيع، الذي لا يذل قاطنه ولا يضيع، فاحدقت بهم الجيوش المنصورة، والعساكر الكثيرة الموفورة، وسدت عليهم الأنقاب، وكل الشقوق والمسارب والأبواب، ثم تناولوهم بالقتال في قعر ديارهم، ووسط حللهم ومدائرهم وأوعارهم، وعركوهم عركا، [64] وأشبعوهم *قتلا وفتكا، وألأنوا منهم العريكة، والشدة التي كانت في التيه غريقة، ووصل منهم لحضرته الشريفة بمراكش عدد من المساجين كبير، عاينه الكبير والصغير، وعد الناس ذلك من الكرامات التي لا يأتي بها زمان، ولا يحتوي عليها مكان، وارتعدت بذلك فرائص أهل الجبال، الذين كانت عزتهم لا تنال، فأصبحوا في هذا الصنع ينظرون، ويتألمون ويتحسرون، لعلمهم أن

(22) الداهية النائية والنازلة، والجمع الدواهي، وهي إسم فاعل من دهاه الأمر يدهاه إذا نزل به، وداهية، دهاه ودهواء، انتهى «مصباح»

السبع ربح بالباب، ورفع عنهم الحجاب، وأن الأرض صارت لا تحميمهم، ولا تجيرهم من سطوة السلطان أو تؤويهم.

وغاية الأمر ومنتهاه أن سعود السلطان كانت فاشية، وفتوحه رائحة وغادية، وفي كل حين غاشية، فقد مكث في مراكز نحو الست سنين، وناول فيها بالخور والغرب والريف والصحراء وغير ذلك أمورا طويلة شرحها، وبعيد تبينها وتوضيحها، وما انتهزت له راية، ولا انكسرت فيه عناية، وما أعمل قدما في شيء منها إلا في قضية الأعشاش التي علمتها، وتلاها عليك لسان القلم ورأيتها، وما عداها إنما حاوله بكلمته العلية، وشهامته الجلية.

ولما أراد الله لهذه الأحوال أن تبدل، وتنحرف عن مركزها القويم وتحول، استأثر سبحانه بمهجة الوزير، الذي هو بوجوه السياسة وإدارة الأمور خير، مات رحمه الله* علي حين ما كانت عليه الدولة من المتانة والقوة، والهيبة والوقادة المجلوة، والأموال الكثيرة، والجيش الغزيرة، والذخائر العزيرة الموفورة، والكلمة المسموعة المبرورة، والبهجة العميمة المنشورة، والهدنة الجلية المشهورة. [65]

كانت وفاته بداره بمراكش فوق فراشه مشمولا بالعناية، والعز الكبير والرعاية، عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، في الثالث عشر من المحرم الحرام وهو يوم الأحد، ودفن بجانب قبر أبيه داخل قبة مولانا علي الشريف من باب أيلان على يمين الداخل إليها، وحضر السلطان للصلاة عليه ودفنه، وتردد إلى قبره ثلاثة أيام، قدس الله تربته، وأنس غربته، وسكن روعته، وعوض السلطان منه خيرا وخلفا.

فقد كان — رحمه الله — على ما ينبغي من الحزم والتيقظ والنباهة، والمهابة الكثيرة والوجاهة، والأوصاف الفخيمة التي لو تتبعها لما وسعها ديوان، ولا جمعها إيوان، ويكفي أن المملكة في أيامه ازدادت ضخامة ورفعة جاه، وبيوت الأموال عمرت عمارة كادت أن لا يكون لها حد ولا تناء، وكثرت ذخائر السلطنة حيث أبهة السلطان ذخراه، وما مات حتى ترك الناس على المحجة البيضاء، والطريق التي طلع فجرها وضاء.

ومات قبله ثلاثة من إخوته، كانوا نجوما في سماء مكائته، وزينا لدارته [66] وهالته*، فسقاهاهم الحمام بكأسه المحتوم، ورماهم بنبله المعلوم، فدرجوا في آن واحد كأنما كانوا على ميعاد، ومضت أيامهم التي كانت معمورة بكل إصدار وبكل إيراد، فأولهم موتا السيد البشير، مات بالشاوية وحمل إلى أن وصل لمراكش، ودفن بمقام سيدي يوسف بن علي أحد أولياء سبعة رجال — رضي الله عنهم — قبالة باب أغمات.

ثم مات بعده — بنحو شهرين ونصف — السيد سعيد، كبير العسكر السعيد، ودفن بمقبرة مولانا علي الشريف بباب أيلان في أواخر رمضان عام سبعة عشر وثلاثمائة وألف.

وفي أواخر حجة الحرام يليه مات السيد إدريس الحاجب ودفن بالمقبرة المذكورة.

ثم مات الوزير أخوهم في ثالث عشر محرم الحرام، عام ثمانية عشر كما تقدم، رحمهم الله أجمعين وألحقنا بهم مسلمين آمنين مطمئنين، لا مبدلين ولا مغيرين، يا أرحم الراحمين يا رب العالمين.

ولما مات هؤلاء الأعلام، نجم الدولة ومصاييح الظلام، لم يبق بفریقهم من يصلح للوزارة، سوى ولد عمهم الرجل الحبي الفقير السيد الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد، فكلفه السلطان بها وولاه إياها، ثم عزل كما سيأتي عن عام واحد من وزارته.

وولي في محل السيد سعيد على العسكر خديمه القائد المهدي بن [67] العربي المنبهي، من منابهة* حوز مراكش، وهو رجل أمني بدوي لا ميسس له بالسياسة ولا بأمور المملكة، وبسببه انحطت المملكة عن قدرها الرفيع، وأنهار سدها المنيع، ولحقها من الضيم والهضم ما لا تفي بشرحه الأقلام، ولا ينسى بطول الدهور وتكرر الأيام، وسلبها من أمواها، وسعى في إيقاد نار فتتها وأهوالها، وفعل في ديار الوزير السيد أحمد رحمه الله فعل الأعداء، ورمها بعضال الداء، وتركها خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس، وأهون مما فعل بها ضرب الرقبة وإزهاق النفس، مع كونه ربي نعمته، ووصيف خدمته لأنه

هو الذي أظهره، وأعلاه وكبوه، فجازاه مجازاة سنار⁽²³⁾، وأنخل من متاعه وأهله وأولاده الأمصار والديار، وعرف الناس بقدره الخسيس، وشؤمه المكتسب من ابليس، وجر شؤمه حتى على المملكة الشريفة، بعد المكانة العالية المنيفة، وستسمع من أخباره السيئة ما تعلم به أن الخير في مثله لا ينفع، وأنه إنما فيه الضر والمنع.

وبعد موت الوزير — رحمه الله — بنحو خمسة أيام مات قائد المشور القائد ادریس بن العلام البخاري، ودفن بمقام سيدي ميمون بناحية عرصة المأمونية بمراكش قرب باب الرب، وولي السلطان ولده القائد محمد بن ادریس في محله.

ثم إن المنهي المذكور صار ملازما للسلطان، وامتطى بسبب ذلك ذروة عز ما كان له ببال، * ولا كان يظن أن الجد⁽²⁴⁾ يصل به إلى ذلك المكان، فعلا قدره على الوزراء، وأكابر الأمراء، وصار يقدم ويؤخر، ويصغر ويكبر، ويتصرف بكل ما ظهر له، على نحو ما أراده وأمله، ولما وصل إلى هذا القدر العظيم، والفخر الجسيم، طمحت⁽²⁵⁾ نفسه إلى أموال الوزير، وإخلاء دياره من الكبير والصغير، ورأى أن ذلك لا يتم له إلا بفراغ الجو⁽²⁶⁾ من الكبراء، والتقديم والتأخير في الأمراء، فعزل باشا قصبة مراكش لكونه بصيرا بالأمر، وولى غيو حامل الذكر منتوف الريش.

ثم امتطى⁽²⁷⁾ إلى عزل الوزير الحاج المختار، الذي هو بقية تلك الدار، والمنظور إليه في ذلك الفريق بعين الاعتبار، فعزل من غير ذنب ظاهر، وأزعج من يومه ذلك للسفر على حالة تبكي، وتهيج الكروب وتنكي⁽²⁸⁾ عن عام

(23) السنار بكسر السين والنون وشد الميم القمر، ورجل لا ينال بالليل، واللص، وإسكاف بنى قصرا للنعمان بن إمرئ القيس، فلما فرغ ألقاه من أعلاه، ليلا يني لغيو مثله، «ق».

(24) الجد أبو الأب وأبو الأم، جمعه أجداد وجدود وجدودة، والبخت والحظ والحظوة والرزق والعظمة، وشاطى النهر، كالجد والجلة بكسرهما والجلة بالضم، ووجه الأرض، كالجلة بالكسر والجديد والجند، والرجل العظيم الخط، كالجد والجدى بضمهما والجديد والمجدود... «ق».

(25) طمح بصرو إليه كمنع ارتفع، واطمح بصرو رفعه... «ق».

(26) الجو الهواء، وما انخفض من الأرض، «ق».

(27) مطا جد في السير وأسرع... «ق».

(28) نكى العدو وفيه نكاية : قتل وجرح

واحد من وزارته، ولما انفصل عن المدينة بيومين تبعه الأمناء لحيازة جميع ما بيده، فزاد كربا على كرب، وذهب له جميع ما خلفه بداره بمراكش لاستعجالهم إياه في السفر عن استقصائه المتاع، ولما وصل للرباط حيز منه ما بقي بيده وجميع بهائمه، وصار اعزى من مخيط، ثم حمل من الرباط ووجه لتطوان لتفريه، وإبعاده عن الوطن وتعذيبه، وما رجع لمكناس إلا بعد أن نفذ الوعيد في ديار الوزير وأملاكه بمكناس وفاس ومراكش وبددت تبديدا، وذلك بعد التطارح العريض على المشي.

[69] ثم عزل أيضا* بإثر ذلك قائد المشور القائد محمد بن العلام وأكله اكلا لما، ووقع به ما ترك الألباب حائرة.

ومكر بالفقيه السيد العباس ولد الوزير السيد محمد بن العربي الجامعي، وازعج للخروج من مراكش من يومه والتوجه لفاس على حالة لا شيء فوقها من الاهانة.

ثم عزل عامل مراكش وغربه في تيزنيت بقعر سوس الأقصا.

وعزل محتسب مراكش، ومكر بالوصيف العياشي ولد مصباح المقرب عند السلطان مولاي الحسن، وأخرجه كرها من حرم الشيخ الجزولي — رضي الله عنه — وعذبه وغربه في تزنيت، ولم يزل في نقض ما أبرمه من قبله إلى أن صار أمة وحده في الدولة وانفرد بالكلام فيها.

وعزل القائد محمد بن قاسم الشرقي الحمياني لحرارته وتلفه على ما وقع بالدولة ومكر به، وعزل أناسا كثيرين.

ثم عزل القائد عيسى بن عمر العبدى وهو من العمال الكبراء، ودارهم دار خدمة، وذهب متاعه شذر مذر، وما علم أحد ذنوبا لهؤلاء الأعلام استوجبوا بها ذلك، وإنما هو إفراغ الدولة من رجالها، ليتيسر له المراد من الاستيلاء على كنوزها وذخائرها وأموالها.

ولما خلا له الجو مد يده في مال الوزير المرحوم وحليه وجوهره وذهبه ويواقيته وامائه وبهائمه وخيله وأثاثه وماله الناض الذي يقوم بثلاثة من الملوك،

[70] واحتوى على الجميع وبلعه، ورضخ (29) بطَشَّة* (30) منه لبعض الزعانفة (31) الذين هونوا عليه الأمر وأعانوه، وقد كانوا على مائدة الوزير وتحت حياطته، فصار ملكا بالنسبة للمال، وزاد على ذلك جميع جبايات الرعية فكان يتعرض لها ويغيها كأن لم تكن أصلا، وغاية الأمر أنه حصل على أموال في مدة قليلة ما علمت أحدا حصلها في وقتنا ولا فيما قبله بكثير، فهو بحر لا ساحل له في المال، فلا تشبه به اليوم في المغرب أحدا، ولو تتبعت تفاصيل جملة وشروح عمله لطال الحال بكثير.

وأما الزروع فكان عنده منها ما لا يجمعه ديوان، لأنه كان مكلفا بزروع المخزن بالحوز وسواقيه ومياهه أينما كانت وتعينت، فازداد بذلك ملكا على ملك، وحاز الجميع لنفسه حتى افتقرت المملكة للكيل، وهذا أمر ما سمعنا بوقوعه منذ كنا في الدنيا، والعياذ بالله من النحوس، التي تأتي على الأموال والنفوس.

ولما علم أنه امتلأ بالمال الذي لا يحصى، والذخائر التي لا تستقصى، دبر في حيلة مشاها على الدولة، ومشي سفيرا من جانب الدولة إلى الانجليز والألمان وأودع ماله عندهم، وفعل الأفاعيل العجيبة هناك، وارتكب الخرق الفادح، وأوهن الدولة وكشف عن عوراتها، ثم احتسى بالانجليز ليوم ما، وقد [71] كاد المريب* أن يقول خنوني، وإلا فأني شيء أحوجه إلى الاحتماء بالنصاري مع المكانة التي هو فيها، ولاكنه لما أكل الأكلة التي لا تسلم له سبق إلى مولات النصاري واتخذ عندهم اليد، ليناضلوا عنه إذا حدث به حادث المطالبة، وكذلك كان عامله الله بما يستحقه، وسيأتي الإيحاء لعاقبة أمره مع جانب الدولة ان شاء الله، ويكفي في قيام الحجة عليه ما صارت إليه الدولة وهو ماسك لرسنها، وقائد بزمامها، من النقصان، الذي لا يحتاج إلى برهان، بعد المكانة القعساء، (32) والضخامة السماء، فكم بين وقته ووقت الوزير

(29) رضخ الحصى كمنع وضرب كسرها، وله أعطاه عطاء غير كثير، «ق».

(30) الطش والطشيش المطر الضعيف، وهو فوق الرذاذ، «ق».

(31) الزعانفة جمع لزعفة بالكسر والفتح، وهي القصير والقصيرة، وطائفة من كل شيء، وطرف الأديم كاليدن والرجلين، والرذل، «ق».

(32) الأقس من الخيل: المظمئن الصهوة، المرتفع القطاة... والرجل المنيع والثابت من العز، والقعساء تأنث الأقس... «ق».

السيد أحمد رحمه الله من البون، الذي يعلمه كل المسكون، وغايته فلا نظيل في أمره.

ولما غاب في هذه السفارة عزله السلطان عن إمارة العسكر وولي غيو إياها، وهو الحاج عبد السلام الزمراني، وحيث بلغه الخبر جاء في أسرع من طرفة العين، وما علم به أحد حتى كان في داره بالقصبة بجوار دار السلطان، ثم أصبح من الغد في محل إمارته، وتلاقى بالسلطان وياشر الأمور وأقبل عليه الناس، وسرح في ذلك اليوم من السجن القائد عيسى بن عمر العبيدي، ورده لمكانته قائدا على قبيلة عبدة، وبعد حين زاده عمالة أسفي، ورده السلطان في [72] الحين للإمارة على العسكر، وعزل الزمراني الذي كان * عين لها وذهب إلى أمه الهاوية، وازدادت مكانته بعد ذلك إلى أن وصل السها (33)، وتناولها بيده ومسها.

ووقع الانحلال في الأمور، وجرت على غير مهيعها (34) في كل ورود وصدور، وصارت الفتوق تظهر في سماء المملكة، والأحوال تتعاصى بسبب المسلك الذي سلكه، والكلام يتوارد على الحضرة بالحض على النهوض من مراکش والقلوم لفاس، لما هجست (35) به الصدور ونطقت به الألسن من الناس، فلم يجد بدا من إجابة الداعي، والسعي في تلك المساعي، ثم أخذ في التأهب وتيسير أسباب السفر على حالة ظاهرة الوهن، وطول في ذلك طولا غير معتاد حتى سرى الفشل، وبردت العزائم وصار الأمر في قبيل المسخرة.

ثم قدم أمام المحلة عم السلطان مولاي الأمين بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام بعسكر غير مضبوط، ووجهه لتادلا بقصد جبايتها وعمارة أرضها، ريثما يقدم السلطان عليه لتتميم ما بقي عليه من أمرها على عادة الملوك في ذلك، ثم صد عنه وعن محلته وجهه، وتركهم هنالك ذبالة

(33) السها كوكب خفي من بنات نعل الصغرى، «ق».

(34) المهيع الطريق الواسع الواضح «ق».

(35) هجس الشيء في صدره يهجس خطر بباله، أو هو أن يحدث به نفسه في صدره مثل الوسواس، والهجس النبأ تسمعها ولا تفهمها، وكل ما وقع في خللك. «ق».

(36) جبي الخراج كرق وسعى، جباية وجباوة بكسرهما جمعه، «ق».

(37) الذبالة، كناية ورمانة: الفتيلة، «ق».

من غير زاد ولا رواتب، وسرى لهم الفشل بسبب ذلك وخشعت نفوسهم، [73] واطلع على وهنهم* أهل تلك البلاد الصائلة، ونقصوا في أعينهم وقلبوا لهم ظهر الجحش (38) وعزموا على مد اليد فيهم، فخافوا ودخلوا للقنصلية الزيدانية ومكثوا فيها، إلى أن تبددوا شيئاً فشيئاً ولم يبق إلا عم السلطان وبعض من خاصته داخل السور، في صورة مسجون لا يأتي ولا يذر في شيء من الأمور، وطالما استغاث ولم يكن من يغيثه، هذا والأمور تتناقض في سائر الأقطار، وأخبار السوء تتوارد بالليل والنهار، وهو مثبط (39) للدولة ومشتغل في جلب المنفعة لنفسه غير ملتفت لما يقال، وانهمك (40) في اللذات وساعده الوقت وأطاعه الهوى.

ثم إن أرباب الدولة لما رأوا ما وقع من التهورات (41) التي آلت إلى الأفات، والأسباب التي هدت من المملكة ركنها، وأطمعت فيها عدوها، قاموا واتفقوا على أن يتخذوا جميعاً في كل يوم بقصد المشورة في أمور المملكة ليلاً يأتي عليها الخراب، وتنغلق عنها وعنهم الأبواب.

وبعد مجيئه من السفارة من بلاد الانجليز والألمان، ومجيء وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم بن سليمان الفاسي من السفارة أيضاً لبلاد [74] الفرنسيين والموسكو، تغير الأسلوب* في كيفية أخذ الجباية من الرعية، وتبعوا فيها عمل الأجانب وسموه الترتيب، وهو تقرير شيء معلوم من الدراهم على الضأن والمعز والبقر والابل والخيول والبغال والحمير والأرض والأشجار، وإعطاء ذلك كل عام، عن كل رأس وعن كل شجرة وعن كل زوجة من أزواج الحرث، وبدأوا بقبائل الحوز والدير وسوس ثم الغرب كما سيأتي، وفي ضمن ذلك تعطيل الزكاة التي هي أحد أركان الإسلام، وبرزوه دفعة واحدة من غير تدريج ولا سياسة، وصار ذلك في أذهان الناس كالعجب واستحالته العقول وبنوا عليه أموراً.

(38) الجحش والجحنة بكسرهما، والجنان والجنانة بضمهما الترس، وقلب بجنة أسقط الحياء وفعل ما شاء، أو ملك أمره وأستبد به، «ق».

(39) تبطه عن الأمر :عوقه وبطاً به عنه، كتبطه فيهما، وعلى الأمر وقفه عليه، «ق».

(40) همكه في الأمر فانهمك وتهمك لججه فلج، «ق».

(41) تهور الرجل وقع في الأمر بقله مبالاة، «ق».

فما خوفك من هذه اليمين، فحلف بها، فما خرج من المجلس حتى ضرب
برجله ومات، وقيل ما انقضى النهار حتى مات فحملوه إلى القبر، وكلما أرادوا
أن يواروه يذهب التراب وينكشف، فعلموا أنها آية سماوية، فسقفوا القبر
وراحوا، وفيه قال الشاعر

ذاق الزيري غب الحنث وانكشفت عن ابن فاطمة الأقال والتهم

انتهى، وانظر مآل هذه اليمين التي حلف بها هؤلاء ونكثوها عيادا بالله.

ثم ظهر الكلام بعزم الدولة على إنشاء بابور البر بين فاس ومكناس
وهي مسافة يوم، وتوجه تمهيد الطريق وعمارتها بعض العمال والمهندسين،
ووضعوا بعض العلامات لطريق البابور قرب مكناس، فجاء إليها البرابر
وهدموها ومحو أثرها، فقامت الدولة لذلك وقعدت وصارت تبحث عن
الفعال، وانجبر الكلام إلى باشا مكناس وأمر بالقدم على حضرة السلطان،
فظن أنه اتهم بالاغراء على ما وقع وتناقل وتلوم أياما، ثم سعى فيما ثبته عن
القدم ودس إلى جروان بكسر سوق أربعاء مكناس وأكله ونهبه، ففعلوا وقامت
القيامه هنالك، واظلم الجو وقامت الفتن على ساق، وقطعت السبل وكثر
الللصوص، وتفاقت الأمور وانحل الظلام، وكثر الكلام وتنوعت الأقوال،
وتناقلت الناس ذلك بكل لسان، وكل احتج لمقاله بكل ذليل وبرهان، إلى أن
آل الأمر إلى خروج القائم كما ترى.

وبطل العمل الذي كانت عليه المملكة في الملاقات مع سفراء الروم، وملك الفرنضيص بلاد تينبكتو وبلاد قطر توات، وملك الصحراء كلها إلى أن جاور تافيلالت، وقامت القيامة في الدنيا لأجل ذلك وكثر الكلام، واغتاظت القلوب وانحل النظام، وانهدت رسوم المملكة من خلف ومن أمام، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وانطلقت الألسن بثلب (42) الدولة وتنقيصها، ونسبة القصور إليها، وتفتقت الفتوق، وشب عمرو عن الطوق، ولم يزل ذلك يكثر ويسري، [75] * ويعبث (43)، بأعباء (44)، المملكة ويفري (45)، إلى أن عم البلاد، وطم (46)، بحره الجبال والوهاد، ووقعت الغفلة عن الجيوش القديمة والحادثة وتلاشا أمرها، وتفرق جمعها، وأخلوا للمنابهة الجو يتصرفون فيه كيف يشاؤون بعد أن كانوا نسيا منسيا.

وبعد هذه الشدائد قامت الدولة لتجديد أسباب السفر لفاس، ونهضت من مراکش في اليوم الثامن من شعبان عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف، ومرت على السراغنة والقلعة، ولما جاءت للمحل الذي تفترق فيه الطرق ومنه يتوجه السلطان لبلاد تادلة على العادة، ولأجل الميعاد المجمعول مع عمه مولاي الأمين، ظهر لهم الاعراض عن تادلة، والتوجه على طريق بني مسكين وسطاط وابن رشيد طلبا للسلامة والاختصار، وفرارا إلى النجاة من أولئك الأشرار، ولما سمعها مولاي الأمين سقط في يده، وذهب الأمر إليه بالجيء للمحلة لكونها قريبة منه، فنهض في الحين ليلا يسمع ذلك أهل تادلة ويصله منهم ضرر أو مكروه، ولما وصل للمحلة اقترح المشي لصلة رحمه بمراكش لأنه طال بتادلة وتوجه واستراح، ثم إن المحلة توجهت على الطريق التي قلنا وعلى فضالة والمنصورية ودخلت للرباط عن نحو عشرين يوما من مراکش قبل رمضان بنحو يومين، ولم تتكلم مع أحد من قبائل الطريق في شيء من

(42) ثلبه يثلبه لامة وعابه، وهي المثلبة وتضم اللام، وطرده وقلبه، وثلمه، «ق».

(43) عبث كفرح لعب، وكضرب خلط، «ق».

(44) العبء بالكسر الجمل والنقل من أي شيء كان، «ق».

(45) فراه يفريه شقه فاسدا أو صالحا، كفره وأفراه، «ق».

(46) طم الماء طما وطموما عمر، والآناء ملاء، والركبة يطمها ويطمها: دفنها وسواها، والشيء كثر حتى علا وغلب، «ق».

الأُمُور، فازداد الناس بذلك بصيرةً، وعلموا فراغ المحل من أهله، وصاروا ينتظرون ماذا ينشأ عن هذه الخوارق، التي لا بد أن يتبعها من الله طارق، ووردت على السلطان طوائف من النصارى في الرباط، واهتزت لهم الدنيا وكثر القيل والقال، ثم نهض السلطان من الرباط بعد مكثه فيه نحو ثلاثة أشهر، [76] وقصد فاسا على طريق بني حسن، ولم * يتوجه على طريق زمور جنوبا للسلامة، ووصل لفاس عن عشرة أيام، وعيد فيه عيد الأضحى عام تسعة عشر المذكور سابقا.

وبعد ذلك بقرب وقع الترتيب في بعض قبائل الغرب، وفي قبائل الجيش أيضا كالشراردة والأوداية وشرافة ومن في معناهم، فزاد الناس تشوِشا ونفارا، وتخوفوا من ذلك لعلمهم أنه من عمل الأجانب، وظنهم أنه مقدمة لشيء آخر.

وقبل ذلك بقرب صدر الأمر بأخذ العهد على أهل الدولة وأرباب الولايات والأمناء وكل من كلف بشيء أيا كان، على أنهم لا يقبضون الرشوة ولا يقبلون الهدية ولا يحوزون من أحد شيئا كيفما كان ولا يخونون، وحلفوا على ذلك بجميع أيمان المسلمين وتبرؤوا من حول الله وقوته، ودخلوا في حولهم وقوتهم، ثم نكثوا العهد ولم يجر به عمل، وحثوا في اليمين.

قلت «وقفت في كتاب الأنيس المفيد للمطالب المستفيد» أن رجلا من آل الزبير بن العوام رضي الله عنه حضر عند هارون الرشيد، وسعى ييحيى بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وقال إنه بعد أن أعطيه الأمان فعل وصنع ودعا الناس إلى نفسه، فأحضره الرشيد وسأله عن ذلك فأنكر، فباهته الزبيرى، فقال له ييحيى إن كنت صادقا فاحلف، فقال الزبيرى والله الطالب الغالب وأراد أن يتمم اليمين، فقال له ييحيى دع هذه اليمين فإن الله تعالى إذا مجده العبد لم يعجل عقوبته، ولكن احلف له بيمين البراءة، وهي يمين عظمى صورتها أن يقول عن نفسه بريئ من حول الله وقوته ودخل في حول نفسه وقوتها إن كان كذا وكذا، فلما سمع الزبيرى هذه اليمين ارتاع لها وقال ما هذه اليمين الغريبة ؟ وامتنع من الحلف بها، فقال له الرشيد ما معنى امتناعك إن كنت صادقا فيما تقول ؟

★الباب الثالث

في أحوال الوقت وأخبار الثائر الفتان،
الذي ملأ الدنيا بالكاذيب والبهتان،
وأوقع الناس بذلك في الهوس الكبير والأشطان

لما وقع ما وقع في الوقت من تبدل الأحوال، وكثرة الأهوال، وتغيير عوائد المملكة وسياستها وانهدت الرسوم، وأتت الأيام الحسوم، ظهر الكلام بخروج رجل بنواحي غياثة والتسول والبرانيص وادعى المملكة، وزعم أنه مولاي محمد بن أمير المؤمنين مولانا الحسن، وسفسط على أولئك الأغمار، وأعطاهم الأمارات التي صدقوه بها واعتقدوه أنه ولد السلطان حقا، وألقى إليهم كلاما نجع ⁽¹⁾ فيهم، ونقص لهم المملكة ونسبها إلى ما لا ينبغي ذكره، ورمى الدائرة بالكفر والميل إلى النصارى.

ولم يزل يسدي ويلحم إلى أن استألمهم وحملهم على الخروج على المملكة ونقض عهدها، ففعلوا واعطوه البيعة وقاموا معه بقصد الجهاد، ونفي الظلم عن العباد، واخذ تازا واستولى عليها وكانت باكورة عمله، وفيها بلوغ أمله، وخطبوا له بالسلطنة على منابرها، وبينما الناس في أخذ وترك في أمره، ومنهم من حقق خبوه ومنهم من لازال شاكا فيه، إذ وقعت وقعة كانت حجة له على ما يقول فاتخذها سلما لغرضه، ونال بها المراد وانتعش من مرضه، وذلك أنهم قالوا إنه لما قرر لأهل الجبال ما قرر في جانب المملكة وثلبها وميلها إلى النصارى، قال لهم وجهوا لفاس من يقتل نصرانيا به لتنظروا ما يقع ويتحقق لكم ما قلته، وإذا مات ذلك القاتل ★ فيكون قد اشترى نفسه [78] من الله بقتل ذلك النصراني، فوجهوا شريفا غبيا معتوها قليل العقل، فقتل

(1) نجع الطعام كمنع نجوعا : هنا أكله، والعلف في الدابة والوعط والخطاب فيه : دخل فأثر، كأنجع ونجع، «ق»

نصرانيا نجليزيا بمكحلة أو خنجر كان معه، ثم هرب لحرم مولانا إدريس رضي الله عنه واستجار به، فبلغ الخبر للدولة وأمرت باخراجه من الحرم في الحين، فأخرج كرها وجلدوه جلدا مبرحا، ثم قتل بالبارود على عين بعض من النصارى، فطار خبر هذه الواقعة في الأفاق، وزادوا فيه ونقصوا، وتحقق لغيثة ومن معهم ما ألقاه إليهم ذلك القائم، وزادوا بصيق فيه واعتقدوه وصمموا على متابعتة وشد عضده، وبايعوه على الموت والجهاد في سبيل الله وتغيير المنكر، فصار يث فيهم دعواه ويؤلف بين القلوب بترهاته (2)، ويلقي إليهم حزعلاته (3)، إلى أن تمكن منهم ناموسه وشاع أمره في تلك الجبال كلها وفي جميع رعية السلطان.

هذا والخوض بنواحي مكناس في الازدياد، واشتد الخطب وأظلم الجو ووقع النهب بداخل المدينة وخارجها، واستغاث الناس، فظهر للدولة أن تجمع الحركة وتتوجه لمكناس لتمهيد أوطانه وتربية الذين هدموا علامة بابور البر والذين كسروا السوق ونهبوه، ومنه تتوجه على طريق زمور لشجر الرباط، وتجلس به أياما ثم تتوجه لمراكش، هكذا كان يقال، وفي قول إنها ترجع من الرباط لفاس وهو قول مرجوح، فجاءت الحركة من الحوز ومن بعض أهل الغرب، وخرج السلطان من فاس في شعبان عام عشرين وثلاثمائة وألف*، ووصل لمكناس [79] عن نحو ثمانية أيام، ثم خرج منه وربط على جروان، وكانت قبائل بني مطير وجروان وزمور في غاية الخوف والدهش، ظنا منهم أن السياسة لازالت على حالها المعهود، وحدها المخلود، وحيث علموا أمرها وسبروا (4) غورها ظهر لهم التجلد والتصريح بالطغيان، وربما تكلم معهم البعض بذلك وشجعهم وهون لهم الأحوال، إلى أن تضارب جروان مع المحلة وقتلوا منها، وصمموا على المقاتلة وتعاهدوا مع زمور على ضرب المحلة والقيام على المملكة، ثم انحلت العزائم وسرى الفشل ووقع الخوف في المحلة، وبينما الناس في دهمة دهماء من هذه الأمور، إذ بلغ خبر القائم للمحلة بأنه شاع خبئه، وتقوى أمره وأثره، وأنه وصل للحيانة

(2) التهمة كقبو الباطل، الجمع ترهات، «ق».

(3) الخزعبل كقذعمل الباطل، «ق».

(4) السبر إمتحان غور الجرح وغيو، كالاستبار «ق».

وطمع في الوصول لفاس، والحكم عليه لخلوه من السلطان، وأن أهل فاس عازمون على الانقياد إليه إذا حاصروهم لعجزهم عن مقابله.

ولما تحقق ذلك ظهر للدولة النهوض من بلاد ثُغُرَان والرجوع إلى فاس لتدارك الأمر قبل الفوات، فنهضت ورجعت إلى فاس في حالة لا ينبغي إفشاؤها والتعرض لشرحها، وبقي ثُغُرَان ومن في حزبهم على طغيانهم وعتوهم وعنايتهم، وانحلت عرى الأحكام بتلك الأصقاع، وكذلك باشا مكناس لم يسمع ما يضره ولم يكلم بينت شفة على ما فعل، ولا تسئل عما نشأ عن ذلك مما لا تسعه الأذهان، ولا رأي فيما تقدم من الزمان.

[80] ثم إن الدولة وجهت جيشاً للحصار على القائم ومقابله ونفيه من أرض الحياينة والقبض* عليه، وكتبت لأولئك القبائل بطرده وترصده، وبذلت مالا كبيرا لمن يأتي به، وأعلمتهم بأنه كاذب في نسبه، وأنه الجيلاني الزرهوني بلا شك ولا ريب، وأن مولاي محمدا لا زال قائم العين بفاس، وألف العلماء في ذلك تأليفا بصروا الناس فيه وبينوا لهم ما يجب شرعا وطبعوه ورفقوه في الأفاق، فلم يغن ذلك من الله شيئا، وكلهم من علماء فاس وقضاتها.

وهم القاضي الفقيه العلامة الأجل المبجل العدل السيد عبد الله ابن خضراء السلاوي.

والقاضي السيد حميد بناني.

والقاضي السيد محمد العراقي.

والقاضي بمكناس السيد أحمد بن الطالب ابن سودة.

والشريف العلوي الفقيه مولاي ادريس بن عبد الهادي.

والشريف سيدي جعفر بن ادريس الكتاني.

والسيد خليل بن صالح الخالدي.

وأبو بكر بن العربي بناني.

والشريف العلوي مولاي الكامل الأمrani.

والشريف الأجل سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني.

والفقيه العلامة سيدي أحمد بن الحياط.

والسيد أحمد بن الجيلالي الأمغاري.

والشريف سيدي عبد الكبير الكتاني.

والسيد علي ابن سودة.

والسيد العابد بن أحمد ابن سودة.

والسيد عبد السلام الهواري.

والسيد محمد بن محمد العلوي المدغري، وغيرهم.

ثم إن القائم ضرب يوما في العشية قرب المغرب على الجيش المذكور و[81] وفرق جمعه واستأصله، وبقي في يده جميع ما في المحلة من الخيل والاماء والأخبية والمال والبارود والقرطاس والسلاح والمدافع والمكاحل والكسوة وغير ذلك مما يطول بيانه، وتقوى بذلك، وظهر* للذين تبعوه بركته وبمنه وصلاحه، لأنه كان يعدهم بهزيمة المحلة ووقوع النصر لهم عليها فكان الأمر كذلك، وازدادوا رغبة وبصيرة فيه ومحبة واعتقدوه، وجاء الذين تفلتوا من مغالب المنية من أهل المحلة عراة مبهوتين إلى فاس، ومات كثير منهم بالطريق جوعا وعطشا وقتلا ونها من الحيانة، فقابلتهم الدولة بالجميل، ووسعت لهم دائرة كنفها كأنهم لم يقتروا ذنبا، مع أنهم لو وقفوا ونصحوا الله ورسوله والسلطان لما وقعت لهم تلك الهزيمة الشنعاء التي كانت سببا لجر الجسارة على المملكة، ولكن حيث كان من كبرائهم عباس أخو المنهي لم ينفع إلا غض الطرف عنهم ومقابلتهم بالجميل.

وفي ذلك الوقت ارتفع الحياء من الجيش، وزالت من القلوب هية المخزن ووقعه وهان عندهم أمره، وصاروا أينما توجهوا لا يأتون بخير، وقد كانت وقعت للجيش فيما سمعنا وقعة قريبة من هذه أيام أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام قدسه الله، وفتك بالكبراء من ذلك الجيش، ومنهم من اقتضى منه المال، ومنهم من سجنه، ومنهم من عذبه وغربه، ومنهم من حلق له لحيته، إلى آخره، وفي ذلك سياسة لا يعقلها إلا العالمون.

ثم إن الدولة اضطرت إلى إخراج مولاي محمد ليراه الناس، ويعلموا أن القائم المتسمى به كاذب في اسمه ونسبه، فخرج وزار بعض أولياء فاس وذبح[82] عليهم وطاف بالمدينة وتبرك الناس به، ورجع لمحله واقتصر على خويصة نفسه، وتحقق الناس أن القائم خلافه، وبقي الكلام فيه هل هو الجليلي

والزرهوني أولاً ؟ فمن قائل إنه هو، ومن قائل لا، لما رأوا من صبره وثباته ووفور عقله وشجاعته وفروسيته وإقدامه وخوضه غمرات الموت وقت القتال، ومصادمة الأبطال، من غير مبالاة بمن قل أو كثر من الرجال، وحسن سياسته وتديبه، وسهولة الأمر عليه وتيسيره، فاستحالوا كونه الجليلي الزرهوني، ولا زال هذا الاشكال واقعا في نفوس الناس، والتحقيق أنه الجليلي الزرهوني بلا شك ولا ريب.

وأولية هذا الزرهوني أنه كان من أعوان مولاي عمر ولد السلطان مولاي الحسن أيام كونه خليفة عن أبيه بفاس لما ذهب أبوه لتافيلالت، وكان من أهل حنطة الفراش أو من حنطة السجادة، ومن قدر الله أن كان المهدي المنبهي من أعوانه في ذلك الوقت أيضا، وكانت له خلطة بهذا الزرهوني ومعرفة وصداقة، وكنا معا في غاية الفاقة والاحتياج، غير أن الزرهوني كان لبيقا حاذقا ذا تودة وإنسانية، بخلاف المنبهي، هكذا قيل، ولما مات مولاي الحسن رحمه الله ووصل الخبر لفاس بموته وبعقد البيعة لمولانا عبد العزيز، اقتضت السياسة تزيين الأسواق وإظهار الفرح وإخراج المدافع على العادة في ذلك، وجاء أهل الطبل والغيطة* [83] لباب دار السلطان بقصد التهنئة، فخرج لهم المنبهي والزرهوني وبعض من أصحاب الضوء وطردوهم، ومزقوا لهم الطبل ونهروهم، قائلين إن ذلك عن أمر مولاي عمر غيظا على موت أبيه، وبلغ خبر ذلك لأهل دولة مولانا عبد العزيز بالرباط، فأمر الوزير بسجنهم وسجنوا، وفي رواية بعد أن أكلوا العصي، ومضى عليهم زمان وهم في السجن إلى أن وقعت الشفاعة فيهم بعد مجيء السلطان لفاس وسرحوا، ثم إن المنبهي تعلق بأهداب عبد الحميد عامل الرحامنة لوجوده وقتئذ بفاس، وصار من أصحابه يأكل الفضلة من الطعام، ويشرب سؤور الرجال، ولم يزل معه إلى أن توسط له عند الوزير في جعله عاملا على المناجبة لإخوانه، لقيامهم في الوقت على عاملهم القائد عياد ولد أخيه القائد حميدة بن العربي وخروجهم عنه، فولاه وتوجه إليهم وأبدأ وأعاد في التودد إلى الوزير والتقرب منه والتملق لديه بكل ما قدر عليه إلى أن صار من الخواص عنده، ثم زادت حظوته ومكانته حتى كاد أن يستولي على عقل الوزير، وزاده ولايات متعددة وكبو ورفع بقدره، ولم يزل في زيادة من علو الجاه عنده إلى أن مات الوزير في التاريخ المتقدم، فمال إلى السلطان

في الحين ووصل يده بيده، وكان من أمره ما ذكرناه سابقا ونذكره بعد، وافترس ديار الوزير وفتك بأهله وذويه، وسمعنا أن بعض العقلاء من الناس [84] * كانوا ينهون الوزير عن مخالطته ويحذرونه عاقبة أمره، وما تحققوه من شؤمه وطيشه ورقة دينه، فلم يسمع ذلك ولم يكن إلا ما أراد الله، والأمر لله كيف شاء فعل، ولما وصل المنبهي لهذا المبلغ العظيم، وصارت أمور المملكة تدور على يده يصرفها كيف يشاء، وسمع بذلك رفيقه الجيلاني الزرهوني وتحققه، قال لهم إذا كان حال المنبهي وصل إلى هذا وهو البارحة صعلوك لا شيء له، ومعتوه لا عقل عنده، فلا يبعد أن أكون أنا سلطانا، وسمعنا أنه وصل إلى بابه مذكرا في الصحبة ولم يعبا به، ثم قام يطلب الملك الذي لم يكن لأبيد ولا لجدته ووصل فيه إلى ما لا يخفى، وما ذاك إلا من شؤم ذلك الرجل وتهوره وكونه ليس من بيت بدير يقف له العار، ويحفظ وجهه مع الله والرسول والمسلمين، ولكن ذلك مبلغه من العلم، ونصيبه من الفهم.

وقد أذكرتني هذه القضية قضية مثلها وقعت في دولة الموحدين والشيء بالشيء يذكر، وهي أن عبد المومن بن علي الموحدي السلطان الأول لتلك الدولة كان قبل أن يتصل بالملكة حامل الذكر وهي الركن ساقط الفخر، وكان له رفيق وكانا معا فقيرين لا يملكان درهما ولا دينارا، وكان هذا الرفيق يعلم الصبيان كتاب الله، فكان عبد المومن يأتيه إلى المكتب ويجتمع معه فيه، وكانت بينهما صحبة واتصال، ثم إن الأيام ذهبت وجاءت ورفعت قدر * [85] الرفيق إلى أن صار واليا للسلطان في بعض الجهات، ومر على بعض المواضع وفيها عبد المومن، فقامت عليه القيامة هنالك واهتزت له الدنيا وماجت فرحا وابتهاجا به، فقال لهم عبد المومن ما هذا؟ فقالوا هذا فلان الفلاني ولاء السلطان، فقال لهم إذا كان هذا حال فلان اليوم فلا يبعد أن أكون أنا أمير المؤمنين غدا، فكان الأمر كذلك فصار أمير المؤمنين، وكان من أمره ما هو معلوم، هذا مضمناها، فقد طال عني عهدا، ولعلني رأيتها في كتاب «المعجب في تلخيص أخبار المغرب».

ومن جملة المسموع عن الجيلاني الزرهوني أنه صاحب الأربعة آلاف ريال التي انخدع فيها أمناء مرسى الجديدة أيام الوزير السيد أحمد رحمه الله، وذلك أن رجلا أتاهم بكتاب السلطان يأمرهم فيه بأن يدفعوا له أربعة آلاف

ريال بقصد البنيان في بعض الأقطار، فدفعوها وأعلموا الوزير بأنهم نفذوا، فتعجب وبالغ في البحث عن صاحب الفعلة ولم يقف له على خبر، فعاتب الأمناء على الغفلة وألزمهم الغرم، وأمرهم بأن يوجهوا له كتاب السلطان الذي به دفعوا ذلك المال، فوجهوه وذكروا له أوصاف الرجل الذي جاءهم به، ولما رآه وجد الطابع الذي به مماثلا لطابع السلطان، غير أن العبارة فيها بعض اللحن وهو عيب في مكاتيب السلطان، ولما ظهر هذا القائم وسمع وصفه أولئك الأمناء، قالوا إنه هو الذي حاز منهم ذلك المال، وقيل إن صاحب هذه الفعلة رجل من * السراغنة سكان مراكش يقال له عبد الرحمن، والله أعلم. [86]

ثم إن القائم لما هزم ذلك الجيش وحصل على أموال وسلاح وغير ذلك مما لم يكن له بالبال، انتعش حاله واشتد ساعده وتوسع منكبه وجاءه الناس من كل مكان، متبركين به ومصممين على متابعتة في السر والاعلان، وصار يجول في تلك الأنحاء يستميل الناس ويقااتل من عصاه، وطمع في الوصول إلى فاس لقرب بلاد الحياينة منها.

ثم إن الدولة قامت على ساق في تجديد جيش آخر لقتال القائم ومن في حزيه، واستعدت الاستعداد التام، وبلغت المجهود في كل ما قدرت عليه من الخيل والرجال والأسلحة والمدافع الكبار والبارود والقرطاس والأخبية وغير ذلك مما يطول بيانه، واعطت أموالا كثيرة لا حصر لها، واضطرت إلى حشد القبائل وحشرها، والمصانعة معها، ومكارتها بالأموال الطائلة، والعطايا الوفرة، لأجل الضعف (5) الواقع في الجيوش القديمة التي هي أنياب الدولة وأظفارها، ودرها المنيع وأسوارها، واجتمع لأجل الطمع الفاضح خلق كثير لا ناقة له في المملكة ولا جمل وسوء عنده رفعها وخفضها، وطبها ونشرها، وهم أعوان — بعد — على إحدى الجهتين إن عثرت بها الأيام وخانها الدهر وأوبقها العمل، وخرجت في ذلك أموال كثيرة بلا عدد ولا ترتيب، ولا قانون ولا تهذيب، كأنما الناس يغرفونها (6) من بحر لا ينقضي، وكنتز لا ينفذ (7) ولا يمضي، وتجاوزوا ذلك إلى التبذير، الذي * أعقبه الاقلال والتقتير، وغاية الأمر أن هذا

(5) الضعف من باب قرب قريبا لغة تميم، ومن باب قتل قتلا لغة فريش : هو خلاف القوة والصحة، انتهى «مصباح».

(6) غرف الماء يغرفه ويغرفه أخذه بيده، كاغترفه، والغرفة للمرة، وبالكسر هيئة الغرف «ق».

(7) نفذ ينفذ من باب تعب نفاذا : فني وانقطع، انتهى «مصباح».

جيش المعقود في هذه المرة لا فرق بينه وبين الجيش الذي يجتمع لسفر سلطان بنفسه، بل هذا أكثر بكثير، وحكم أهل العقول بأنه جيش لا يغلبه غيره إن حضر له حسن التدبير، وأعان الله العلي القدير، ثم خيموا بقنطرة وادي سبو قرب فاس بنحو نصف ساعة من جهة شروق الشمس خارج باب الفتوح، وأقاموا هنالك مدة مديدة، وعينت الدولة المنهي كبيراً عليهم، فاجمع رأيهم على حفر خندق (8) للمحلة يكون محيطاً بها من جميع جهاتها لتحصن به من العدو، مع أن موضع نزولها هذا ليس بدار، وإنما هو محل اجتماعها وتلومها (9)، فتمام استعدادها، فأشغل الناس في ذلك ومضى لهم فيه أيام كثيرة ولم يكمل ولم يحصل فيه طائل، وكان العقلاء يرونه من قبيل المحال، ومن باب اللعب وتطويل الأيام وتبذير الأموال، وتكثير سواد الأهوال.

وفي خلال هذه الأمور تركب بفاس الغلاء المفرط الذي لم يتقدم مثله، وقاسى الناس فيه من الشدائد والحنح مالا يمكن شرحه، وقلت الأقوات، تفعت الأسعار ارتفاعاً غير معتاد، واشتد الخطب وكثرت الفتن في كل انواح، وصار الناس كمن لا وازع لهم، واشرب (10) النفاق، وكثرت الأراء وبقي الناس حيارى لا يدرون ما يفعلون، وسرى الفساد في الرعية على الإطلاق، حتى الجيوش.

[88] فكم قطع الشراردة من طريق، وكمنهوا وفتكوا من فريق، وأيسوا من ريق، ثم تطاعمو مع زمور وتواددوا، واتفقوا على أن تكون كلمتهم واحدة على جانب الدولة إذا قصدتهم بسوء.

وقبل ذلك بقليل قام جيش الفحص بطنجة وحلوا الطاعة وأكلوا ونهبوا، وقبضوا على قائد مشور عاملهم بركاش، وفققوا عينيه بالنار وجلدوه وعذبوه بأنواع العذاب، فافتكه منهم بعض الناس بعد أن فداه بما أحبوا من المال، وبلغ الخبر للدولة ولم تزد شيئاً على عزز عامل بركاش عنهم وتولية غيره، فازدادوا يقيناً في الأحوال، وبقوا على عتوهم وطغيانهم، وفشى ذلك الخبر المكدر

(8) الخندق كجعفر حفر حول أسوار المدن، معرب كنده، «ق».

(9) تلوم تلوما تمكث، انتهى «مصباح»

(10) اشرب إليه : مد عنقه لينظر أو ارتفع «ق».

للخواطر والألباب في تلك الجبال والنواحي، وأشاعه الأجانب في أقطارهم وزادوا فيه ونقصوا، وتحققوا به الوهن الحاصل في الوقت، ولا تستل عما نشأ عن ذلك من الاضطراب والنهب وقطع الطرقات، ولا سيما بذلك الصقع الذي بعد عهده بالأحكام السلطانية.

ثم قام الريسوني بتلك الناحية ووصل يده بيد القائم، وشغب ⁽¹¹⁾ على الدولة وجمع الجموع، وأبدأ وأعاد في الفساد والتخريب والنهب والقتل، وتجنى على جانب الدولة بكل ما قدر عليه من الأمور الفظيعة، وسار صيته مسير المثل، وتملك على تلك الجهة كرها، وكاد أن يستأصلها ويستولي عليها كلها، لولا أن الدولة أطفأت جمره بأموال كثيرة سريتها له، بعد اشتطاطه فيها غاية الاشتطاط، وتولية السلطان إياه على قبائل تلك الناحية وفاء بشرطه، وهو — الآن — كبير قومه، ريان من استراحته ونومه، آمن مطمئن في نفسه وأهله وسريه، * [89] وقد كان هذا الريسوني من شياطين الانس في أوله، فاحتال عليه السلطان مولاي الحسن رحمه الله وقبض عليه وخلده في سجن جزيرة مرسى الصويرة وأراح منه البلاد والعباد، ولما جاءت دولة مولانا عبد العزيز نصره الله تسبب في تسريحه بعض من غش السلطان والمسلمين، فبرز منه هذا المنكر العظيم الذي لم يتقدم مثله لغيره في ذلك القطر، وأعيا الدولة أمره، وارتكبت سياسة كبيرة على كل وجه، وأعطت أموالا جلييلة في تحصيله ولم يقدره الله، ولو تبعت أمره وشرحت حاله لاحتجت إلى مجلدات، وغاية القول فيه أنه تجاسر على المملكة جسارة كبيرة، وأساء عليها الأدب وأهانها، وكشف جلباب الحياء عن وجهه معها، وما أبقى للصلح موضعا، والله اعلم بما تؤول إليه عاقبته، وتقتنصه عائلته.

ثم إن المنهبي تحرك بالمحلة من موضعها بعد اللتي واللتيا، والأوامر التي لا خيار فيها ولا ثنيا، وسمع به القائم وصوب وجهته إليه إلى أن تلاقيا في محل ضل عني اسمه من بلاد الحياينة، ولعله يسمى نخيالات الثلاثاء، فقام الحرب بينهما على ساق، وصبر الفريقان صبر الكرام، واحتسى الناس كؤوس الحمام، وفي آخر الأمر انكسر القائم ووقعت عليه الهزيمة، والغلب الذي لم تنفع فيه

(11) شغبهم وبهم وعليهم كمنع وفرح هيج الشر عليهم «ق».

[90] تميمة، لوقوع الغش ممن معه بما حازوه من المال، وكاد أن يقع القبض عليه باليد لولا أنه رجل شجاع مقدم، وشهم ذكي ضرغام، وقد أظهر في ذلك * اليوم من الشجاعة ما شهدت به أعداؤه، بعد أن أسلمه أنصاره وأولياؤه، وأصيب فرسه وترجل، وبقي السيف في يده يضرب به وما نكل ولا تنصل، إلى أن تفلت من محالب المنية، وأظفارها البطاشة القوية، وذهب لترميم جمعه، ورتق فتقه وصقعه، وبقيت مضاربه وفساطيطه بيد المحلة، وكانت السياسة تقتضي أن تتبعه الخيول، قبل أن ينجلي عنه غمام الروع ويزول، لأنه بقي راجلا منفردا ليس معه إلا نحو العشرة من الرجال، والناس يرونه ماشيا على مهلته غير مكترث بمن قل أو كثر من الأبطال، ولكنهم قنعوا ⁽¹²⁾ من الغنيمة بفراره، وبعد مزاره، ظنا منهم أن عاديته انقطعت، وجموعه تمزقت واندثرت، مع أنه ذهب لما هو أفضع، وأدهى وأقذع، وأمر وألذع، وحيث لم يحصل في ذلك اليوم ولا فل من غربه ذلك الهول علم الناس أنه أمر له ما بعده، وأنه صقر لا يناله البوم ولو أفرغ جهده، وأفنى موجوده ورفده، وهب أنهم أفلتوه، في ذلك الوقت الذي كان عليه أضيق من ثقب إبرة وأخرج من أفحوص ⁽¹³⁾ قطاة ⁽¹⁴⁾، وأغفلوه، فلما ذا رجعت المحلة بعده القهقرا، وتأخرت إلى ورا، إلى أن آل بها الأمر إلى التخييم بمحلها من قنطرة سبو ونفست عن الأعداء ضنكهم وكربهم، ووضعت عنهم إصرهم، وأفرجت غمهم وهمهم، وأبلغتهم ريقهم، حتى راجعوا بصيرتهم، وراشوا عزيمتهم، وصاروا يدا واحدة في الانحراف، وركوب متن الاباية والخلاف، ولكنها لا تعمى الأبصار، وليس بيد الانيسان اختيار.

[91] * ثم إن القائم بعد وقوع الهزيمة عليه توجه لتازا ومنها نهض للريف ونواحي وجدة، فتملك ذلك القطر في أقل من طرفة العين، ودخل وجدة وخطب له على منابرها، واستبد بأموالها وذخائرها، وتناول أعسار ديوانة مليية

(12) قنع يقنع بفتحين سأل، وكفرح رضي «ق».

(13) الأفحوص مجتم القطا، جثم الطائر يجثم ويجم بكسر المثلة وضمها — جثما وجثوما لزم مكانه

فلم يرح، وفي «المصباح» فحصت القطاة فحصا من باب نفع حفرت في الأرض موضعا تبيض فيه، واسم ذلك الموضع مفحص بفتح الميم والحاء.

(14) القطاة : ضرب من الحمام، الواحد قطاة، انتهى «مصباح» .

وحازها، ووطد أكنافها وأحوازها، وصار في يده حلها وربطها، واقتضى أموالا كثيرة من أولئك القبائل وجاسوها، وحكم عليها وساسها، واتخذ الخيول المسومة، والجيش الكثيفة المقومة، وبرقت له بارقة في تلك الأوطان، وتشبه في زيه وحليته بالسلطان، وطارت بأخباره ومآثره الركبان، وحاول في أقرب مدة ملكا لم يتيسر إلا لمن ومن في الكثير من الأزمان، وأصبح ذلك القطر العريض في قبضته، واحتوى عليه برمته، ثم صار يكتب من هنالك لأعياض القبائل رعية السلطان، ويستميلهم للدخول في حزب الشيطان، وحصل في الرعية بذلك هوس كبير، وشر أثير، وكادت أن تنجح دعوته، وتيسر رغبته، لولا أن الله سلم.

ولما تملك قطر وجدة واهترت أرجاؤها لصولته وهي مجاورة لقطر تلمسان والجزائر، اقتضى نظر الدولة الفرنسية أن يأتي كبيرها للجزائر وغيرها لاختبار أحوالها، ومنها يتوجه إلى تونس ثم يرجع لباريز، ولما علم السلطان بذلك تعين عليه أن يتوجه من قبله للجزائر من يلقاه هنالك بقصد تهنته، [92] أداء لحقوق الجار، كغيره من الملوك المجاورين لهم بتلك الأقطار*، فوجهني لذلك مع الحب الأجل الأمين الأحفل السيد بناصر غنام الرباطي، وسأني الكلام على ذلك في الباب الرابع إن شاء الله تعالى.

تم إن الدولة لما رأت ما آلت إليه الأحوال، من كثرة الأحوال والأهوال، اقتضى نظرها توجيه المحلة الخيمة بنهر سبو لأخذ تازة ونواحيها، وترميم أمرها وتلافيها، ليحصل التعويق للقائم عن مراده، ويكون فتا (16) في عضده وعضد أجناده، ويتيسر الوصول إلى وجدة والريف، وتسكن أدواح ذلك القطر من ريح ذلك الأجلد الوزيف (17)، ويضيق عليه المجال، ويحصل في القبضة وينال، وقد يمكن ذلك لو كان السائق لتلك المحلة من بيت كبير، وأحواله مصحوبة بالفتوح والتيسير، والرأي المحمود الشهير، فأفرغت الدولة في هذه المرة جهدها، ونفضت خزائنها فيها كلها، وأعطت للمنبهي زمامها

(15) الأعياص أي الأصول والخيار، «ق».

(16) الفت اللق والكسر بالأصابع، والشق في الصخرة، وفت في ساعده أضعفه، «ق».

(17) الوزيف أي السريع كما يؤخذ من القاموس، والأجلد الصقر، وكل شيء يصيد من البزة والشواهين، والشاهين طائر معروف «ق».

ورسناها، وعززته بابن يعيش قائد مشورها، وذهب يحرق المحشر في كثرة الخلق من ورائه، وكلمته نافذة فيهم بكل ما يبدي من سيرته وآرائه، فمضى والحتف يغازل (18) أولئك الأمم بمقلة عشواء (19)، وينعيمهم بحفلة (20) شوها، وتبكيهم الأطلال والربوع، وتهطل عليهم مواطر الأحزان والدموع، ثم اعتكف على لذاته، وتنعطاته وتهوراته، والغرائب المعلومه من تهتكاته، وسماع الغناء والعود، واللحون التي تسلي الحزين عن كل مفقود، وتوزيع الأموال على الصادر والوارد بغير حق ولا قانون، وإعطاء السلاح للاعداء والقرطاس* والبارود، وغير ذلك من الأمور الخارجة عن أفعال العقلاء، وأذهان النبلاء، في جميع المسكون، فتساهل إذ ذاك معه أولئك الأعداء في المرور بأرضهم، بعد أن ملأوا بطونهم وأيديهم من الذخائر والقوة التي أورثت لهم الفخر ولأولادهم من بعدهم، وهم مع ذلك متحققون بأن تلك الجيوش أكلة جاءت إليهم، وطعمة وضعت بين أيديهم، ولسان حالهم يقول لم أمر بها ولم تسؤني، فدخل تازة وطار بها فرحاً، ومشى في الأرض مرحاً (21)، وظن أن جمرة ذلك الصقر انطفأت، وسورته (22) ولت ورجعت، وأنه إلى ذلك القطر لا يعود، ولا توفي له في تملكه والحكم عليه وعود.

ثم كتب للدولة واستحثها على قدوم السلطان بنفسه لتأزة ليراه الناس، ويرتفع بمحياء الأشكال ويزول الالتباس، فتناقلت لعلمها بالأحوال، وبقاء وجود الأهوال، ولأن وصول المحلة لتأزة لم يكن على الحال المعهود، من أحوال الجيوش والجنود، ولم تظهر لأهل ذلك القطر طاعة، ولا دخلوا فيما دخلت فيه الجماعة، فكيف يتأتى للسلطان الوصول إليهم وهم باقون على انحرافهم، وعتوهم وطغيانهم، وإيقاد نيرانهم، ولما استبطأ الأمر وجه قائد المشور ابن يعيش لاستنهاض السلطان، وحضه على المجيء إليه في تلك الأوطان، وملاً

(18) المغازلة المحادثة «ق».

(19) العشا مقصورة سوء البصر بالليل والنهار، عشي كرضي ودعا عشي، وهو عش وأعشى، وهي عشواء «ق».

(20) الجحفة بمنزلة الشفة للخيول والبغال والحمير، «ق».

(21) مرح كفرح أشربطر واختال ونشط وتبختر «ق».

(22) سورة الحمر وغيرها، حدثها، كسوارها بالضم، ومن المجد أثره وعلامته وارتفاعه، ومن البرد : شدته، ومن السلطان : سطوته واعتداؤه، «ق».

الفضاء بأكاذيب وبهتان، وخرافات⁽²³⁾ واهية المسانيد والأركان، فنهض
[94] السلطان والقلوب تتحسر على ذلك، *وتتوقع شيئا عسيرا هنالك، في
الخامس والعشرين من ربيع الثاني عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف.

ولما بلغ خبر أخذ تازة للقائم بأقطار وجدة وخروج السلطان أمر قومه
بقطع الطريق، ومنع المرور بها عن كل رائح وغاد وعن كل فريق، لتقطع المحلة
بتازة عما يصلها من المدد والمرافق، وتتلاشى جوعا وإهمالا بين تلك الأوعار
والجبال الشواهي، وشجعهم وقواهم، وبشرهم بأنهم سيبلغون من المحلة مناهم،
ووعدهم بالجميء إليهم، والتخيم في وسطهم، وكتب لأولئك الجوار بالتعاقد
والتناصر، وترك الخلاف والتنافر، ليلا تنالهم الأيدي وتحل بهم الدواهي وبصرهم
في الأمور، وأوقر⁽²⁴⁾ منهم بالغل⁽²⁵⁾، والوحر⁽²⁶⁾ والقلوب والصدور، فامتثلوا
أمره، وتدرعوا والتحفوا فخره، وأبدأوا وأعادوا، وما تثبطوا ولا كادوا، وفعلوا
الأفاعيل التي بقيت في صفحات الدهر مسطورة، وعند الأصاغر والأكابر
منشورة، وحصلوا على أموال وذخائر وأسلحة لم تسمح بها النفوس، ولا تجمعها
الصحائف والطروس.

ثم إن السلطان لما خرج من فاس في التاريخ المتقدم خيم بقنطرة وادي
سبو أياما قلائل، ونهض يوم تازة بعد أن استدعى الناس من كل مكان،
ووعدهم بالعطاء وغاية الاحسان، وبذل المجهود على حسب المقدور والامكان،
واستعد الاستعداد التام، وذهب يجر الذر والرمل من الأنام، إلى أن وصل
للمحدود بين الحيانية* والتسول، الذين لم تنزل جرائمهم تعظم وتهول، وخيم في
[95] محل يسمى طبوعبان، حيث تحقق أنهم باقون على الطغيان، والتمادي على
العصيان، وخاطب أولئك البغاة بالرجوع للطاعة، والدخول فيما دخلت فيه

(23) خرافة كتمامه رجل من عذرة إستهوته الجن فكان يحدث بمراء، فكذبوه وقالوا حديث خرافة، أو
هي حديث مستملح كذب، «ق».

(24) الوق بالكسر حمل البغل أو الحمار، ويستعمل في البعير، وأوفر يعيو بالألف، وانتهى
«مصباح».

(25) الغل بالكسر الحقد، انتهى مصباح

(26) وحر كفرح صدره على بحر ويوحر ويثحر فهو وحر استضمهر الوحر، وهو الحقد والغظ.
والغش، «ق».

الجماعة، وخوف وأنذر، وأوعد وحذر، وفسح الدائرة لمن تاب، ورجع إلى الله وأتاب، فقامت قيامتهم، واستحيلت سلامتهم، وعلموا أنهم صاروا بين جيشين الجيش الذي بتازا والجيش الذي بطبوعبان وكلاهما جيش جرار، وبحر زخار، وسلاح وأموال كأنما فاضت بهما الأنهار، آناء الليل وأطراف النهار، فمالوا إلى المصانعة مع الامام، ووعدوا بالانقياد لأجل عينوه من الأيام، وهم كاذبون وإنما الوقت اقتضى مجاراتهم في الكلام، ولما امتد الأمر وطال، وظهرت أمارات المحال، بدا للدولة مناوشتهم بالقتال، لينذروا وبال أمرهم، ويتجرعوا نكال شرهم، ويرجعوا للطاعة قهرا، ويتمسكوا بها نهيًا وأمرًا.

وبينا الدولة تحاول هذه الأمور، وتروجها في الورود والصدور، إذ تسلل المنهي من محلة تازا وجاء يهرول إلى محلة السلطان، وترك محلته واقعة في أشطان، ومتسريلة في هموم وأنكاد وأحزان، بسبب بقائها بيد من ليس له ولوع إلا في احتجاج (27) أموال رواتب المحلة واختلاسها، والاستبداد بسائر أنواعها وأجناسها، وسرى لها التفريط والضياع، وتفرق جلها في البقاع والأصقاع، وحل بها من الدمار والهلاك * ما لا تفي به العبارة، وماتت الخيل والبغال والجمال [96] جوعا وتفريطا لتعسر المرافق وتعذر الرواتب ووقوع الحصار على تازا من جميع جهاتها.

ثم إن الدولة قاتلت أولئك البغاة أولا وثانيا وثالثا وما لانت حديثهم، ولا انكسرت شوكتهم، وفي أثناء ذلك ورد عليهم القائم محمولا لمرض ألم به، كاد أن يحل (28) رمسه بسببه، فمن قائل إنه مضروب بالبارود في قتال كان بينه وبين أهل قصبة أمسون، ومن قائل إن الرصاص لا يؤثر فيه وإنما ضربه قربوس سرجه، وعلى كلا الروايتين فقد سقط من على ظهر فرسه حين القتال، وبقي منبوذا بمحل المعركة لا حراك به حتى إنهم قطعوا بموته، وذهابه وفوته، فأناه قومه وحملوه وذهبوا به آيسين من حياته، وحيث حل بالتسول ما حل بهم من جهة السلطان استحثوه (29) على القلوم إليهم على أي حالة كان، فجاءوا به

(27) احتجن المال ضمه واحتواه، «ق».

(28) حل المكان وبه يحل ويحل حلا وحلولا نزل به، كاحتله وبه فهو حال، الجمع حلول، «ق».

(29) حته عليه واستحثه وأحثه : حظه فاحتث، «ق».

• يس من أكثر من الطمع فيه، وأنزلوه في وسطهم وبين حللهم ومداسهم في محل بين تازة وطبوعبان بينه وبين محلة السلطان نحو أربع ساعات، وزادوا به شدة ومكرا، وتفجروا نارا وجمرا، وقابلوا محلة السلطان في نيف وعشرين معركة، وحضر السلطان بنفسه في بعضها، وزاد بهم الأمر إلى أن طمعوا في الضرب على محلة السلطان واغتيائها، وجاءوا إليها ليلا مرات متعددة ولم ينالوا شيئا منها.

[97] هذا وأخبار محلة تازة غائبة عن محلة السلطان، تعسر الطريق وانقطاعها، وحراسة الأعداء* لها وترصدهم للمارين بها، ومسافة ما بين المختلين نحو ست ساعات، وحيث طال الحال، وتكاثر الأهوال، وانهمت الأحوال، ظهر للدولة أن تقتحم ذلك الجبل على القائم عنوة وقهرا، وتشبعه ومن معه ضنكا وعسرا، فكتبت لمحلة تازة بالقدوم لموضع عينوه لها، في يوم عزمت الدولة على النهوض فيه والنزول بذلك الموضع، لتجتمع المثلتان على أولئك المارقين، وتطحنهم طحنا يصيرهم في دمائهم غارقين، ولما وصل اليوم موعود، وحل الأجل المحدود، نهض جل الأعيان والفرسان الصباح من محلة تازا قاصدين المحل المعين لهم، وحيث وصلوه لم يجدوا به محلة السلطان، فسقط في أيديهم ووقفوا وقفة ينتظرونها، ثم ظهر لهم مجاوزة ذلك المحل لعلهم يتلقونها آتية لذلك الميعاد، ولما لم يظهر لهم أثرها ولا خبرها ولم يمكنهم الرجوع لتازة زادوا قاصدين محلة السلطان أينما كانت، وحيث توسطوا الطريق تناثل (30) إليهم الأعداء كالجراد المنتشر وسدوا عليهم الأبواب، وكل المسارب والأنقاب، ورموهم بالرصاص من كل مكان وقتلوه قتلًا ذريعا، وتركوا جثثهم هنالك مأذبة للذباب، ومأكلة للكلاب، وما تفلت من تلك الواقعة الهائلة، إلا من كان له العمر الطويل، وسلبوا ذلك الجيش اللهم من أمواله وملابسه وأسلحته وكثير من خيله، وأذاقوه الفتك الذي لم يكن في البال، ووصلت بقيته لمحلة السلطان على حانة تبكي الأحباء، وتسرى الأعداء، ووجدوها في [98] محلها المعهود،* كأن لم يكن منها لهم عهد ولا وعود، وبقي الناس حيارى

(30) نزل الركبة ينشلها استخرج ترابها وهو النشيلة والنشالة، والكنانة: استخرج نبلها فثرها، وتناثلوا إليه

انصبوا «ق»، وهي من باب قتل.

(31) اللهم كغراب : الجيش العظيم،

ينظرون، وعلى هذا الخطب يتأسفون ويتحسرون، ولم يعلموا السبب الذي تخلف به الوعد بين المحتلين، واغتازت القلوب وسرى النفاق ووقع الفشل ملء اليدين، وأخذ الناس في تخفيف الأثقال وتوجيهها لفاس، خوفا مما عسى أن يصبح أو يمسى من الأحوال والبأس، وزادوا يقينا وبصيرة في الأمور، وعلموا أن ما يحاولونه إنما هو ضرب في حديد بارد، وانحطت الهمم عن مقاومة ذلك الشيطان المارد، وفي خلال ذلك أمرت الدولة بحفر خندق يكون محيطا بالحلة صيانة لها من هجوم الأعداء، ثم أمرت بعد ذلك بإدارة سور من البنيان عليها، فوقع الشروع فيه وفي الخندق ولم يكملا، وكان ذلك عند الناس من باب المستحيل البعيد، والأمر الغريب الوحيد.

وبينا الناس يتأملون في عواقب هذه الأمور، إذ جاء الخبر بأن رجلا من آيت شغروشن ثار بنواحي آيت يوسي وزعم أنه شريف، ورام الانتزاع (32) على الملك وشوش وفتن الناس، فوجهت الدولة لحسم مادته، وإبطال عاديته، القائد عمر عامل آيت يوسي بعد أن هون أمره لهم وسهله، فتوجه وكانت عاقبة أمر القائد المذكور أن قتل وذهب كأمس الدابر، لسكنى المقابر، وصار حال الوقت كقول القائل

تكاثر الظماء على خدش فما يدرى خدش ما يصيد
ثم ظهر للدولة أن ترجع لفاس، وترجىء أمر هؤلاء الأنجاس * لوقت آخر، فكتبت لمن بقي بتازا من المحلة بالاحتياط على الخروج منها والمشي إلى وجدة، حيث لم يمكن إتيانهم للمحلة عند السلطان، وذلك بعد أن يفسدوا الأثقال الباقية عندهم ويحرقوها، حتى لا يجد الأعداء بعدهم شيئا ينتفعون به من متاعهم، حيث ضاعت البهائم كلها ولم يكن ما يحملون عليه، فكم حرقوا من خزائن وأفسدوا من مدافع وقتلوا من خيل ضعيفة ومن بغال، ثم خرجوا قاصدين قصبة العيون، ومنها إلى وجدة.

[99]

وأما محلة السلطان فإنها نهضت أيضا من طوبعان راجعة لفاس في اليوم المعين لنهوض محلة تازا، ليكون نهوض المحتلين معا في يوم واحد ليلا يجد الأعداء سبيلا وفراغا لأحدى المحتلين عند فقد الأخرى، ودخلت لفاس في

(32) الانتزاع : التوب.

أواسط شعبان عام واحد وعشرين المتقدم، فكانت مدة غيبتها في هذه الوجهة نحو الثلاثة أشهر، ولما وقع الافراج عن أولئك الثوار نهضوا بمتبوعهم وأدخلوه لتازا، فاستقر بها مدة إلى أن صح من مرضه، وكان من أمره ما نذكره بعد أن شاء الله تعالى.

وهذه الخطوب التي وقعت، والخوارق التي ظهرت وانتشرت، إنما هي من سوء التدبير، وعدم الثبوت من المباشر والمشير، ولا يخلو ذلك من غش ومن نفاق، وعدم الائتلاف والوفاق، ولا سيما من جهة الرسل الذين كانت الدولة تعتقدهم وتوجههم لرتق الفتوق، ورفء الشقوق، مع أهل الشقاق والفسوق، فقد ثبت من خارج أنهم أعدى الأعداء على جانب الدولة، وأنهم [100] إنما كانوا جواسيس وعيونا* عليها يبلغون عنها كل قبيح ويكشفون عن عوراتها، ويدلون الأعداء على مواضع غثراتها، والوجه الذي يتوصل به إلى نكباتها، وكانت الدولة تعاملهم بالجميل، وتبالغ في إكرامهم بكل خير جزيل، إلى أن ظهر عليهم من الأموال والذخائر ما صاروا به من أكابر الأغنياء، بعد أن كانوا فقراء أغنياء، والدولة تظنهم برة أتقياء، وأحبة أولياء، وفي الحقيقة إنما هم مردة أشقياء، وكيف يرجى خيرهم في مثل هذا الوطن، وهم من أهل ذلك المعطن، وأولادهم وديارهم وأموالهم في وسط أولئك البغاة، وهم أصهارهم أيضا وحلفائهم، فكان من حق الدولة أن لا تحرك ساكنا لمن هذا وصفهم، ولكن الواسطة معنوه، ولا يخلو مع ذلك من غش للدولة كما قلنا ووهن يامله لها ويرجوه، وإلا فمن البعيد الغريب أن تغلب قبيلة التسول تلك الجيوش وتصدها عن مرادها، وإصدارها وإيرادها، وقبيلة الحيانة، التي هي من القبائل المهينة عند الدولة كانت تغلب التسول وتقاتلهم في قعر ديارهم، وتشغلهم عن معائشهم وأوطارهم، وتخرجهم من عششهم وأوكارهم، وتضيق عليهم المجال، وتفوق إليهم سهام الأنكاد والأوجال، والأمر لله كيف شاء فعل.

وإذا تصدر للرئاسة خامس جرت الأمور على الطريق الأعوج

ولما حلت الدولة بفاس فرقت تلك الجموع، واستراحت من وعثاء السفر المفجوع، وذهب كل فريق لحاله، وشيعوا في أفطارهم كلاما لا تحمله القرايطيس ولا تسعه العقول، وآل الأمر إلى قيام القبائل قاطبة على العمال.

[101] وإحراجهم من ديارهم واسيس - أمواهم، ومهم من مات قتلا* كائنه.

الجيلاني الدمناتي بدمنات، والقائد عمر اليوسي المتقدم الذكر، والقائد الخلخالي بأصيلا، وغيرهم ممن لم تحضرني الآن أسماءهم، وما سلم منهم من الاذاية إلا من توطأ مع قبيلته على ما أجبته من الاعراض عن جانب الدولة وتنفيذ أوامرها، فادركت الرعايا بذلك مرادها، وأبدت لدها وعنادها، وتوسعت في الطغيان، وملأت منه الزمان والمكان، والزوايا والأركان.

وتالت على الدولة في خلال هذه الأمور الدواهي والخطوب، والهزاهز والكروب، يشيب لها الغراب، واضطرت الدولة واقتقرت، وحجت في كعبة النحوس واعتمرت، ولحقها الوهن الفضاح، وكادت أن تلقي السلاح، وتعترف بالعجز الصراح، وتحملت ديونا كثيرة أولا وثانيا وثالثا من الأفرنج والروم، وظهر عليها من الكآبة وسوء الأحوال ما هو شهير معلوم، وذهب ذلك المال شذر مذر، حتى لا خبر له ولا أثر، ومع ذلك فكانت تمد الجيش الذي أفرغ تازة وذهب للعيون وترضخ له بما يبقى عليه رmqه مرة بعد أخرى.

إلى أن استراح القائم من مرضه، وهب من سقمه، فأمر بحصار العيون وقطع المرافق عنها، فعان أهلها الموت الأحمر، وقاسوا من الشدائد صنوفا، ومن المكائد ألوفا، ولما أعتيمت الأحوال، ولم يكن من ينجدهم من تلك الأهوال، خرجوا من العيون وأفرغوها، وتوجهوا إلى وجدة ويمموها، ومن ثم صارت دائرة القائم في اتساع، وملأ صيته تلك الأصقاع والبقاع، وجبى أموالا وذخائر من [102] أولئك الأغمار رغما، وقاموا بطاعته* نهيا وأمرأ، وظهر لهم أنه لم يكن من يقاومه وشهدوا له بالشجاعة، والسياسة البالغة والبراعة، ثم خرج من تازة لتدويع تلك الأقطار، وقضاء ما له فيها من الأوطار، فقابلوه بالسمع والطاعة وطأطأوا له رؤوسهم وأذعنوا، وأذاعوا مناقبه وأعلنوا.

فأدته خاتمة المطاف إلى الحصار على قبيلة بني بوزشكا لبقاء عاملها البوزشكاوي على طاعة السلطان فخاطبهم بالذخول في عهده وأوعد وحذر، وخوف وأنذر، وطلب من العامل البوزشكاوي مصاهرته بإحدى بناته ليم له المراد، ويتأق له في تلك الناحية ما أراد، فلم يجد العامل بدا من إظهار طاعته، وإضمار مخادعته، فأجابه بالقبول، وبلوغ المنى وغاية السؤل، وطلب منه أن يرسل إليه في هذا الغرض وجوه القبائل التي معه تنويها بقدره، واعتناء

بأمره، فوصله منهم جم غفير، وجمع كبير، ولما عسعس الليل الداج، فرى منهم الأوداج، ورماهم بالداء الذي لم ينفع فيه علاج، وأبادهم قتلا وذبحا، وصدح بنعيم غراب البين صدحا، ولفحتهم نار تلك الفتكة الوخيمة لفتحها، وتركوا في النجيع مدرجين، ولا حراك بهم ولا أنين، وهم ستون رجلا وقيل سبعون وقيل تسعون، ثم هرب في ذلك الوقت تحت الليل مع بعض أهله وذويه، وشمى إلى وجدة لعلمه أنها البلد الذي يكنه ويؤيه، وفي الصباح بلغ الخبر للقائم بما وقع بأصحابه، فتحسر وتأسف وذهب إلى دار البوزثاوي وهدمها، [103] واستأصل موجودها وأثاثها*، ونهب زروعها وذخائرها، وتقبض على بعض أولاد البوزثاوي فيما بلغنا واسرهم، ثم حكم على قبيلة بني بوزثا قهرا، وولى عليها العمال، وجبى منها أموالا كثيرة تجل عن الحصر.

ثم سار إلى جبل بني يزناسن وهو ما هو في كثرة الناس، وقوة الباس، فدخلوا في جماعته، وتمسكوا بطاعته، وبذلوا له أموالا طائلة، وجال في تلك الأقطار وطول المقام بها، وأعاناه في هذه المرة على ذلك أبو عمامة الشيعي وشد أزره، ووصل يده بيده، وأصله من رعية الجزائر، فهرب لأمر حل به من جهة الحكام وجاء يهرول إلى رعية السلطان بناحية الصحراء، فاعتقدوه واجتمع عليه منهم جم غفير، وأخذ يستميل الناس ويغريهم على الانتقاض على المملكة، واستدعاه السلطان إليه وعصى ولم يمتثل، ولم يزل على ذلك إلى أن اتصل بالقائم وصار معه يدا واحدة على المملكة والتشغيب عليها، وتفويق سهام المكائد إليها، ثم إن بني يزناسن انتقضوا على القائم، وقيل إنما انتقض عليه بعضهم ورجعوا إلى طاعة السلطان، وسرى له بعض الفشل بسبب ذلك وقارب أن تنحل عراه، ووقعت له مع محلة السلطان التي بوجدة معارك عديدة يشيب لها الوليد، ووقعت عليه الهزيمة في غالبها على ما بلغنا، ولا زالت الحرب قائمة بينهما على ساق، تارة لهذه الناحية وتارة للأخرى إلى الآن، وحتى الآن، [104] وهو أوسط محرم الحرام* فاتح عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف.

وأما ما يرجع لأخبار المنهبي فإنه لما حل بالمملكة ما حل بها بسببه، وتبين سوء صنيعه وتديبه، نقص في أعين الناس والسلطان، واستثقلته الدولة ومجته القلوب، ورماه الله تعالى بمن حال بينه وبين السلطان ومنعه من الدخول عليه في المجلس الخاص السري الذي كان له معه، وهو من غرسه وعمل يده،

وكما يدين الفتى يدان، فضاق ذرعه وقل صبره، ثم اختبر حاله من جهة السلطان ليرى كيف هو عنده، فطلبه المشي للمشرق بقصد الحج وساعده وأذن له فيه، حيث صارت شمس على أطراف النخيل عنده، فذهب يابس الريق، وفي بحر الحيرة والتحسر غريق، وذلك عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، بعد أن أبقي من ورائه نائباً عنه على مكانته التي هي الرئاسة على سائر العسكر، فلما منه أنه يرجع إليها إذا أتى من المشرق، ولسان الحال يناديه هيئات هيئات، فليس الماضي كالآت، فذهب في هيئة وثروة حدث عنهما ولا حرج، وحج من العام المذكور، ورجع بهدايا وافرة كثيرة الأنواع بقصد السلطان، وحيث حل بشجر طنجة وجه مكتوبه إعلاماً للسلطان بوروده من الحج، وبأنه أتى بهدايا لجانبه عز نظيرها، وبعث نعوتها وتساويرها ليرغبه فيها، [105] ويشوقه إليها، وفيها بعض الوحوش* والنساء العجميات، اللاتي هن في الحسن متناهيات، وأقام بطنجة منتظراً للجواب، وعند نزوله من البحر أقام له العامل وكبراء البلد مهرجاناً كبيراً، وضربت المدافع بالمرسى لأجله، وتلقاه الناس بالإجلال والترحيب، والبرور العريض الرحيب، ولم يكن عنده شك في ورود جواب السلطان عليه بزيادة التنويه به والتكريم، والخطاب الجليل الفخم، ولما وصل أصحابه لباب دار السلطان بفاس دفعوا ما عندهم من مكاتيبه لجناب الامام وأرباب الدولة، فأعرضوا عنه وقلبو له ظهر الحن، وكان جوابه أن صدر أمر السلطان بعزل العامل الذي بطنجة لأجل المهرجان الذي أقام له، وتوبيخ بعض كبراء طنجة على ذلك، وبعزل بعضهم من الخطط التي كانت بيدهم، كولد بنيس الذي كان من أعيان أهل المجلس الذي يعقد للنظر في الأمور الأجنبية بدار نيابة السلطان بطنجة، لأنه مال إليه بكليته، ووقع أمر عظيم في أهل طنجة بسبب ذلك، وتعجب الناس من هذا الحادث الذي لم يكن مظلوناً، ثم أمر السلطان بإثر ذلك بعقل أملاكه ودياره بمراكش وفاس والرباط وطنجة والقصر وغير ذلك أينما كانت وتعينت، وصدر الأمر لخليفة السلطان بمراكش بالقبض على أخيه عباس صاحب الهزيمة الأولى عن الفتان وعلى بعض من حاشيته، ففعل وامتل وحيز عليهم جميع أمتعتهم وموجودهم وأصبحوا في [106] قيد الأسر*، ولم تكنهم أرض ولم تبكهم سماء، تعوذ بالله من النحوس، التي تأتي على الأموال والأصحاب والأحبة والنفوس.

ولا شك في كون هذا الرجل مشؤوم الحيا والجين، فهو بالترك وإبعاده من حضرات الملوك قمين، فإنه لما ركن إلى الوزير المعتر الذي ختمت به الوزارة بالمغرب الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد عاد عليه شؤمه، وأخلت دياره وبددت أمواله وأولاده وأهله، وذهبوا دفعة واحدة كأن لم يكونوا في زي الملوك أكثر من الخمسين عاما، ثم ركن من بعده إلى السلطان فحل بالمملكة بسببه ما رأيت في هذا المختصر والعياذ بالله، ثم جر شؤمه على نفسه وأهله وذويه والناس الأجانب الذين لم يأت بهم إليه إلا الأعداء به والتمسك بذيله، فمنهم من عزل، ومنهم من وقع الانتقام منه كالأمير أحمد الجايي الذي انقطع إليه ومضى معه إلى الحج، فإنه لما ورد معه لطنجة صدر أمر السلطان بالقبض عليه وتوجيهه إلى حضرته مسجوناً، وأودع السجن بفاس وما سرح إلا بعد اللتي واللتيا، إلى آخر أخباره التي لو تتبعها لما وسعها ديوان.

ولما حل بالظالم ما حل به من هذه الفجائع التي لم تكن له بالبال، قام يكلمه عليه سلطان النجلير حيث إنه في حمايته كما تقدم، ووقعت المراجعة [107] بينه وبين السلطان في شأنه، وطال الكلام بينهما إلى أن آل الأمر* إلى الاتفاق على ترحيله من المغرب، وعلى حيازة السلطان لجميع أملاكه أينما كانت، إلا أملاك طنجة فتبقى له، بعد أن يعطيه السلطان عشرة آلاف إبرة ذهباً عوضاً عنها، ثم أمر بالتوجه إلى مصر وأقام له النجلير من ناب عنه في بيع إمامه وأثاثه بفاس ومراكش وتنضيد أثمانها والتوجه بها إليه، وكان في ذلك من البشاعة ما لا يفي به القرطاس، ووقع له من التكشف على حريمه والاطلاع عليه مثل ما أوقع هو فيه حريم ولي نعمته الوزير السيد أحمد رحمه الله، مثلاً بمثل وسواء بسواء، وهذه عادة الله في خلقه، والمرء مقنول بما قتل به.

وما أصيب السيد أحمد رحمه الله بذلك في حريمه ومتاعه، إلا بما فعل هو أيضاً بحريم أولاد الجامعي الفقيه الوزير الحاج المعطي بن العربي بن المختار رحمه الله، وشقيقه محمد الصغير الذي كان رئيساً على العسكر، وكثيراً ما كنت نتأسف على ذلك لعلمي أن الانسان كما يدين يدان، ومن سن سنة حسنة أو سيئة فله أجرها أو وزرها.

وقد سمعت في مثل هذا الموطن من الفقيه العلامة المشارك الكاتب السيد عبد الرحمن بن محمد الشرفي الفاسي رحمه الله، الوزير عند خليفة السلطان مولاي الحسن بمراكش مولانا عثمان بن محمد بن عبد الرحمن بن هشام، أن الفقيه الوزير السيد العربي بن الوزير السيد المختار الجامعي، لما ولاه السلطان مولانا عبد الرحمن بن هشام الوزارة بعد موت صاحبها الوزير ابن إدريس، صار الوشاة يأتون إليه بالوشاية في جانب ابن إدريس والكشف* [108] عن عوراته وإظهار مثالبه، وكان يميل إليهم ويعمل على قولهم، والناس مع الدنيا وأهلها فكلما انقلبت انقلبوا، وحيثما ذهب ذهبوا.

ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها فكلما انقلبت يوما به انقلبوا قال الفقيه الشرفي ولما رأيت ذلك وكان الوزير ابن إدريس حبيبا لي والوزير السيد العربي حبيبا لي كذلك، وخفت عليه سوء العاقبة خاطبته فقلت له يا سيدي هؤلاء الناس الذين رأيت منهم ما رأيت في حق ابن إدريس، إنهم بالأمس كانوا من خدمته وأهل عبوديته حيث كان على سرير وزارته، وفي دست إمارته، ولما مات، وذهب وفات، انقلبوا عليه بالعداوة، وصاروا يسعون فيما يعود بالضرر على أهله وأولاده، كأنه لم يكن إلا عدوا لهم ولم يكونوا يقبلون يديه ورجليه، ويتملقون بين يديه، ويطأطئون رؤوسهم إليه، وإنك إن تبعتهم وعملت بأقوالهم فإنه لا يبعد أن ينقلبوا عليك، ويعاملوك بمثل ذلك إذا غاب وجهك، ويجدوا أذنا صاغية لهم، ويكون ذلك سنة في الوزراء، لأن ابن إدريس مضى وفات، وفعلهم معه إنما هو لمكانته التي أنت الآن فيها، قال فتنبه من غفلته، واستيقظ من نومته، وأجابني بقوله الله يجازيك عني خيرا يا فلان فقد وعظمت، ونهت وما قصرت، قال فانكف من ذلك الوقت، ولم يعد لسماع شيء في جانب ابن إدريس.

وهكذا تكون الهمم، التي تعرف الحقوق وترعى الذمم، فرحم الله [109] أهلها* ورزقهم السعادة كلها، وظني بالوزير السيد أحمد رحمه الله أنه لو سمع مثل هذا الكلام البالغ في الموعظة مبلغه عند محاولته الفتك بأولاد الجامعي ما عاملهم بتلك المعاملة، لعلمي أنه رجل عاقل دين ذو دهاء ونظر في العواقب، ولكنه لم يجد إلا من حرصه وحمله على المكر بهم فعمل بمثل ذلك، والجزاء

من جنس العمل، نسأل الله أن يوفقنا لما فيه صلاحنا، وأن يسبل علينا رداء ستره الجميل، فإنه بذلك كفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل.

ثم عومل المنهبي بمثل ما عامل به الوزير السيد أحمد، وربما يبقى ذلك في سرب الوزراء ولا ينتهي عنده، وقد بلغنا أن المنهبي وقع فيه أمر عظيم، وهم عريض ملهم، على فراقه الوطن، وهجرانه العشيرة والعطن، وسمعنا أنه يؤمل من يشفع له عند السلطان في بقائه بطنجة والله اعلم، وانظر ما يفعل الله، وهل ييسر له ذلك أولاً.

وفي خلال هذه الأمور قام رجل من أهل فاس يسمى عبد القادر بن زاكور وقتل هو وأخوه أحمد شريفا علويا من أبناء عم السلطان، وقام أهل القتل وقعدوا لذلك، وطلبوا من السلطان قتل القاتلين وصمموا على ذلك وألحوا فيه وإلا فيأخذوا حقهم بأيديهم على أي وجه كان، فأسند السلطان القضية للعلماء وطال أمرها، وفي آخر الأمر حكموا بقتل القاتلين بعد ثبوت مواجب القتل، فقتل عبد القادر الأول منهما بباب المحروق من فاس يوم الاثنين السادس والعشرين من حجة الحرام ختام عام واحد وعشرين وثلاثمائة [110] وألف بمحضر الجرم* الغفير من الناس، وحضرنا نحن كذلك لقتله، وأما أخوه أحمد فسلم من القتل وسجن أيا ما قلائل ثم سرح، مع كون الحكم وقع عليهما بوصف الحراة ولا عفو فيها، وقد تعلق بهذه القضية أمور وغرائب ونكت أضربت عنها لأني لست بصددها.

وأما ما يرجع لجانب الدولة الشريفة وأهلها فإن هذه الحوادث التي نشأت على يد المنهبي أوهنتها وأضعفتها وأعقبتها الاقلال والتقتير، وظهر أثر ذلك على الجيوش والكتاب وأهل الدائرة وأحوالهم ورواتبهم، فنقصوها لهم وصار ما يقبضونه لا كفاية فيه، فسرى لهم الضياع الفادح، وخشعت نفوسهم، واضمحلت بهجتهم ونخوتهم، وهم إلى الآن كذلك، جبر الله الأحوال، وحكم على كل ظالم بذلك الباب الشريف بسرعة الزوال، وإصابته في نفسه وأهله وأولاده بكثرة الأرواح والأهوال، « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال».

وقد كنت التزمت سابقا عند ذكرى للكتاب في دولة مولانا الحسن رحمه الله بأني نعيد ذكرهم بأبسط مما هنالك ونتكلم عليهم وعلى أحوالهم، ثم ظهر لي الآن الرجوع عن ذلك، وجعل الكفاية فيما تقدم لأمر طويل شرحها، ومستبشع إبرازها ونشرها، والأمر بيد الله كيف شاء فعل.

وأما الرعية فإنها على قسمين قسم يسمى أهل الحوز، وقسم يسمى [111] أهل الغرب، أما أهل الحوز* فإنهم القبائل التي من الرباط إلى مراکش وسوس، وهم الشاوية وأعراب الرباط وزعير وتادلة ودكالة والسراغنة وزمران والرحامنة، وقبائل الدير وهي شتى وسوس وهو قطر كبير جدا، وعبدية وحير والشياطمة وأولاد أبي السباع ومجاط، ونغر الرباط والدار البيضاء وأزمور والجديدة وآسفي والصويرة وأكثدير وغير ذلك مما يطول تتبعه، وإما أهل الغرب فإنهم قبيلة بني حسن والشراردة وزمور وجروان وبنو مطير والحياينة وأعراب سايس وقبائل الغرب الأيسر وأهل الجبال والتسول وغياثة والبرانس وآيت يوسي وبنو وراين وقبائل فازاز، ومكناس وفاس وتطوان وطنجة وأصيلا والمعرّاش ومهدية ومدينة سلا ووجدة ونواحيها وتازا، وغير ذلك مما يطول بيانه كذلك.

وغالب أهل الغرب متمردون عن الأحكام، ومتمنعون عن الانقياد لأوامر الامام، بخلاف أهل الحوز فإن دأبهم الطاعة والانقياد للأحكام وللعمال وإعطاء الوظائف والقيام بالتكاليف على ما ينبغي، حسبما ذلك مشهور ومعروف عند الخاص والعام ولا ينكره إلا جاحد، والدليل على ما قلته هو أن أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف جد الملوك العلويين من هذه الدولة الشريفة كان قد تعب في دولته تعباً كبيراً مع [112] أهل الغرب لكثرة قيامهم عليه، وكان ذلك قد شغله* عن الالتفات إلى الحوز، فوجه إليه في أواخر عمره ولده الأنجب سيدي محمد ابن عبد الله الذي تولى من بعده السلطنة، والحالة أنه كان صغيراً وقتئذ، فتوجه وكفى أباه الهم هنالك، وفرحوا به وعزروه ونصروه، وعن مدة قليلة التأم شمل المملكة ثمّة وتوثقت عروتها، وصار أهل الحوز كمن له سلطان مستقل، وطار صيت سيدي محمد بن عبد الله كل مطار، في جميع تلك الأقطار، وكان يبلغ ذلك لآييه ولأهل جيشه فيحملهم ما يسمعون عنه على الرغبة فيه والميل إليه، و

يزل أمره في ازدياد واعتلاء، وصعود وارتقاء، إلى أن قام جيش عبيد البخاري على أبيه وبايعوه ووجهوا بالخبر إليه مع شزيمة منهم، فأنف من ذلك ولم يرضه وتبرأ منهم، وقال لهم إنما أنا عبد لأبي، ثم كساهم وأعطاهم كتابا منه بالشفاعة فيهم لأبيه ووجههم مكرمين، وبعد ذلك ظهر له أن يتوجه بنفسه إلى الغرب عند أبيه بقصد إصلاح ذات البين بينه وبين جيش عبيد البخاري، فجمع جموعا كثيرة من قبائل الحوز وصناديد رجاله وفرسانه وتوجه بهم إلى الغرب عند أبيه، ولما وصل إليه بدار الديبغ من فاس وسلم عليه، دعا له بالخير والرضى ولمن معه، وقال له إرجع بقومك في سلامة ليلا يبعديهم جرب هؤلاء، فانشئ راجعا من يومه ذاك، فهذا مما يدل على كون أهل الحوز أهون من أهل الغرب، وألين عريكة وأكثر انقيادا وطاعة للملوك، وليس الخبر [113] كالعيان، وحال * الحوز اليوم مضطرب من جهة الأحكام لما هو واقع به من سوء التدبير الذي لا يخفى، وركوب متن الطمع الذي تفسد معه أحوال الدنيا والدين وتعفى، ومع ذلك فهو أهون بكثير مما عليه أحوال أهل الغرب، فإنهم لا يبدلون للدولة نقيرا ولا قطميرا، ولا يعرفون مأمورا ولا أميرا، والطاعة غير معمول بها عندهم إلا في الادعاء، عدا مدنه وحواضره فإنها لا زالت على استقامتها، وسريان الأمن في ساحتها، وعدا الغرب الأيسر — أيضا — طولا وعرضا، وما سوى ذلك فإنما هو إسم بلا معنى، ولفظ بلا معنى، والكلام في تفاصيل ذلك وبيانه طويل جدا ولست بصدده، وعلى كل حال فالرعية — الآن — غير مستقيمة الأحوال، نطلب الله تعالى أن يزيل عنا وعننا الأهوال، ويسكن روعنا وروع المسلمين، ويؤمن سرينا وسرب المؤمنين، آمين آمين.

وحيث بلغ الحال بالمغرب إلى ما قلنا تعذر على الأجناس ترويج بضائع تجاراتهم به، واستخلاص مالهم من الديون على الرعية، وتكلموا مع الدولة وأعادوا في عمل ما تستقيم الأحوال به، وتعود إلى ما كانت عليه من الأمن أول دولة السلطان وسائر دولة والده قدسه الله، وأحرصهم في ذلك جنس الفرنضيص لجاورته لرعية السلطان من جهة الريف ووجدة وفجيج، وتخوفه من الفتنة الواقعة هنالك بسبب الفتان الثائر، وأبي عمامة الخاسر، لثلا يسري [114] ذلك إلى رعيته أهل الجزائر * وتلمسان، وطال الكلام بينهم وبين الدولة في هذا الموضوع، ولما لم يظهر لهم تأثير وتحققوا بأنهم إنما يضربون في حديد بارد،

تشاوروا فيما بينهم وسلموا الأمر في ذلك للفرنسيص لمجاورته للمغرب، ولكنه أحرص على تسكين البلاد، وتمهيد أمر العباد، فطار سرورا بذلك لعلمه أنها أكلة قدمت إليه، ومأدبة وضعت بين يديه، وقام لانتهاز الفرصة قبل فواتها، وإحياء الأرض بعد مواتها، ومال إلى المصانعة وتحسين الأخلاق، وأدى عن الدولة ديون سائر الأجناس على الإطلاق، ووعد وبشر، ووسع دائرة الوداد وملاها بالنصح وعمر، ثم وجه سفيرا من عنده لبث تلك المصالح والنصائح بحضرة السلطان، وإشاعتها في سائر الأماكن والأوطان، فورد على الحضرة بفاس في أوائل الحجة الحرام ختام عام اثنين وعشرين وثلاثمائة وألف، واستعد السلطان له الاستعداد التام، ونوه به واعتنى بأمره وأنزله بعرضة بنيس، ثم أحضره بين يديه وشافهه وكلمه، ودفع كتاب دولته وأعرب عن مقصوده ورجع لمحلّه.

ثم إن السلطان ألقى ذلك على أهل دولته، وكبراء دائرته، ووقعت المفاوضة والمشورة فيه معهم، ومع بعض من أعيان الرعية وجه عليهم السلطان من البلاد، ولم يزل الأمر يروج بينهم إلى أن أجاب كل بما عنده على حسب [115] اجتهاده، ودفعوا أجوبتهم مكتوبة لحضرة* السلطان لينظر فيها بنظره السديد، وعقله الموفق الرشيد.

ومعظم ما في تلك الأسئلة أنهم يطلبون من السلطان انشاء ما فيه الكفاية من العسكر، وتنظيمه على نحو تنظيم الأرباوين في هيئته وكسوته وسلاحه وجميع أموره، ليحصل التقوي به على الرعية ونفوذ الحكم عليها، وكفها عن مآلوفاتها وتهوراتها.

ويطلبون عمارة الحدود التي بين رعية السلطان وبين رعاياهم بالعسكر، ليحصل الانكفاف عن الثوران الذي يقع هنالك دائما من أعراب الصحراء وغيرهم، ويجري الأمن في تلك الأصقاع والسبل، وينقطع التشكي من كلا الجانبين ثمة.

ويطلبون — أيضا — تحصين أموال بيت مال المسلمين مما هو واقع فيها من النهب والخيانة، وإعمال النظر فيما ينمىها ويكثرها. وإجراء الأمن في سائر بلاد المغرب حاضرة وبادية.

وتخصين أملاك المخزن وأملاك الأحباس.

وتكليف الناس العقلاء أهل الجد والصدق والمروءة بوظائف الدنيا والدين، واجتناب أكلة الحرام والرشوة وأهل الظلم والفسوق وغمص الحقوق، إلى آخر كلامهم.

ولعمري إن هذه الأمور التي تكلمت فيها هذه الدولة وأشارت بها علينا لكلمة حق، لأنه لا سلطان إلا بجيش، ولا جيش إلا بمال، ولا مال إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعذل وأمن ودين متين وتعفف على أموال المسلمين، وذلك معنى أن الله يؤيد هذا الدين* بالرجل الفاجر، وكل ذلك مختل عندنا، [116] وضائع لدينا، ونحن في غفلة ساهون، وعما يراد بنا لاهون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحيث يظهر مآل هذه القضية الهائلة التي لم يتقدم مثلها نتعرض لذلك، ونذكره في هذا المكتوب إن شاء الله تتيماً للفائدة.

ولنرجع للكلام في أحوال الرعية فنقول وفي هذه الأيام وهي أوائل الحرم فاتح عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، أمر السلطان أهل الخوز بأن يعطوا مال الترتيب المتخذ في ذمتهم من عام تسعة عشر المتقدم، وهياً محلة بعضها من الخوز وبعضها من العسكر الذي بحضرته، وكبر على الجميع أخاه مولاي العباس، وأمره بالخروج بهم من مراكش والمرور على قبائل الخوز، والرباط عليهم ليدفعوا الترتيب الذي ماطلوا فيه وتلكثوا في دفعه، فامتل، وقد بلغنا أنه افتتح عمله بالرباط على الخوالقة من قبيلة حمير، وأنه قاتلهم وفتك بهم وبددهم، ثم بلغنا خلاف ذلك، والله اعلم أي ذلك كان، ولا زال رابطاً هنالك، ولم يتحقق لنا السبب في تطويله المقام بذلك المحل، هل لتعصب الخوالقة كما يذكرون أو لغير ذلك، على أن الخوالقة جزء قليل بالنسبة لقبيلة حمير، وقبيلة حمير جزء قليل أيضاً، بالنسبة لقبائل عبدة ودكالة والشاوية [117] والشياطمة وغيرها، وأي نسبة بين الخوالقة والمحلة التي عندها العدد والعدد*، والسلاح الزخار والمدد، فكيف تصدها الخوالقة عن المرور بأرضهم، والجولان في القبائل الطنانية التي من بعدهم، فإن كان ذلك حقاً فهو أمر دبر بليل، وشأن طويل القول والدليل، وسيتضح الحال، وينكشف هذا الأمر الذي كثر فيه القيل والقال، ثم وقع الاقتراح على السلطان من بعض أعيان عمال الدير

بمراكش بتوجيه محلة للرباط بمحل في وسطهم يسمى القيهر، وفي القديم كان يسمى القاهرة، وهي مدينة بناها بسفح جبل سكساوة وزير السلطان أبي عنان المريني، للحصار على صاحب ذلك الجبل وقتئذ.

فعين عمه مولاي عرفة ووجهه لذلك، ولا زال خبر وصوله لم يرد علينا الآن، والدير كناية عن قبائل الجبال بتلك الناحية، وهم قبائل حاحا وأمتوكة وأمزوضة وأمزميز وأجرجور ودمنات وهنتيفة ومسفيوة وغياغة وجلالة وسكساوة ودويران ومغوسة وتكانة وسجانة ودمسيرة ونفيفة وغير ذلك مما يطول جلبه، وذلك بقصد أخذ مال الترتيب منهم، وبقصد شيء آخر زعموا فيه صلاح تلك الناحية وليس الأمر كذلك.

وقبل هذا توجهت محلة وكبيرها الباشا عبد الكريم ولد أبا محمد الشرقي لتدوين قبائل الجبال بناحية سواحل طنجة والعرائش وتربيتها، وإصلاح ما انثلم من الأحوال بها، وتسريح سبلها الممنوعة السلوك بسبب ثوران الريسوني فيها، وهذه مدة كبيرة وهو رابط هنالك بناوحي القصر الكبير، ولم يظهر عمل ولا تأثير له، وانظر السبب الذي ثبطه واقفه عن الشروع في [118] محاولة ما توجه* لأجله، وها أنت ترى ما عليه الرعية في البوادي من التثاقل والتمارض وتربصها بالدولة الدوائر.

ومهما بقي الأمر على هذا الحال فإنه لا ترجى استقامة بالمغرب ولا هناء، لأن قبائل المغرب جافية الطباع في الغالب، ومن لم يكن ذا شدة وقهري فلا يطمع في الحكم عليهم قولاً واحداً، ويدل لهذا قضية أمير المؤمنين المنصور الذهبي السعدي مع شيخه واسمه ضل عني، وليقف عليه من أراذه في الاستقصا أو في نزهة الحادي، قالوا إن بعض العلماء من فاس كانوا يقدمون على المنصور كل عام بمراكش بقصد قراءة الحديث الشريف في أشهر معلومات، فتوجهوا مرة وكان فيهم شيخ المنصور، فمروا في طريقهم على عدد من المساجين رجالاً ونساء وعلى الجميع السلاسل والأغلال، والنساء مختلطات بالرجال، فكانت فيهم امرأة حامل وأخذها الطلق ووضعت بمراً من الرجال ومسمع، والسلسلة في عنقها، فعابن الشيخ ذلك واستنكره وعزم على لإنهائه للمنصور، ولما وصلوا تكلم مع المنصور في القضية وعظم له مسألته وأدى ما عنده فيها، فأعرض عنه المنصور وسكت ولم يجبه وتبينت

[119] الكراهية في وجهه، فخبجل الشيخ وعجب من ذلك وندم على ما فعل*، وتمادى المنصور على الأعراض عنه مدة، إلى أن أحس بحصول قلق كبير له وقنوط، فكلمه يوما وقال هل يا شيخ إن أهل المغرب مجانين لا عقول لهم، ولولا ما رأيت ما تهبأ لك الركوب على بغلتك والخروج من فاس ووصولك إلى مراكش في سلامة، ولم يتعرض لك أحد في طريقك بسوء، فأجابه الشيخ بأن الصواب معه، وأنه لم يفهم المقصود، في كلام هذا معناه، ثم اعتذر عما صدر وقبل عنزه، وقابله بما رد عليه نافر أنسه وأبقاه على مكانته عنده.

وهذا مما يدل على أن أحوال أهل المغرب لا تستقيم إلا بمجاوزة الحد في الأحكام، ومزج اللين بالشدّة، ولا سيما أهل البوادي، الذين أمرهم مشهور ومعلوم في كل النوادي، والسياسة اليوم على خلاف هذا المنوال، ولذلك لم تنضبط الأمور ولم تستقر على حال، ويدل لما قلناه أيضا ما قاله المعز بن باديس أو غيره من فريقه سلطان المغرب في وقته لمن خلفه نائبا عنه في السلطنة على المغرب لما عزم هو على التوجه لمصر للجلوس على سرير سلطنته [120] به، وذلك أنهم قالوا إن المعز كان سلطانا* على المازب وسمت همته إلى الحكم على مصر وأقطارها، فوجه نائبه القائد جوهر لفتحها، وتمهيد قطرها، ويسر الله المراد، وأطاعه في تلك البلاد سائر العباد، فأعلمه القائد جوهر بذلك واستدعاه للقدوم عليه لطلب الناس إياه فأخذ في الاستعداد، وتوجه موفر الجيوش والإمداد، بعد أن أوصى نائبه الذي أقام على سلطنة المغرب بأمور تتعلق بأحوال السياسة وإصلاح الرعية، ثم اختصر ذلك في ثلاث كلمات، فقال له إذا نسيت ما قلت لك فلا تنس ثلاثة أمور، أولها لا ترفع العطاء عن أهل البادية لتشغلهم به عن التفرغ للفساد، الثاني استوص خيرا بأهل الحاضرة، الثالث لا تول أحدا من قرابتك شيئا من الولايات، فإنهم يرون أنهم أحق منك بها، ثم ودعه وانصرف، هذا ما تعلق ببالي في هذه القضية فقد طال عهدي بها، وكنت رأيتها في ابن خلكان فلينظرها به من أراد تحريرها، والشاهد في إشغال الرعية بما يصدها عن التفرغ لمرادها، وأين الحال من الحال، وليكن هذا آخر هذا الباب، الذي ملأ من أحوال الوقت المزادة والوطاب⁽³³⁾ ولنتكلم عن الجزائر فنقول: وعلى الله توكلت وبه على المقاصد أصول

(33) الوطب : سقاء اللبن، وهو جلد الجذع فما فوقه. الجمع أو طب ووطاب وأوطاب، «ق».

*الباب الرابع

في أخبار الجزائر والسبب في وصولنا لها،
وما فيها من البهجة والرونق وكل ما يشتهي،

قد قدمنا أن الدولة الفرنسية لما حدث بالمغرب ما حدث أقضى نظرها وصول كبيرها المسمى بابر يزيدان لقطر الجزائر وتونس لاختيار الأحوال هنالك، وأن السلطان وجه وفدا من قبله لملاقات ابريزيدان بالجزائر، حيث الجزائر مجاورة للمغرب، فعين لذلك أمينه الابراجل السيد بناصر غنام الرباطي، وعينني معه، وقد قيدت تقييدا فيما وقت عليه من أحوال الجزائر، وابتدأت من اليوم الذي خرجت فيه من فاس، وأتيت به في هذا المختصر ليلا يتلف ⁽¹⁾ ويضيع، راجيا التماس العذر ممن يقف عليه ويراه، ونصه

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،
الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين،
وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد فأقول وأنا العبيد الحقير، وأسير ذنبه الفقير، المعترف بالعجز والتقصير، والضعيف الفاني، الحسن بن الطيب بن اليماني، المعروف ببوعشرين، كان الله تعالى له ولوالديه في كلا الدارين، بمنه وكرمه أمين فإنه لما قدر الله عز وجل في سابق أزله وصولي لبلاد الجزائر من المغرب الأوسط، وجهني إليها أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد العزيز نصره الله نصرا مبينا، وفتح ^[122] له فتحا عزيزا مكينا، بواسطة وزيره الأجل*، الوجيه الأديب الأفضل، الفقيه اللبيب الأمثل، نادرة الزمان، ووحيد العصر والأوان، سيدي عبد الكريم ابن سليمان، كان الله له فيما يكون وما كان، مع خديمه الأجل، الوجيه اللبيب

(1) تلف من باب فرح

الأحفلى، الأمين الأود الأنبل، السيد بناصر غنام الرباطي حفظه الله، المعين للسفارة لذلك الوطن نيابة عن جلالته الشريفة، ذات الظلال الوريقة، بقصد ملاقة ابريزيدان كبير كبراء الدولة الفرنسية العظيمة، وتهنته على وصوله للجزائر بسلامة وعافية، أداء لحقوق المجاورة التي حض الشرع على المحافظة عليها، والقاء زمام المواصله إليها، فامتثلت أمره العالى، بعد أن لم يكن ذلك يخطر ببالي، علما بما عليه حالي.

ولما عزمت على النهوض من فاس تعلق ببالي، أن أقيد ما لا بد منه باختصار مما نعانى في هذه الوجهة المباركة ترويحاً لنفسي، ولمن لم يشاهد ما نشاهده من أبناء جنسي، وكنت أقدم رجلاً وأزخر أخرى في الاقدام على هذا الخطر الذي هو من شأن فحول الرجال، الذين لا تعترهم في ميدان البلاغة الأوجال، ولا يتعسر عليهم البيان بحال، ولما رأيتهم يقولون ما لا يمكن كله لا يترك كله اقحمت نفسي لنيل هذا الغرض، وقمت ببعض ماله من الحق المفترض، اقتداء بمن سلف من الأعلام، الراجحين الأحلام، الذين سنوا تخليد الأخبار، وتسطير الآثار، ليعتبر المعترفون، ويتفكروا في مصنوعات الله [123] ومخلوقاته* وما بينها عند تنازع الأبدان وتباعد الأقطار من البون.

ولنشرع الآن في المقصود، متوكلاً على الواحد الأحد المعبود، ومستعينا به على كل معترض بغض حسود خرجت من فاس، العاطرة الأنفاس، صانها الله من كل مكروه وبأس، وقت الضحى في الساعة العاشرة من يوم الأربعاء الثاني من محرم الحرام، وهو اليوم الثالث منه عند أهل الجزائر، عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، وبتنا بنزلة وادي مكس، وفي اليوم الثاني بتنا بوادي سبو أمام الحجر الواقف، وفي اليوم الثالث بتنا بالشماخة كتفاحة، وفي اليوم الرابع بتنا بظاهر القصر الكبير، وفي اليوم الخامس بتنا بمحل يسمى إبن الريان، وفي اليوم السادس — يوم الاثنين — وصلنا لغر طنجة، حاطه الله وصانه من صروف الزمان، وطوارق الحدثان، فتلاقيت مع الأمين المذكور رعاه الله، ودفعت له المكاتيب الشريفة التي وجهت له معي، وناجيته بما حملته من شريف الحضرة، ثم تلاقينا بعد ذلك بنائب الدولة على العادة المعهودة، والطريقة التي هي بعين الاعتبار مشهودة.

وفي اليوم الأحد الثالث عشر من الشهر ركبنا البحر بعد العصر في
فركاطة لجانب الدولة الفرنصوية على رأس الساعة الخامسة، وهذا اليوم هو
[124] الثاني عشر من شهر أبريل العجمي بالحساب المسيحي*، والثلاثون من
مارس بحساب الروم وهو الذي عليه المسلمون، وقد قابلنا رئيس الفركاطة ببشر
كبير، وفرح كثير، واعتناء جليل أثير، وبقي المركب راسيا إلى نصف الساعة
الثامنة بعد العشاء وأقلع يخرق البحار، ويشق ماءها البعيد الأغوار، الفسيح
المضمار، المتقلب الأطور، المتلاطم الأمواج آناء الليل وأطراف النهار، وسار
الليل كله والنهار كله وليلة الثلاثاء كلها سير السوابق، لم يفته سابق ولم
يلحقه لاحق.

وفي صبيحة الثلاثاء الخامس عشر من الشهر عند الشروق أرسى بنا في
مرسى الجزائر، فظهرت لنا المدينة في حسنها وبهجتها كالعروس تجلت من
خدرها، وقعدت على منصتها، وعائنا بالمرسى من المراكب الحربية والتجارية
لجانب الدولة ولغيرها من الدول ما قضينا منه العجب كثرة وإتقاناً، وحسناً
لا يحتاج برهاناً، وكل هذه المراكب الحربية إنما جاءت لملاقات ابريزيدان ممن
جاور الجزائر من الدول، والسلام عليه وتهنئته على الوصول لذلك القطر، إذ لم
يكن رآه قبل على ما قيل، وغالبها وصل وقت وصولنا، وبزغت شمسها عند
بزوغ شمسنا، وقد أخرج كل مركب منها واحداً وعشرين عمارة بالمدافع
الكبار، بقصد السلام على البلد على عادتهم في ذلك، وأجابهم أهل البلد من
[125] الأبراج بمثل ما سلموا* به، ثم سلمت المراكب على بعضها بعضاً بخمسة
عشر مدفعاً لكل مركب، فكان عندهم ذلك اليوم يوماً مشهوداً، ومن المواسم
الكبار معلوداً.

وبمجرد وصولنا جاء قائد المرسى للسلام على رئيس المركب وعلينا،
فطلع إلينا ببشر مديد، وخضوع ما عليه من مزيد، ثم ذهب وجاء بعده
قبطان من نائب حاكم البلد، لأن الحاكم استعفى وتأخر، فسلم علينا كذلك
وفرّح بنا وأنزلنا من البحر، فوجدنا بالمرسى الفرسان بحيوهم واقفين لانتظارنا،
ومتأهبين لاستصحابنا، وتقدمت منهم فرقة أماننا، وفرقة خلفنا، فذهبوا معنا
ونحن راكبون في عربية أي كروسة تجرها الخيول إلى أن وصلنا المحل المعد
لنزلنا، فألفينا فيه من الفرش والأثاث ما فيه غنية.

وفي عشية ذلك اليوم بعد العصر بقليل جاءنا القبطان المذكور بتلك الكروضة، وذهب معنا لدار النائب المذكور بقصد السلام عليه، فتلقانا بالترحيب والتبجيل، والكلام الطيب الجميل، وسألنا عن أحوالنا وعما قاسيناه من أهوال البحر وارتجاجه، واضطراب مائه وتكالب أمواجه، ثم اعتذر عما عسى أن يكون من التقصير في حقنا، من جهة محل نزولنا، قال لأن قدومنا كان تعين أولا لوهران، فظهر لكبراء الدولة أن يكون للجزائر جمعا مع السفراء وأمروه به على بغته، فجازيناه بما يناسب المقام ثم رجعنا لمحلنا، وفي الغد الذي [126] هو يوم الأربعاء السادس عشر* من الشهر جاء النائب المذكور إلينا في محل نزولنا، فسلم علينا وأعاد ذلك الاعتذار، وذلك قبل الزوال.

وعند الظهر من ذلك اليوم وصل ابريزيدان في مراكب عديدة، ووجد المراكب التي جاءت من الأجناس بقصده على غاية الاحتفال، والأمور ذوات البال، وأخرج من البارود منها ومن الأبراج شيء كثير اصطكت منه الأذان وارتجت الجبال، وزينت المدينة وما حولها بفراسخ كثيرة من المداشر والقرى وسكان تلك الرمال، فنزل داخل المدينة بمحل يسمى قصر الشتاء كان للملوك الأتراك بتلك البلاد، وذهب للسلام عليه جميع السفراء وأعيان البلد من كل ناد، وبعد العصر جاءنا القبطان بالكروضة وذهب بنا للسلام على ابريزيدان كذلك، فتلاقينا معه وقفا وهو واقف أيضا قد أزال قلنسوته عن رأسه ومعه بعض وزرائه وكبراء دولته، وهش وبش لنا وأخبرنا أنه فرح مسرور بسفارة مولانا عبد العزيز، وأنه تحقق بها محبته، وحاز كتاب السلطان بيده وجاز أخيرا عليه، ثم خرجنا من عنده ورجعنا لمحلنا.

وبعد المغرب من ذلك اليوم جاء القبطان واستدعانا لوليمة جعلها ابريزيدان للسفراء والأعيان من عنده وهم نحو المائة والثمانين، فذهبنا إليها وحضر فيها ابريزيدان بنفسه، وكان فيها احتفال عظيم، وضوء كثير عظيم، لا يكاد يحصى أو يعد ويستقصى على نسق غريب، وشكل عجيب، ولما أخذ [127] الناس مراكزهم وجلسوا وهم لابسون من الملابس صنوفا*، ومن الذهب الابريز ألؤفا، جاءت الأطعمة الكثيرة في أطباق جليلة، بديعة جميلة، وحضر من أنواع الحلواء والفواكه ما لم يكن بالبال، وكل الأواني جديدة على أحسن منوال،

وحيث تم الطعام وانقضى، وذهب جزء معتبر من الليل ومضى، وقف ابريزيدان على قدميه وخطب بنفسه خطبة عجمية اسمعها جميع الحاضرين، وقد ترجمها لنا بعضهم باختصار، بأنه حمد الله تعالى على ما خولهم من الملك وأعطاهم من الحكم على قطر الجزائر بعد أن كان لغيرهم، وذكرهم نعم الله عليهم في امتداد الأمن بأقطاره، واتساع دائرة أنصاره، وما صاروا فيه من الثروة العظيمة، والتجارة الكثيرة العميمة، وعمارة البلاد، وتيسير الأسباب في كل ناد، إلى غير ذلك من هذا المعنى، وبعد فراغه منها أخذوا يهنونه على ذلك ويهني بعضهم بعضاً، ثم انفض المجلس ورفعت تلك الموائد والأواني، الرائقة المعاني والمباني، وأذن بخاصة الناس وعامتهم في الدخول للقصر وهو محل هذه الضيافة ويسمى قصر الصيف، وهو غير قصر الشتاء المتقدم الذكر، كان أيضاً للملك الترك، وهو قصر كبير حسن الشارة، فسيح الدارة، عظيم الشان، واضح البرهان، دل على ضخامة بانيه، ورفعة شأنه، فدخل الناس إليه أفواجا، فرادى وأزواجا، نساء ورجالا، شيوخا وكهولا وأطفالا، وأخذوا يتفرجون في تلك الأماكن [128] العديدة، والمباني* الفاخرة الفريدة، ويتفحسون في أرجائها، ويطوفون في أنحائها، ويتفكرون في قطانها الأولين راحياتها، الذين كانوا لا ييغون بها بدلا، ولا يتوقعون فيها سامة ولا مللا، ثم اجتمعوا بمحل الضيافة لاتساعه، وأخذوا المأخذ الكبير في انفساحه وارتفاعه، وصاروا يلعبون اللعب المسمى عندهم بالبايلي بتفخيم الباء وهو رقص يكون للرجال مع النساء، فكل رجل يرقص مع امرأة سواء كانت من ذوي رحمه كبنته وأخته أو أجنبية عنه، وسواء كانت متزوجة أو لا، وسواء كان زوجها حاضرا يرى أو غائبا، ويده قابضة على يدها واليد الأخرى حائز لها بها من خصرها، وحومة الرقص متسعة جدا، كان بها عدد كثير يرقصون في آن واحد، وغالب الناس جالسون على الشلايا يتفرجون، وكثير من النساء مكشوفات الصدور، والظهور والذراعين والشعور، وهن لابسات أفخم اللباس وأحسنه وأنقاه، ولما علمنا ذلك وعايناه، ولم يكن تقدم لنا العلم به ولا عرفناه، خرجنا بعد مشقة من الازدحام، وتراكم الأنام، وذهبنا لمحلنا، وأخبرونا أنهم قطعوا الليل كله في ذلك، وكلما ذهبت طائفة أتت طوائف بحيث لم ينقطع الوارد عليهم.

وفي الصباح وهو يوم الخميس السابع عشر من الشهر جاءنا القبطان [129] بالكروسة يدعونا على لسان ابريزيدان للحضور في عرض *العسكر بمحل يسمى الميدان يسع آلاف كثيرة من الناس، فذهبنا وألفينا الميدان غاصا بخاصة الناس وعامتهم، وجلسنا على الشلايا مع الخواص في محل مرتفع، وكان من العسكر شيء كثير، دل على حزم كبير، واعتناء شهير، وكل عسكري حامل على عاتقه جميع وطره، وكل ما يحتاجه في حضره وسفره، حتى الخزائن وركائزها، وقصعها وأوتادها، بحيث لو أمر بالسفر في ذلك الوقت ما تعلل، ولا اعتذر بعذر ولا تنهل، وكل ذلك باختصار، لا يثقله حمله الليل والنهار، وبعد وصولنا بقليل جاء ابريزيدان في كروسته تجرها أربعة من الخيول مع بعض وزرائه، وطاف وهو بها على جميع تلك العساكر للسلام عليهم، والاعتناء والتنويه بهم، ثم جاء للمحل المعد له فنزل من الكروسة ووجد نحو الخمسة عشر رجلا من كبراء العسكر واقفين له في صف واحد فوقف لهم، ثم أعطاهم النياشين واحد بعد واحد وعلقها عليهم بيده، وكل من علق عليه نيشانه يقبله في وجهه يمينا وشمالا كأنه يبارك له النيشان، وكذلك صاحب النيشان يقبل ابريزيدان في وجهه قبلتين في اليمين وفي الشمال، ولما فرغ طلع محله وجلس على شليته غير منعزل عن الناس، وأخذ العسكر يمر أمامه على ترتيب عجيب، وأسلوب غريب، ومرت المدافع وآلات الحرب والمهندسون [130] والبحريون، وغير وغير، وحضر في ذلك الجمع أيضا عمال البادية * من المسلمين في زي فخيم، ولباس رفيع محفوف بالذهب الكثير، وخيل مسومة وسروج منعمة، ولما تم العرض نهض ابريزيدان وركب كروسته، وجازى كبير العسكر — ويسمونه الجلنار — على اعتنائه وحزمه وضبطه ونصحه، ثم ذهب لمحله وتفرق ذلك الجمع الهام وذهبنا لمحلتنا.

وبعد المغرب من ذلك اليوم دعانا أعيان البلد للحضور في وليمة جعلوها لابريزيدان وللأعيان بمدرسة فسيحة بالبلد، فذهبنا إليها والقبطان معنا وكذلك الترجمان، وهو رجل لبيب أديب يعرف اللسان العربي معرفة متقنة، وله خبر بلغة العرب، وإطلاع على تواريخ المسلمين وملوكهم وعوائدهم ومألفاتهم، ونفع وحمدت سيرته، وحضرنا معهم في الوليمة، وحضرها ابريزيدان وغيره من سفراء الدول ووزرائه، وكان فيها أزيد من الخمسمائة نفس من الأعيان، وقرب الفراغ

منها خطب رجل أمير عندهم وهو واقف عن يمين ابريزيدان خطبتين عجميتين طويلتين أثنى خيرا فيهما على ابريزيدان وذكر ما تعلق له الغرض به من الكلام، ثم جلس وقام ابريزيدان وخطب خطبة طويلة أيضا عجمية، ثم تفرقا وسافر ابريزيدان في ذلك الوقت ليلا لوهرا في بابور البر مع وزرائه، ومنه لتلمسان ولمواضع أخرى، إلى تونس ونواحيها، ثم يرجع لباريز محل مملكته [131] ومقر سلطنته*.

وفي يوم الجمعة الثامن عشر من الشهر صلينا صلاة الجمعة بالمسجد الجامع الكبير، وحضرنا الخطبة والأذان ورواية حديث الانصات، فيؤذنون أولا أذانا واحدا. ثم يروون الحديث فيقولون فيه — روى إمامنا مالك عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قلت لصاحبك انصت والامام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت، وفي طريق آخر، ومن مس الحصا فقد لغا، ومن لغا فلا جمعة له، أنصتوا رحمكم الله، ثم يقوم الخطيب للخطبة الأولى ثم الثانية ثم ينزل فيصلي، ويقول في محل الدعاء للامام اللهم أيد من أيد هذا الدين، وارفح درجته في عليين، وبعد الصلاة مشينا لزيارة ضريح الولي الصالح سيدي عبد الرحمن الثعالبي رضي الله عنه، ثم رجعنا ودخلنا للجامع الجديد وهو للحنفية، ورأينا فيه من البهجة والرونق ما يروق الناظرين، وعابنا النصارى يدخلون للمساجد رجالا ونساء لكن بأدب ووقار، ثم رجعنا لمحلنا.

وفي يوم السبت التاسع عشر من الشهر مشينا صباحا للفرجة خارج البلد، فرأينا من المباني والأجنحة ما يفوق الحصر ويستغرق العد، وفي عشيته ذهبنا لمحل آخر خارج البلد أيضا، وشاهدنا من ذلك شيئا كثيرا إلى أن وصلنا بير الخادم، ثم رجعنا مع المغرب لمحلنا*.

وفي يوم الأحد يليه ذهبنا للفرجة في المدينة، فعابنا من الأبنية الرائقة، والحوانيت البهجة الفائقة، مالا يكاد يخطر بالبال، وعلى كل حال فمدينة الجزائر على اتساعها وكثرة أرضها ما فيها قيد شبر فارغ من العمارة، ولا في خارجها قيد شبر أيضا غير مشغول بالحرق والغرس والبناء الحسن المنظر والشارة، وغايته فإنما هي جنة الدنيا ونزهة الأبصار.

وأما الطرق على كثرتها وامتداد فروعها في داخل البلد وخارجها إلى حيث انتهت، فكلها مستوية نقية ومتسعة جلية مفروشة بالحجر المنحوت والمصنوع على هيئة الياجور في الانبساط والكيفية، وكل عمالة الجزائر كيفما امتدت واتسعت على ذلك المنوال كثيرة الأشجار ممتدة الظلال.

وفي يوم الاثنين الواحد والعشرين من المحرم المذكور ذهبنا — قبل العصر — لمحّل الرصد خارج البلد، وهو محل أنيق، ومنظر بهي شريق، وبناء حفيل، ورونق جليل، فيه من الآلات العجيبة التي يرصدون بها الشمس والقمر والنجوم ليلا ونهارا مالا يمكن وصفه ولا يتأتى نعته إلا بالعيان، والمقابلون لذلك والمباشرّون له هم أناس يقال لهم الفلكيون والمنجمون، وفرحوا بنا واستبشروا بمقدمنا وهشوا وبشوا لرؤيتنا، وطاقوا معنا على تلك الأماكن وأطلعونا على ما فيها، وسألونا هل بفاس من يتعاطى هذا العلم ويعتني به، فأجبناهم بأنه لا تخلو مدينة فاس ممن يعلمه إلا أنه غير* مشهور، وبعد أن تفرجنا في ذلك واستوعبناه ورجعنا لمحلنا، وما وصلناه إلا بعد المغرب بكثير بعد ذلك المحل عن المدينة، مع كون الطريق الموصلة له كلها في الجبال والرى.

لان الجزائر كلها أو غالبها جبال شواحق كمدينة فاس أو أكثر، ومع ذلك فجميع طرقها سهلة واسعة، تمر فيها الكراييص الكثيرة من غير تعب ولا مشقة، وتجري فيها جري السوابق إلى أن تصل قنة الجبل في أسرع ما يكون، وكل جبالها ووادها مشغول بالحرث والغرس والبناء وتكاثف الظلال عن اليمين وعن الشمال، وقد قال لي بعضهم بعد أن سألته إن هذه العمارة متصلة وممتدة إلى المدن البعيدة من الجزائر كوهان وتلمسان ونحوهما، ومسافة ما بين وهران والجزائر ببابور البر نحو إثنتي عشرة ساعة، وهي خمسة عشر يوما بتقريب، إلا المواضع السبخة والصلبة ذات الحجر الصلد فتبقى لرعي البهائم.

وفي صبيحة يوم الثلاثاء الثاني والعشرين من الشهر بعد الشروق بقليل، توجهنا للمحجر وهو المحل الذي تكون به كرتيلة الحجاج، بينه وبين المدينة للراكب في الكروضة ثلاث سوايح، ولراكب البيمة ست سوايح، ولما وصلنا وطفنا بها ألفيناه نحلا حفيلا، وبناء متعددًا بهيا جميلا، وفيها نبات

وأزهار، وأشجار أنيقة وثمار، وهو على شاطئ البحر تضرب الأمواج على طرف
 أرضه، ووقفنا فيه على * مقبوة للحجاج فيها نحو الأربعين من قبورهم، فترحمنا
 عليهم وقرأنا بآزائهم ما تيسر من القرآن، ثم دخلنا لمحل نقى ظريف فأكلنا فيه
 وشربنا، وفرح بنا القيمون بالحجر واعتنوا بنا، وطافوا معنا على أماكنه وقابلونا
 بالجميل، وكان معنا والآخذ بيدنا فيه الطبيب المكلف به، وهو المكلف —
 أيضا — بمحجر طنجة والصويرة، وهو رجل عاقل ثابت ذو أناة وتؤدة، ثم
 رجعنا لمحلنا عشية النهار.

ورأينا في الطريق من عجائب الأبنية وغرائب الغروس ما يستوقف
 الطرف ويفوت الحصر، وقد قال لنا بعضهم إن السبب في عمارة كل البلاد
 هو أن كل من عمر أرضا وغرسها، والتزم العمل فيها عشر سنين وظهرت
 نجاته وكفايته، يعطيها له صاحب الأمر، ويملكه إياها تمليكاً أبدياً سرمدياً فيبيع
 فيها ويشترى وتورث عنه، فتسارع الناس لذلك، وبذلوا فيه وسعهم ومقدورهم
 وتنافسوا، إلى أن صارت الأرض جنة واحدة ما فيها موضع قدم فارغ. وفي
 هذه البلاد شيء كثير من الكراييص المنوعة السير، فمنها ما تجره الخيل، ومنها
 ما يمشي بالكهرباء في طريق من الحديد، مثل بابور البر يحمل الخمسين من
 الناس وأكثر بالنسبة لما يجره من ورائه من الكراييص، وهو أسرع مما تجره
 الخيل بكثير، ومنها نوع * يمشي بالكهرباء، وزيت الكاز في غير طريق الحديد،
 [135] وعندي أنه أسرع من الذي قبله يحمل نحو الخمسة أناس، ويسمى عند
 المشاركة السيارة، ومنها نوع يركبه واحد فقط له جرارتان واحدة من أمام
 والأخرى من وراء، يمشي بتحريك رجلي الراكب أسرع من طرفة العين،
 ويسمى الدراجة، ومن لا معرفة له بتمشيته لا يقدر على ركوبه، وعندي أنه لا
 يركبه إلا الأحداث، وليس من المروءة أن يركبه غيرهم، ولولا هذه الكراييص ما
 قدر أحد على استيعاب تلك البلاد إلا في الأيام الطويلة لكبرها واتساعها،
 وغالب الناس أو كلهم يركبونها في حوائجهم وضروريات معاشهم، فلا ترى
 راجلا في الطريق إلا في النادر أو في الأسواق، بل كل من هو مستور الحال لا
 يليق به أن يمشي إلا فيها، وربما يعاب عليه المشي على رجله، ومن وراء هذه
 الأمور عجائب وغرائب لا يفي بها القرطاس.

ومن جملة الضبط الذي عندهم في البلاد أن السعر من جهة
المأكولات مستقر، لا يزيد ولا ينقص هذه مدة تزيد على السبع سنين، لأن
القائمين بها أعطوا خطوط أيديهم بعدم العجز عنها لمدة معلومة، فالناس
مستريحون من نكد فقدان، وهم طوارق الحدثان، وحيث تتم مدتهم تجعل
معهم مدة أخرى أو يبدلون* بغيرهم، والأشياء موجودة في الأسواق بكثرة
من غير ازدحام ولا لغط، واللحم موجود في كل الأوقات على كثرة ما بالمدينة
من الخلق، والادام والخضر والفواكه كذلك على اختلاف أنواعها وتباين
أجناسها.

ومن ضبطهم وحزمهم أن تحريب العسكر يكون دائما في قدر معلوم
من النهار، وقد رأينا بعضه في الميدان المتقدم الذكر، ورأيناهم ينصبون أعوادا
طولا على هيئة صواري المراكب مركوزة في الأرض، فيأتي الفارس جريا على
فرسه وسيفه مسلول في يده، فيضرب به ذلك الصاري ويمر كالبرق الخاطف،
ولهم كفيات متعددة في المطارة والمساورة تدريبا على أمور الحرب والطمع
والضرب، ولا شغل للعسكر إلا ذاك لأنه كفى هم المعاش.

ومن جملة حزمهم واعتنائهم أنهم يقرأون كلهم ويكتبون رجالا ونساء
وأطفالا، وقد رأيت المرأة بالخانوت مع زوجها تكتب له وتقرأ وتفيد المبيعات
والأثمان، قد كفته لهم في ذلك، وزوجها إنما يبين لها الأسوام، على أنها عالمة
بها، ولكنها من أدبها معه وحسن عشرتها أن لا تستبد عليه، وكلهم على ذلك
المتوال.

ومن جملة ما عايناه من الأماكن النفيسة، والمواضع المعتبة الرئيسة،
جنان لجانب الدولة يسمى الحامة بوزن الطامة*، وهو مباح الدخول والفرجة
لكل الناس، على شرط عدم مس شيء منه باليد، وقد دخلناه فالفيناها جميل
الشكل، ظريف المنزع، بهي المنظر، واسع الفناء، حسن الترتيب، نقي
الساحة، وفيه من أنواع الأشجار وغرائب الثمار والنخيل العظيم المقدار
والأشكال العجيبة من الأزهار ما لا يحصى، وفيه نخل لا يخلق على ساقه أقل
من ثلاثة رجال أو أربعة، لغلظهم الخارج عن حد المعتاد، وفيه القصب
الهندي على غاية ما يكون من الغلظ والخشونة، وفيه أنواع كثيرة جدا من

النبات لا نعرفها ولم نكن قبل رأيها، وكل ذلك يأتون به من جميع أقطار الدنيا، كالهند والصين والمركان واصبانيا وغيرها مما يطول ذكره، فيغرسونه في هذا الجنان بالخصوص بقصد الاختبار هل ينجح بهذا القطر أولا، والنوع الذي رأوا نجاحه يبالغون في تكثيره حتى يصير معروفا عند الخاص والعام، وتدخل منه أموال عريضة تفضل عن صائره الطويل الذيل مما يباع منه للناس من الغرس، كانوا من أهل الوطن أو من غيرهم ممن يريد توجيهه لقطر آخر، ورأينا فيه النعام ولم نكن قد رأيته قبل، وهو طويل العنق كالجمل، كبير الجثة، [138] مليح المنظر، ورأينا الطير المسمى الطاووس متعددة*، وهو طير يأخذ بمجامع القلوب في حسنه وتزيينه ونصاعة ألوانه وكثرتها، فتبارك الله أحسن الخالقين.

ومن جملة ضبطهم أن المدينة فيها آلاف من الخلق يستغرب سماعها، ومع ذلك فلا يسمع في الأسواق صياح ولا صخب، ولا تقع مشاجرة ولا مضاربة ولا وصب، فكل مشغول بشغله ومقبل على شأنه.

وأما المرسى فلا يسأل عن حسننها، وتقويمها وكثرة مرافقها وخدمتها وآلاتها، وغير ذلك مما يتعلق بها، ولهم فيها استعانة كبيرة ببابور البر في الأشياء الشاقة في الموضوع والموسوق، في كل غروب وشروق، وكنت مشاققا لركوبه للعلم بأحواله فلم يقدره الله الآن.

وغاية الأمر ومتناه أن تتبع الجزئيات من أحوال هذه البلاد يفضي إلى مجلدات، واستغراق مدة كبيرة من الأوقات، والقصد إنما هو التعرض لرؤوس المسائل ليلا تذهب الوجهة بغير طائل، وإن كان هذا القدر الذي ذكرناه، والوصف الذي وصفناه، معلوما عند الناس، ومشهورا عند سائر الأجناس، فهو وإن كان كذلك فغير معروف عند أناس آخرين، ومحبوب سماعه والعلم به عند قوم صالحين، والناس متفاوتون في العقول، ومتباينون في النقول، على [139] أن* ذلك لا يخلو من فائدة عند من شأنه الانصاف، وتحاشى عن ركوب سهوات الاعتساف، وكان كريم الطباع جميل الأوصاف، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، وهو حسبي ونعم الوكيل، ولما عزمنا على القبول لبلادنا، محل طارفا وتلادنا، وظهرت لنا أعلام الرحيل، وقام عليها الشاهد والدليل، أمسكت العنان عن هذه الأخبار، وجعلتها برهانا عما وراءها مما أتى أو يأتي

به الليل والنهار، وأسأل الله العلي الستار، العظيم الكبير الغفار، أن يغفر لي ما تحملته في هذا المسطور وغيوه من الأوزار، بجاه النبي المختار، سيد الأبرار، وزين المرسلين الأخيار، صلى اله عليه وسلم وعلى اله الكرام الاطهار، وصحابته المنتخبين الأنصار.

ولما أكملت هذا التقييد وتممته، سميته [تطريب الأسماع، بأخبار الجزائر وما يقربها من الأصقاع]، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب، وكان الفراغ منه — وأنا بالجزائر — يوم السبت السادس والعشرين من المحرم الحرام، عام واحد وعشرين وثلاثمائة وألف، انتهى.

وقد حاز منه نسخة محل الأخ السيد بناصر غنام بعد أن طلبها مني، ولولا هي لردت أمورا ظهرت لي زيادتها، ولكنني اخترت أن يبقى على نسخة واحدة،^[140] وفيها كفاية إن شاء الله تعالى لمن استحسنه من الاخوان، وكان له * اهتمام بمطالعة أخبار البلدان، ليعلم من لم يصل لذلك القطر ما عليه الأحوال هنالك، سلك الله بنا أحسن المسالك، بمنه وكرمه آمين.

وقبل توجهنا للجزائر بنحو خمسة أيام — ونحن بطنجة — ورد سلطان النجليز لجبل طارق قبالة طنجة، بينه وبينها في البحر نحو ثلاث ساعات، وذلك يوم الأربعاء التاسع من المحرم عام واحد وعشرين المذكور قريبا، وقد وجه له السلطان سفيرا من قبله، وهو خديمه القائد عبد الرحمن بن عبد الصادق الريفي عامل مدينة فاس، بقصد تهنيته على وصوله لذلك المكان المجاور لايالة السلطان، ثم رجع موفور الجنب بالبرور، ومكسوا من كل الجهات، بالسرور، وشاع الخبر بالاحتفال العظيم الذي احتفله أهل جبل طارق لأجل سلطانهم، وأظهروه في أوطانهم، مما يطول فيه المقال، ولم يكد يخطر بالبال.

وبعد ذلك بقليل جاء سلطان الصبنيول إلى سبتة وأخذ السلطان يحاول توجيه سفير من قبله بقصد تهنيته فلم يتيسر أمره، لأمر لا ينبغي ذكره.

وفي أواسط المحرم عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ورد الخبر للدولة بأن سلطان الألمان خرج من بلده للسياحة، وأنه عازم على الوصول إلى طنجة^[141] في الرابع والعشرين من * الشهر المذكور، فصدر أمر السلطان لكبراء طنجة بالاحتفال له بكل ما أمكن، وبين لهم وجه العمل في أمره، ثم وجه من حضرته

مولاي عبد المالك عم والده — قدسه الله — سفيرا لتلقيه بطنجة، وعززه باثنين من أعيان الكتاب، وعدد مناسب من الخيل من محلة الباشا عبد الكريم ولد أبا محمد الشرقي، الرابطة بنواحي القصر قرب ابن الريان، وبعد وصولهم لطنجة بيومين ورد سلطان الألمان في اليوم المذكور وصادف كونه يوم الجمعة، فضربت المدافع لأجله برا وبحرا، وجاء المسلمون أهل تلك الناحية إلى المرسى، وضربوا بارودا كثيرا خارجا عن القياس، اصطكت به الأذان وتضعضت الجبال، وتلقاه السفير المذكور ومن معه بترحيب رحيب، واعتناء كبير عجيب، وتوجه لدار باشوره، ولم يصل للموضعين المعينين له من قبل السلطان بالقصبة وتمرشان، ولم يمكث هنالك إلا ساعة ونصف ساعة، ثم انشئ راجعا وركب البحر ومضى لشأنه، بعد أن حاز من السفير كتاب السلطان والتحفة التي أتحفه بها، وجازاه خيرا على ذلك، ولم يدر أحد السبب في اتيانه للمغرب، وتنوعت الأقاويل في شأنه ما بين مبشر ومنفر، والله [142] أعلم بحقيقة الحال، وما يحاوله في شأن المغرب أولئك* الأندال، رد الله كيد الكائدين في نحورهم، وعصمنا من شرورهم.

*آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آمين والأمر بيد الله ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير. ولنتكلم باختصار على أهل دولة السلطان الآن، الذين تدور على أيديهم أمور السلطنة في هذه الأحيان، فمنهم الوزير الفقيه السيد فضول بن محمد غريط الفاسي، ولاه السلطان الوزارة بإشارة المنهبي حين عزل عنها الوزير الفقيه الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد بمراكش أول عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف.

ومنهم وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم لابن سليمان الفاسي، ولاه السلطان بإشارة من المنهبي أيضا قبيل عزل الحاج المختار، وكان ذا حظوة واعتبار عند الوزير السيد أحمد رحمه الله، وكان مكلفا عنده بحسب النيابة عنه بإدارة أشغال الأجانب، ولما مات الوزير سعى له المنهبي في الاستقلال.

ومنهم أمين الأمانة الذي إليه المرجع في جميع أموال بيت المال السيد محمد الشيخ بن عبد الكريم التازي الفاسي، ولاه السلطان بإشارة المنهبي

كذلك بمراكش، بعد إعفاء السيد عبد السلام التازي الرباطي الذي كان قبله.

وقد كان ذا جد وصلاية في الدين وغيرة على الاسلام، ولذلك طلب [143] الاعفاء لما رأى* من تبدل الأحوال، ولا زال حيا، وهو الآن بداره بالرباط في أرغد عيش، وتوجه بعد الاعفاء للحج وحج ورجع لمحله وأحسن الله عاقبته، وقد كان السلطان وجه عليه في هذه الأيام لحضرته بفاس، ولما وصل كلفه بالنيابة عنه بطنجة في محل الحاج محمد الطريس التطواني، ثم عزله في الحين مساعدة لأعدائه، وأقر الطريس على عمله، ورجع التازي لمحله بالرباط مهضوما جنابه، ومعمورا بالتحسر والتندم وطابه، وبينه وبين الذي في محله بون بعيد، كما بين الشقي والسعيد.

ومنهم وزير الحرب ورئيس العسكر الفقيه السيد محمد الجصاص الفاسي، ولاه السلطان إمارة العسكر بعد عزل المنبي عنها وتوجهه للمشرق، وكان وقتئذ بالجزائر في غرض مهم للسلطان، فوجه عليه وكلفه بإشارة الوزير السيد عبد الكريم ابن سليمان لقراية بينهما واتصال.

ومنهم الفقيه الوزير السيد المهدي بن محمد غريط، ولاه السلطان على الشكايات بإشارة أخيه السيد فضول المذكور ومساعدة المنبي عليه، وذلك بعد عزل السيد محمد ولد السيد علي المسفيوي المكلف بالنيابة في إدارة أشغالها بعد موت أبيه.

ومنهم قائد المشور القائد إدريس ابن يعيش البخاري المكناسي، ولاه السلطان قيادة المشور بإشارة الوزير السيد فضول غريط في غيبة المنبي في [144] السفارة* لبلاد النجليز والألمان، بعد أن عزل عنها القائد قدور بن الغازي البخاري المكناسي، المولى على يد المنبي في محل القائد محمد ابن العلام البخاري المعزول عنها، وحيث رجع المنبي من السفارة عزم على نقض ذلك ورد ابن الغازي لمحله ولم يساعده القدر، وابن يعيش هذا كان خليفة عند قائد المشور القائد إدريس ابن العلام البخاري أيام السلطان مولاي الحسن رحمه الله، وعزله السلطان عنها لأمر بلغته عنه بواسطة الوزير الحاج المعطي بن العربي الجامسي رحمه الله، ولا يخلو مع ذلك من تشكي ابن العلام منه واغرائه

عليه لتجاوزه المعتاد في خطته، ثم ولاه بوجدة، ولما مات السلطان قام عليه أهل تلك الناحية وخرجوا عن طاعته، فعزله السلطان مولاي عبد العزيز عن وجدة وولاه بتطوان قيد حياة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، وبقي بها إلى أن استدعاه للقيادة على المشور، وهو المنظور إليه اليوم بحضرة السلطان، والمدير لغالب أمور السلطنة بعد نفي المنهبي عنها، وولى في محله بتطوان ابن الغازي، ولا زال كل منهما بمحله إلى الآن، وفي خلال هذه الأخبار أمور لم يسمح الوقت بإفشائها وإبرازها.

ومن المقربين عند السلطان الأمين الحاج عمر بن عبد الكريم التازي الفاسي، وله حظوة ومكانة ونفوذ عال في الكلمة، وهو من غرس المنهبي ومن [145] صنيعته، فكان سببا لطرده وإبعاده*، ثم نفيه من المغرب، وذلك بمحالات من سائر هؤلاء الكبراء واتفاق منهم، والجزاء من جنس العمل.

ومن كبراء الدولة الحاجب الأمين أحمد الركينة التطواني، وهو أيضا من غرس المنهبي.

ومنهم الأمين الوريضي الفاسي، المولى في محل الأمين السيد العربي الزبدي الرباطي، وليس له في تلك الولاية إلا الاسم.

وأما الكتاب بالحضرة فغالبيهم من الكتاب المذكورين في دولة مولانا الحسن قدسه الله، وحالهم اليوم في انحطاط، تداركنا الله وإياهم بالطفاه الخفية، ومواهبه العلية.

وكل هؤلاء الناس لا زالوا موجودين في الوقت، وهو أوائل صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، وعلى يدهم تدور أمور السياسة، وغالبها مختل لجريانه على غير مهيعه، من أجل العصبية التي لبعضهم والطمع، ولهم اجتماع ومشاورة في الأمور كل يوم تشبها بالجمع الذي يجعله سائر الدول، وليس له كبير فائدة عندنا لليلة التي ذكرنا، وقد تقدم أن هذا الجمع حدث في الدولة لما ظهرت الخوارق في السياسة، ولعل الإشارة به وردت من عند بعض الأجناس من جملة ما ورد من عندهم كالترتيب وغيره، قلب الله القلوب للخيرات، وللأعمال الصالحات، ولما فيه صلاح المسلمين والمسلمات والمؤمنين

والمؤمنات، وأحسن لنا العواقب، وجعلنا في المعارف والعوارف كالنجم الثاقب،
بمنه وكرمه أمين.

[146] وقد ظهر لي * أن نسوق باختصار بعض الكلام على مدينة فاس،
العاطرة الأنفاس، تبركا بذكرها، وذكر بعض صلحائها، وبالييتني حضرتي من
كتب التاريخ ما نستعين به على ذكرها، ليلاً نخل بشيء من أمرها، ككتاب
«القرطاس في أخبار مدينة فاس»، أو كتاب «الاستقصا، لأخبار ملوك
المغرب الأقصى»، أو كتاب «الدر النفيس في مناقب مولانا إدريس»، أو غير
ذلك، وعلى كل حال فإنني أذكرها بحسب فهمي، وما أداني إليه علمي،
والعذر لي إن أخطأت وجه الصواب، حيث لم يحضر لدي الآن في أخبارها
كتاب.

أما فاس فإنه لا نزاع في أنها أم المدن بالمغرب والقرى، ومعدن
الحضارة في هذا الثرى، وأنها محل العلم والعرفان، والقرينة الوقادة وصفاء
الأذهان، والنظافة والوجاهة. والتيقظ واللباقة والنباهة، والصنائع المحكمة
المحمودة، والذخائر الكثيرة الموجودة، والأموال الغزيرة المعدودة، والديار التي
فاقت إرم ذات العماد، والبضائع المشكورة في كل البلاد، والمساجد البهية
المعمورة، والمواهب المؤيدة المدخورة، والفرش المرفوعة المنشورة، والتأنيق في
الملابس والمآكل والمشارب، والتنافس في اقتناء الوظائف والمناصب، والتجاني
عما يؤدي إلى المهالك والمعاطب، والحفاظة على المروءة والسمت المقبول،
[147] راهيئة الحسنة التي لا يعترها أفل،* والمتنزهات الرائقة، والمياه المتدفقة الفاتقة،
إلى غير ذلك من المآثر، التي لا تسعها الدفاتر، ولولا ضيق أزقة فاس وكثرة
عقباتها، وتوالي الغلاء عليها وصعوبة جيرانها، من القبائل المحيطة بها، لما تها
لعاقل أن لا يستقر إلا بها، لما فيها من زيادة الأمن على الأهل والأولاد، والحمل
على ما ينفع في الحيا والمعاد، ومن لم يجلس بفاس، قدر ما يستيقظ من
النعاس، ويزول عنه الالتباس، لم يعلم ما عليه الناس، ولم يزل غريقاً في بحر
التيه والافلاس، ولا يكاد يسلم في أمر دنياه من الباس، وعندي أن الحدق
المكتسب بغير فاس جبار، وأنه هباء وغبار، وليس الخبر كالعيان.

ولا هل فاس صبر كبير على الأسفار، والجولان في سائر الأقطار، فلا
تكاد تجد بلادا إلا وهم فيها بالعدد الوافر، والصيت الطائر.

وعندهم اعتقاد في الشرفاء، والصلحاء والعلماء، يذلون في محبتهم كرائم الأموال، ويوسعون لهم دائرة الاجلال والإفضال.

ولهم اعتناء بالمساجد والحرمات، والتجاء إليها عند اعتكار الظلمات، واشتداد الخطوب والغمرات.

ولهم عوائد وأعراف، ونعوت وأوصاف، تحار فيها القطا، وتتقاصر لديها الخطا، حملوا كلها برورا، وتناولوها سرورا، ميلا إلى اقتراحات من يعولون، [148]* ووقوفا مع ما يرجون ويؤملون، وتوسعوا في ذلك قوف الامكان، بحسب ما يستدعيه الوقت وتقتضيه الأزمان.

وعلى كل حال فمدينة فاس تسكن لما فيها من كثرة الأمن والوقار، والوقوف عند الحد من الكبار والصغار، وهي مدينة العلم والمال، والاقبال على ما ينفع في الحال والمآل، من النساء والولدان والرجال، فلا مثل لها في ذلك فيما علمت من مدن المغرب كلها، سهولها وجبالها.

اللهم إلا أن يكون من جهة رفق المعيشة ورخص الأسعار، وكثرة الخيرات والثمار، والأشجار اليانعة الأزهار، التي بلغت مبلغ النر والتل في كثرتها، فمراكش أولى بذلك منها، وليس الخبر كالمعاينة، والمنصف اللبيب الذي لم يكن عقله وراء لسانه إذا عاينهما يعلم ما بينهما من المباينة، وسبحان من أعطى لكل شيء ما يذكر به من محاسنه الجميلة، ومواهبه الجزيلة، وعطاياه الفخيمة الجليلة، سدل الله على من بهما من المسلمين الستر الجميل، وحفظنا وإياهم من كل مكروه وكل وبيل، آمين.

ومن مزارات فاس المشهورة، وحرمتها المنورة المبرورة، التي عاشت في الأفاق ببركاتهما الموفرة المنشورة، وخيراتهما الميسرة المعمورة، مقام الشريف [149] الغرطيف، والضياء ضياء العنيف، ذي* القدر المتيف، والظل الوريث، القطب العامل، والغوث الواصل الكامل، الولي الصالح الجامع، والغوث الهامع المانع، الدر النفيس، أمير المؤمنين أبي العلاء سيدنا ومولانا إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن مولانا علي ومولانا فاطمة الزهراء، رضي الله عنهم وأرضاهم، وأكرم مثوهم، وجعل جنة الفردوس متقلبهم ومأواهم، وهو مقام حفيظ، ومحل جميل جليل، ما شئت من بهاء

ونور، وسناء تحجل (2) منه البلور، ورونق تتباهى به الأعصار والدهور، وفيه من الأذكار، وقراءة القرآن بالليل والنهار، وقيام الصلوات في أوقاتها، وتأديتها على أحسن هيئاتها وصفاتها، والمحافظة على شعائر الاسلام، وتلاوة دلائل الخيرات في الصلاة على النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام، ما لا يوجد في غيره من الحرمات بالمغرب.

ولأهل فاس بل ولجميع أهل المغرب اعتقاد كبير في جانب مولانا إدريس بن إدريس، ومحبة تامة لا يبلغها عندهم أحد من الأولياء، والدعاء عند ضريحه المقدس مستجاب، والناس يقصلونه من شاسع الأقطار، ويزدحمون على زيارته والتضرع بين يديه بالليل والنهار، والعشايا والأسحار، وأثار النجاح عليهم لائحة، وتلألؤ الأنوار غادية لديهم ورائحة، وقد زرته — والحمد لله — [150] مرارا، *ودعوته وتشفعت به جهارا، وأنشدت بين يدي ضريحه الكريم، ومقامه العظيم، قصيدة من نظمي متوسلا به، ومتشبتا بسببه، مستفتحا ببيت من إنشاء غيري تبركا، ونصها

يا غارة الله جدي السير مسرعة	يا غارة الله في حل عقدتنا يا غارة الله
يا غارة الله إني في التجاء إلى	إغاثة منك لي يا غارة الله
يا غارة الله إني خائف وجل	ففرجي كرتي يا غارة الله
يا غارة الله إني قد رجوتك في	دفع الذي مني يا غارة الله
وجلب مأثرة إلي عن عجل	وصرف معبدة يا غارة الله
وبسط رزق هني ما له غاية	تقر عيني به يا غارة الله
وهذ ركن عدو ناره أشتعلت	وقطع دابره يا غارة الله
ورد كيد له في قعر لبتيه	وسوق حلف له يا غارة الله
بجاه طه الذي جلت مآثره	نينيا المصطفى يا غارة الله
وحق جاه إبنه مولاي ادريس من	طابت به فاسنا يا غارة الله
هو الامام الذي قد جد واجتهدا	في نصر ملتيا يا غارة الله
حتى استارت به أرجاؤها وسمت	في قطر مغربنا يا غارة الله
وشيد الدين وانتفت مخاوفه	واستبشرت ناسه يا غارة الله

وجاهد الكفر فانمحت معالمه وبددت أهله يا غارة الله
وقام يدعو إلى الاله محتسبا بصدق عزم له يا غارة الله
وناب عن جده في نصيح أمته ونشر ملكه يا غارة الله
[151] *إني استجرت به وقمت في بابه مستشفعا خاضعا يا غارة الله
مستمحا فضله وسائلا بذله وماسكا ذيله يا غارة الله
فسارعني لي بما قد رمت من ولد للمصطفى ذي الوفا يا غارة الله
وأنسي والحق بنيل حاجتنا وصرف حال العنا يا غارة الله
فعجلي عجلي إن لم تكنوني لها فمن يرام لها يا غارة الله
عليك مني سلام دائم عطر بالمسك نخممه يا غارة الله

انتهى، ولست شاكاً في الاجابة، وقبول الانابة، إن شاء الله تعالى،
ومناقب مولانا إدريس وكراماته أكثر من أن تحصى، أو تعد وتستقصى، نسأل
الله — تعالى — أن ينفعنا به وبأمثاله، وأن يجعلنا في حماه وتحت حياضته،
آمين.

ومن مزارات فاس الكبيرة، ومقاماتها الجليلة الشهيرة، مقام الولي
الصالح، والقطب الواضح، الجليل المقدار، الكامل الفخار، العالم العلامة،
البحر الحبر الفهامة، شيخ الشيوخ، ومعدن العرفان والرسوخ، والطود الراسي،
سيدي عبد القادر الفاسي، دفين حومة القلقلين، رضي الله عنه ورحمه، وهو
مقام جليل، ومحل بهي جميل، فيه أنوار مشرقة، وآثار من نفحات الخيرات
متدفقة، وله في قلوب الناس تعظيم كبير، وتفخيم شهير، وقد زرت مرارا والحمد
لله، [152] ونقلت تاريخ وفاته وتحليته، من الرخامة *التي بإزاء قبره، وهذا نصها،
تبركا بما اشتمل عليه نعتها ووصفها: الحمد لله حق حمده، صلى الله على
سيدنا محمد نبيه وعبد، بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وبشر الذين آمنوا
وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، هذا قبر الشيخ الامام
الولي الكامل، العالم العامل، سيدي عبد القادر بن الفقيه الصالح سيدي
علي، بن الشيخ الكامل سيدي يوسف الفاسي، رضي الله عنهم، ونفعنا
ببركاتهم، آمين، وكانت وفاته — رضي الله عنه — يوم الأربعاء ثامن رمضان
المعظم، عام لإحدى وتسعين وألف هجرية».

وعند رجليه قبر ولده العالم العلامة سيدي عبد الرحمن، وبازائه رخامة مكتوب فيها تاريخ وفاته، وهذا نصها «لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الحمد لله الدائم البقاء والوجود، والصلاة والسلام على سيدنا محمد معدن المجد والوجود، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وحشرنا معهم آمين، هذا ضريح العالم النحرير، المشارك الشهير، نادرة الزمان، أبي زيد سيدي عبد الرحمن، نجل العالم العابد، القدوة البركة الزكي الزاهد، والممد بعلم الباطن والظاهر، أبي السعود سيدي عبد القادر، نجل الولي الواضح الولاية، الملحوظ من الله تعالى بعين العناية، ذي الفضل الجلي، [153] *والقدر العلي، أبي الحسن سيدي علي، بن الشيخ الكامل، العالم العامل، ذي الفتوحات الربانية، والأسرار المؤيدة بالمواهب الإلهية، القطب الجامع، والغيث الهامع، طود المجد الراسي، الشاخ المقدار أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي اللقب والدار الأندلسي، الفهري المألقي الكناني النجار، توفي — رحمه الله — ضحوة يوم الثلاثاء سابع وعشرين جمادى الأولى، سنة ست وتسعين وألف».

قلت والشيخ أبو زيد هذا له تأليف في بيوتات فاس المشاهير في القديم، منهم بيت بني عشرين، ونص ما قاله فيهم

«بيت بني عشرين الخزرجين بيت علم وأصالة، منهم فقهاء أئمة كالفقيه أبي الحسن علي بن عشرين، كان فقيها حافظا محصلا متبحرا في الفقه، وتفقه عليه فقهاء المغرب، وكان يحفظ المدونة، ومن صدره نقلت بعد أن حرقها ملوك الموحدين من بني عبد المومن بن علي، يروي أنه لما حيزت من صدره أول الدولة المرينية، قوبلت بعد ذلك مع نسخة وجدت فوجدوها كهي لا خلاف بينهما إلا في فاء أو واو انتهى منه بلفظه وحروفه بواسطة.

وعند رجلي أبي زيد قبر أخيه الولي الصالح، العالم العلامة سيدي محمد بن سيدي عبد القادر، ونص ما في الرخامة المجعولة بإزائه لا إله إلا الله، محمد رسول الله، الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده وآله، هذا قبر شيخ الشيوخ العارفين، وقدوة أهل الرسوخ المحققين، صاحب الإشارة العلية، والعبارات السنية، الامام العلامة، الحبر البحر الفهامة، الشهير

شرقا وغربا بالولاية والعلم أبي عبد الله سيدي محمد بن سيدي عبد القادر ابن سيدي علي بن أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، ملين القلب القاسي، طيب الله ضرائحهم، ورضي عن جميعهم، وتوفي رحمه الله زوال يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب الفرد، ودفن يوم الجمعة، وذلك سنة ستة عشر ومائة وألف هجرية»، رضي الله عنهم جميعا ونفعنا بهم.

ومن جملة المدفونين بذلك المقام المطهر سيدي عبد الواحد بن محمد [154] الفاسي*، المتوفى سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، ونص ما في الرخامة المجعول بإزائه «الحمد لله وحده، هذا قبر العالم العلامة، المشارك الواعظ، سيدي عبد الواحد، بن الفقيه العدل الفرضي الحيسوبي سيدي محمد الفاسي، توفي رحمه الله في الثاني من ذي الحجة الحرام، متم سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف هجرية» ورجلاه عند رأس سيدي عبد القادر الفاسي، وهذه القبور الأربعة كلها في صف واحد مستقيم، وخط معتدل سوي قويم.

وهذا المقام قبور كثيرة لاناس مختلفين، لا يمكن النص على اعيان أهلها، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في حماية النبي الشفيع، صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ومن المدفونين بهذا المقام المكرم الشريف الحسيب، الصالح الأريب، سيدي محمد بن عبد الحفيظ الدباغ، ونص ما كتب على قبره «الحمد لله وحده، وصلى الله على من لا نبي بعده، هذا ضريح الولي الكامل، الغوث الخافل، صاحب الاشارات العلية، والعبارات السنية، ذي النسبتين الطاهرتين الجسدية والروحية، سيدي محمد، بن ولي الله تعالى سيدي عبد الحفيظ، الادريسي الحسني الشهير بالدباغ، نفعنا الله به، وجعلنا من أهل دائرته وحزبه، توفي — قدسه الله — يوم الثلاثاء سابع محرم الحرام، فاتح عام واحد وتسعين ومائتين وألف هجرية».

[155] *ومن مزارات فاس، العاطرة الأنفاس، المزيلة عن كل قلب مليم كل بأس، وكل وسواس والتباس، مقام الولي الصالح الفجر الساطع، والنور اللائح الطالع، الذي هو لكل منقبة وكل كرامة جامع وحاوي، البدر المنير، والقطب الشهير، سيدي أحمد الشاوي دفين حومة الجرف، الجميل النعت والوصف، رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله، آمين، وقد تكلم على مناقبه وكراماته

في ممتع الأسماع، في مناقب الجزولي والتباع، ومالهما من الاتباع، وليس هو —
الآن — تحت يدي.

ومن جملة المزارات المشهورة، والمواضع المعظمة المبرورة، مقام الولي
الصالح الرباني، والقطب الواضح المصمدي، الشيخ العارف سيدي أحمد
التجاني، دفين حومة البليدة، رضي الله عنه وأرضاه ونفعنا به وبأمثاله، آمين،
وهو مقام جليل، ومحل بهي حفي، فيه أنوار تتلالا، ونفحات ربانية تتزايد
غدوا ورواحا وتتوالى، وفيه من الوقار والسمت الحسن ما يليق بمقامات الأولياء،
البررة الأتقياء، ولأصحابه وتلامذته اعتقاد كبير فيه، واهتبال لا تستقصيه
العبارة أو تستوفيه، وزاويته معمورة بالخيرات والفرش الرفيعة والأواني، رائقة
المعاني والمباني، وقد زرتة — والحمد لله — مرارا، نفعنا الله به وبأمثاله آمين،
[156] وحضرت بمقامه الجليل * ليلة السابع والعشرين من رمضان عام اثنين وعشرين
وثلاثمائة والـف، فأعجبني ما رأيته فيه من السكينة والوقار والسمت الحسن،
والأصغاء لقراءة القرآن، ومنع الصبيان والنسوان في تلك الليلة من الدخول
إليه، وغوغاء الناس وأراذلهم وأهل اللغو والضجيج، كما هو واقع في غيو من
مساجد فاس وحرمت أوليائها، وخصوصا في تلك الليلة المباركة، وجلست
فيه كثيرا، وأمكنتني أن صليت فيه ما شاء الله تعالى تقبل الله، والله يجازي
خيرا من سعى في تلك الحسنة ومهداها في ذلك المقام الشريف، ونسأله تعالى
أن يوفق لمثل ذلك سائر القيمين بالمساجد والحرمت، خصوصا مقام مولانا
ادريس ومسجد القرويين، ومن يعظم حرمت الله فهو خير له عند ربه، وفقنا
الله والمسلمين لما فيه رضاه، وتداركنا جميعا بلطفه الخفي، آمين.

ومن مزارات فاس المعظمة، ومواضعها المكرمة المحترمة، التي وقع
الاتفاق على بركاتها واعتبارها، والحض على اغتنام نفحاتها وأسرارها، واقتطاف
أنوارها وأزهارها، مقبرة باب الفتوح خارج المدينة في سمت القبلة، المعروفة
بمقبرة القباب، على يمين الخارج من الباب، فقد سمعنا سمعا متواترا من
الثقات أن بهذه المقبرة الجليلة من مقابر الأولياء والصلحاء والعلماء وأهل الخير
[157] في القديم والحديث، ما لا يمكن حصوه ولا يتأتى عدده، وأن * الناس يتلمحون
فيها خيرا كثيرا، ويذكرونها ذكرا جميلا كبيرا، ويعظمونها ويتبركون بها، وهي

بقيع فاس، كما أن مقبرة باب أغمات بقيع مراکش، ومن الأولياء المدفونين بها الولي الصالح، العالم العلامة الماهر أبي المحاسن سيدي يوسف الفاسي، رضي الله عنه، ومنهم قطب الأقطاب، ومعدن الصلاح والفلاح ولي الله تعالى سيدي أحمد اليمنى الشريف القادري، رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ومنهم الولي الصالح الرابع، الغوث الفرد، الشريف النسب، الكريم الحسب، سيدي عبد الغزيز الدباغ صاحب الذهب الابريز، رضي الله عنه، ومنهم الولي الصالح، العالم العلامة الناجح الرابع، سيدي حماموش رضي الله عنه، ومنهم الولي الكبير، الصالح الشهير، علم الأعلام، ومصباح الظلام، الجليل، سيدي الدراس ابن اسماعيل، وغيرهم ممن لا يحصى، رضي الله عن جميعهم، ونفعنا ببركاتهم، أمين.

وقبالة هذه المقبرة الجليلة مقبرة أخرى في ناحية الشمال، تعرف بمقبرة الغرباء، وفي وسطها مقام الولي الصالح، الغوث الجامع المانع سيدي علي بن حرزهم، رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله أمين.

وبداخل باب الفتوح مقبرة عظيمة تسمى مقبرة باب الحمراء، فيها من الصلحاء وأهل الخير شيء كثير، وبها مقام الولي الصالح، العالم العلامة الناجح، سيدي محمد بن عباد، شارح حكم ابن عطاء الله، رضي الله عنهما، وفيها — أيضا — مقام الولي الصالح أبي الحسن سيدي علي بو غانم [158] بالنون* والميم، ومنهم من يدلها باللام والباء، وهو مقام جليل حفيل، وللناس به اهتمام عظيم، واعتقاد كبير، وهو مقصود للتداوي، فلا تكاد تخلوا ساحته من المرضى المجاورين به، وله سر كبير في ذلك، وللحجاجين فيه محبة عظيمة، حتى إنهم ملتزمون لجعل موسم عظيم له كل عام في الخريف، ويقومون بجميع ما يجب فيه من الأطعمة الكثيرة المعتبرة وغيرها، ويختنون فيه أطفال المسلمين الذين لا حصر لهم ولا نهاية من غير أجر ولا شيء ابتغاء وجه الله تعالى، وتأتي الناس من كل فج عميق بقصد الحضور فيه، ولم نعلم موسما بفاس يكون مثله في العمارة وكثرة الخلق، رضي الله عنه وأرضاه.

وبخارج باب المحروق مقام الولي الصالح، العالم العلامة الجليل أبي بكر بن العربي الأندلسي رضي الله عنه، وهو مزارعة معظمة عند أهل فاس،

وهو بعيد من الباب بنحو المائة خطوة على يسار الخارج منه، وقبالة الباب المذكور بنحو عشر خطوات قبر الوزير الشهيد، لسان الدين ابن الخطيب، السلماني الأندلسي، ذي الوزارتين، وذو العمرين، وذو الشهاداتتين، رحمه الله ورضي عنه، وفي الطريق المارة لسوق الخميس، وآثار الخمول عليه ظاهرة، ولوائح الغربة لائحة على أطلاله وسافرة، وقد جدد وأعاد ترميمه في هذه الأزمدة القريية* الشريف الجليل، العالم العلامة الأصيل، مولاي إدريس بن عبد الهادي العلوي الفاسي دارا ومنشأ، وهو ابن عم السلطان، ولا زال حيا في هذا التاريخ الذي هو أواخر صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، وكتب اسمه على القبر وبينه وأظهره، وأحاط به بنيانا صغيرا علوه نحو نصف قامة على يمين المار لسوق الخميس، أثابه الله وأجزل عمله، وقد زرتة وقرأت بإزائه ما تيسر من القرآن، ودعوت له بالرحمة والغفران، تقبل الله ذلك، ومن نثر ابن الخطيب، كما في نفح الطيب، نقلا عن كناش الفقيه السيد عبد الرحمن الشرفي رحمه الله ما نصه

«أيها الناس رحمكم الله، إخوانكم المسلمون بالأندلس قددهم العدو — قصمه الله — ساحتهم، ورام الكفر خذله الله استباحتم، وزحف أحزاب الطواغيث إليهم، ومد الصليب ذراعيه عليهم، وأيديكم بعدة الله أقوى، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم القريب فلا تخفروه، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه، الجهاد الجهاد فقد تعين، والجار الجار فقد قرر الشرع حقه وتبين، الله الله في الاسلام، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله، قد استغاث بكم الدين فاغيثوه، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعانكم الله* عند الشدائد، جددوا عوائد الخير يصل الله لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وواسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة، كتاب الله بين أيديكم، والسنة والايات تناديكم، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم، والله يقول فيه يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم، ومما صح عنه قوله «من أغبرت قدماء في سبيل الله حرمهما الله على النار، لا يجتمع غيار في سبيل الله ودخان جهنم، من جهز غازيا في سبيل

الله فقد غزا، «ادركوا رمق الدين قبل أن يفوت، بادروا عليل الاسلام قبل أن يموت، احفظوا وجوهكم مع الله يوم يستلکم عن عبادہ، جاهلوا في سبيل الله بالألسن والأقوال حق جهاده.

ماذا يكون جوابكم لنيكم وطريق هذا المذر غير ممد
إن قال لم فرطتم في أمي وتركتموهم للعدا والمعتدي
تأله لو أن العقوبة لم تحق لكفى الحياء من وجه ذاك السيد

اللهم اعطف علينا قلوب العباد، اللهم بث لنا الحمية في البلاد، اللهم دافع عن الحرم الضعيف والأولاد، اللهم انصرنا على اعدائك، بأحبائك وأوليائك، يا خير الناصرين، اللهم افرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا».

وأما بقية الصلحاء بداخل المدينة وخارجها فإنهم لا يحصون كثرة، [161] وقد تكفل بذكرهم* والتخصيص على أعيانهم ومواضع ضرائحهم الفقيه العالم العلامة، الشريف العفيف، الزاهد الورع الحسي الخير الولي الصالح سيدي محمد بن جعفر الكتاني — جزاه الله خيرا — في كتاب له سماه «سلوة الأنفاس، ومحادثة الأكياس، بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس»، وجزاه ثلاثة أجزاء، وعندي نسخة منه بمراكش، فليطالعه من أراد استيقاء صلحاء فاس معرفة، فإنه شفى وكفى، وما ذكرت من ذكرت منهم إلا تبركا بهم، ومحبة فيهم، ليلا يخلو كتابي هذا من ذكر الصلحاء الذين تنتزل بذكرهم الرحمت، جعلنا الله في حماهم آمين.

وأما مساجد فاس فإنه لم يكن فيها أكبر ولا أحسن ولا أبهى من أربعة مساجد، وهي مسجد القرويين، ومسجد الأندلس، ومسجد الرصيف، ومسجد باب الجيسة، عمرها الله بذكره، وأكبرها وأعظمها مسجد القرويين، فلا أعلم مسجدا بسائر بلاد المغرب الأقصا أكبر ولا أبهى ولا أنقى ولا أكثر تدريسا للعلوم منه، وهو مسجد بهي رائق منور، عليه طلاوة ولباقة ورونق، وله أبواب كثيرة تقرب من اثني عشر بابا من سائر جهاته الأربع، وبه ثلاث بيلات أي خصات يفور منهن ماء كثير، واحدة في الوسط، وواحدة في

الناحية الجنوبية، وواحدة في الناحية الشمالية، وبه صهرج بناحية الباب المقابل لدار الضوء فيه ماء كثير جدا، وبه عشر بلاطات من الصحن إلى المحراب، ^[162] كل بلاط فيه واحد وعشرون قوسا، بين القوس والقوس اسطوانة أي سارية، وبناحتي الجنوب والشمال بلاطات أصغر من ذلك، وبناحية الغروب بلاط واحد، وأشهر أبوابه باب الشماعين، وهو في نهاية الضخامة، والعلو والارتفاع والمتانة والعظمة، وبالقرب منه داخل المسجد صومعته، وبها بيت الميقاتي الذي يرقب الأوقات ليلا ونهارا، والصومعة لازالت على حالها الذي انشئت عليه في الزمن القديم، شكلها وشكل صومعة جامع الأندلس واحد، بخلاف ما عليه هيئة الصوامع الآن، وبهذا المسجد منبر عظيم، من العمل القديم، وبه من غرائب الصنائع، وعجائب البدائع، ما يترك الألباب حائرة، ولا أظن أحدا اليوم يقدر على القرب من محاكات ذلك فضلا عن أن يصنع مثله، وذلك دليل على رفيع همم الأقدمين، واعتبار إيمانهم وإسلامهم ومحبتهم، رحمهم الله ونفعنا بهم آمين، وقبلته منحرفة جدا، والمؤذنون ينبهون الناس كل جمعة على انحرافها، وقبلته المحققة هي لناحية سبع لويات، فيبقى المحراب عن يمين المصلى، والخطيب بهذا المسجد العظيم اليوم وهو أواخر صفر عام ثلاثة وعشرين المتقدم، وأمام الجمعة فيه هو الفقيه العدل الخير، الفصيح البليغ الحافظ المتقن أبو زيد سيدي عبد الرحمان الفاسي، من ذرية سيدي ^[163] عبد القادر الفاسي، *وله معرفة بصناعة الخطبة فاق بها جميع من رأيت من خطباء فاس، وفيه فصاحة تامة، وعليه طلاوة، وسمته سمة الأخيار، حفظه الله وكثر في المسلمين أمثاله، آمين، وعن يسار المحراب خزانة لوضع الكتب احدثت في أيام بني مرين، ونص ما هو مكتوب عليها «الحمد لله وحده، أمر بعمل هذه الخزانة السعيدة مولانا أمير المؤمنين، المتوكل على رب العالمين، عبد الله فارس أيد الله أمره، وأعز نصره، بتاريخ شهر شوال سنة خمسين وسبعمائة، رزقنا الله خيرها»، قلت هذا السلطان هو أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني، ولا زال العلم ينشر بكتوة في هذا المسجد المبارك، أدامه الله كذلك.

ولم يكن بفاس مسجد يبلغ في التعظيم والاحترام والوقار مبلغه، ولم نر به ما يحل بذلك، إلا ما يقع فيه ليلة السابع والعشرين من رمضان من

الضجيج والصراخ واللفظ وكثرة ازدحام الخلق من كل فريق حتى إنه لا يوجد محل به فارغ، وتقع في ذلك خصومات ومشاجرات ومناوشات بالضرب بالحديد والجرح والقتل والترافع للحاكم، ومن أجل ذلك يأتي الحاكم للجلوس بالمسجد الليل كله مع أعوانه، لاطفاء نار الخصام الذي يقع هنالك، من غير التفات منه لتطهير المسجد من جلبة أولئك الأوباش، ولا يبعد أن يجد الكفار السبيل^[164] للدخول إليه ويدخلون، وكذلك النساء، وقد قيل ذلك، ولما عاينا ذلك تعجبت غاية التعجب، وذهبت للمحارب لاستماع القرآن فلم نصله إلا بمشقة من الازدحام، ولم نسمع قراءة الامام لكثرة الصياح والضجيج من الأنام، ولم يكن من ورائه إلا أناس دون العشرة بقصد الصلاة، وأي صلاة لهم مع تلك الفتنة التي تتحاشى بيوت الله تعالى عنها، ومن عادتهم أن غالب من أراد الدخول للقرويين في تلك الليلة أنه يشتري الجوز أي الكركاع بلغة أهل الجوز ويأكله بداخل المسجد، ويرمي بقشره فيه ويتركه به، فيكون المسجد كله على كبه واتساعه مملؤا بالقشر، حتى لا يأتي للماشي أن لا يضع قدمه إلا عليه، وتحصل الاذاية للناس بذلك في أرجلهم، وحيث سألت عن السبب فيه وفي هذا التهاون بمنصب هذا المسجد العظيم — الذي بلغ الغاية القصوى في الوقار والحرمة ولا سيما في هذه الليلة التي هي ليلة العبادة والخضوع والإنابة والخشوع — قيل لي إن هذه عادتهم من قديم الزمان، وأن الأحكام حاولوا قطعه ولم يتيسر، على أن ذلك القشر الذي يبقى بالمسجد فيه مصلحة للمؤذنين، فيبيعونه لأهل الأفران ويتمتعون بشمنه، فانظر بالله هذا الهديان^[165] الذي ليس هو في شيء من طريق العدل والانصاف، وقولهم *حاولوا قطعه ولم يتيسر فإنما هو محض كلام ومجرد تهافت، وإلا فلو كانوا صادقين في قطع ذلك من المسجد وسائر مساجد فاس وحرمت أوليائها لما خفي عليهم كيف يفعلون، وأقرب شيء لذلك في القرويين أن لا يبقى باب مفتوحا بها في تلك الليلة إلا ثلاثة أبواب باب الشماعين وباب دار الوضوء وباب آخر ثالثا، وتكون الحرس بتلك الأبواب الذين لهم القوة على الدفع والقبول والمنع، فلا يدخل للمسجد إلا الأفاضل، ولا يدخله الرعايا وأراذل الناس والصبيان والنسوان، ومن لا خلاق لهم، إلا صبيا معه والده أو أحد من أهله يكفه ويزجره، وينقطع ذلك في الحين، ويكون للساعي فيه أجر كبير متين، وبقاء

ذلك فيه ثلثة في وجه الاسلام، وخذشة مقرونة بالإيلام، جبر الله الأحوال،
وقلب القلوب لكل خير.

ويوقد في هذا المسجد في تلك الليلة الكريمة مالا نهاية له من
المصاييح، فما رأيت مثل ذلك في غيره، وحاصله فتنبع مآثر هذا المسجد
المبارك يفضي إلى تطويل كثير، وذلك لعدم كتاب نقل منه علي عسير، وما
ذكرت إلا ما عاينته ورأيتته وشاهدته، ولم نستند فيه لغيري.

وباني مسجد القرويين امرأة لإسمها فاطمة بنت محمد الفهري، وتكنى أم
البنين، شرعت فيه يوم السبت فاتح رمضان المعظم سنة خمس وأربعين
ومائتين، وكان صغيرا، ثم زاد فيه الملوك والأمراء بعد ذلك، إلى أن صار على ما
عليه اليوم في السعة والانفساخ.

ويقرب من مسجد القرويين في الضخامة ورفعة الشأن مسجد
الأندلس، وهو أيضا مسجد جليل، مبارك بهي جميل، عليه رونق وطلاوة، وسمّة
[166] حسنة وحلاوة، وبه الماء الكافي، والسر الشافي، والبهجة* التي هي كل حين
توافي، وله حرمة ووقار وتعظيم، وإكبار عريض فخيم، والناس يقصدونه للتبرك
به والزيارة، ومناره كمنار القرويين في الكيفية التي كانت في ذلك الزمن مختارة،
وبه أيضا بيت لأهل التوقيت، إلا أن التوقيت اليوم خاص بالقرويين، وفيه
رخامة لمعرفة ظل الزوال صنعها صاحبها عام سبعمائة وستة وثمانين، وأمام
الجمعة به والخطيب في هذا الحين هو الفقيه الخاشع الخير الحبي العدل
الحافظ الثقة السيد الطاهر ابن سودة، كثر الله في المسلمين أمثاله، وأصلح
أحوالنا وأحواله، وهو الامام أيضا في صلاة العيدين خارج باب الفتوح، وله
نورانية وسمّة حسن مقبول.

وبمسجد الأندلس هذا أبواب متعددة، أشهرها وأكبرها وأفخمها باب
في ناحية الغروب ولعله من بناء بعض ملوك بني مرين، وهو بناء حفيل عليه
رونق السلطنة وأبهة الملك، وفي صدر المسجد خزانة لوضع الكتب عن يسار
المحراب، أمر بجعلها هنالك السلطان أبو سعيد بن أبي العباس المريني عام ستة
عشر وثمانمائة، وبه سبع بلاطات من الصحن إلى المحراب، وبازائه مدرسة
حفيلة أنشأها أبو الحسن المريني المعروف بالسلطان الأكحل سنة إحدى

وعشرين وسبعمائة، وهو واسطة عقد ملوك بني مرين، وهي الآن على طرف [167] الذهاب والاضمحلال، والفناء اللاحق * لكل حادث، وإن طال ما طال، وبقره أيضا ميظأة كبيرة حفيلة فيها ماء كثير، وهي من عمل المريني كذلك، والله اعلم، وحاصله فإن هذا المسجد أشهر وأكبر مساجد فاس بعد القرويين عمرهما الله بأهله، وقد تكلم عليهما وعلى من أنشأهما بكلام طويل في كتاب «القرطاس في أخبار مدينة فاس»، فليقف عليه من أراد.

وأما مسجد الرصيف فإنه أيضا جليل القدر، حسن المنظر، وهو على هيئة جامع ابن يوسف بمراكش وعلى شكله، وصومعته كصومعته، غير أن مسجد الرصيف أصغر منه، وبانيه أمير المؤمنين مولانا سليمان بن أمير المؤمنين مولانا محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الله بن أمير المؤمنين مولانا اسماعيل بن الشريف، وبه ماء كثير، وبازائه ميظأة حسنة واسعة الفناء، وبها مياه كثيرة، وخطيب الجمعة اليوم فيه وأمام صلاتها رجل من أولاد ابن سودة، وهو حفيد للفقيه العلامة السيد المهدي ابن سودة الذي كان قاضيا بمكناس، وله مروعة وسمت (3) حسن.

وأما مسجد باب الجيسة فهو واسع أيضا، وفيه نورانية وله بهاء ورونق وبهجة وانسراح، وهو أصغر من مسجد الرصيف، وقد جده السلطان مولانا [168] عبد العزيز أيام الوزير السيد أحمد بن موسى * رحمه الله، وأصلح ما انتلم منه، وله صحن جيد واسع، وبه أشجار اللارنج على عادة القدماء، عمره الله بذكره، وصلاة الجمعة فيه تتأخر إلى قرب العصر، على نحو ما يقع بمراكش في مسجد الشيخ الجزولي رضي الله عنه، وفقا بالناس، وتتأخر صلاة الجمعة أيضا بمدرسة الوادي بالعلوة قرب جامع الأندلس، وبأقي مساجد فاس صغار بالنسبة لهذه المساجد التي ذكرت، ولذلك لم نتعرض لها خوفا من التطويل.

وأما مساجد الخطبة بفاس فسبعة عشر، وهي مسجد مولانا ادريس، ومسجد القرويين، ومسجد الأندلس، ومدرسة الوادي، ومسجد الرصيف، ومسجد باب الجيسة والمدرسة البوعنانية وجامع الشراييين ومسجد سيدي أحمد الشاوي والزاوية الناصرية بعد أن لم تكن للخطبة، وأول جمعة صليت بها

(3) السمت الطريق، وهيئة أهل الخير.

جمعة اليوم الثاني والعشرين من صفر عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، عن اذن السلطان بعد أن اقترح ذلك وساله المرباط الخير السيد الحنفي بن محمد بن أبي بكر الناصري لأنها زاويتهم، ومسجد الديوان، ومسجد المنية، ومسجد قصبة النوار، ومسجد أبي الجلود، ومسجد مولاي عبد الله، والجامع الحمراء، والجامع الكبير بفاس الجديد.

ومن أشهر أبواب فاس باب الفتوح، وباب الجيسة، وباب المحروق، ثم [169] باب الحديد، وباب الجديد، وباب سيدي *بوجيدة، وباب سيدي بو نافع، وباب الساكمة، وباب مشور باب البوجات، ولتمسك العنان عن أخبار فاس العاطرة الأنفاس، ملتصقا العذر ممن يقف عليها، فإن المؤمن يلتمس الأعذار، بنص من النبي الذي بشفاعته تحط الأوزار، وتنال رحمة العزيز الغفار.

ولنتكلم — باختصار — على مدينة مراكش لأنها بلدي، وبها أهلي وولدي، أعلم أنه لا خلاف في كون مراكش مدينة كثر خيرها، وانتفى ضيرها، وانبسطت أرضها، وتفسحت أرجاؤها وطولها وعرضها، وفيها من البهجة والاشراق والانشراح العام في أنحائها والآفاق، ما لا نزاع فيه بين الناس، ولا يتطرق إليه احتمال ولا التباس، وفيها من رخص الأسعار، وكثرة الخيرات والثمار، والأشجار المنوعة الأزهار، والنخيل الكثير الزخار، مالا يختلف فيه اثنان، ولا ينكره إنسان، وأنها كثرة المرافق، بعيدة عن العوائق والبوائق، وهي بلدة تقبل من جاءها، وتونس الغريب إذا أتاها وقصد أرجاءها، واستمطر سماءها، وتنسيه في ذويه وأهله، ولم تال جهدا في لم شعته وجمع شمله، وكل الناس لهم حنين إليها واشتياق، لتيسر المعاش بها والأرزاق، وبها من الحدائق والجنات، والبساتين الموفرة الخيرات، والمتنزهات الفائقات، المتكفلة بالمسرات [170] والمبرات، مالا يوجد* في غيرها من مدن المغرب على الإطلاق، والعموم والاستغراق.

وأما ما هو بخارجها من ذلك فشيء يسبح المقال في بحره سبحا طويلا، ويرجع القلم عن بلوغ غايته قليلا، وحق لها أن تسمى شام المغرب، وتلقب بالأنيس المطرب، لكثرة ما بها وبقبائلها من أنواع الغرس وضروبه، والحرثة التي عمت قطرها ما بين شروقه وغروبه، فهي توسع البلاد مرافق وخيرات، وتمدها

بالمواهب الغير المتناهيات من سائر الجهات، فخيرها كثير، ورزقها يسير غير عسير، فمن وصلها لا تسمح نفسه بعد بفراقها، ولا تطاوعه في الانفصال عنها وطلاقها، فهي تألف كالمؤمن وتولف، وترأف وتشفق وتعطف، فالقلوب بها مستريحة، واعتقادات أهلها في جانب الله تعالى صحيحة، يقنعون بالقليل، ويعاملون بالجميل، ويتوكلون على الله الغني الجليل، وتلك الطباع فيهم مغروزة، وراياتها المرفرفة في ساحاتهم مركوزة، ولذلك ينسبون لكثرة الصلاح، ويرجى لهم النجاح والفلاح، وتلك السجايا سارية أيضا في قبائل أهل الحوز برمتها، على اتساع قطره وكثرة أمتها، وهم باقون على نهج العرب في رفع الهمم، ورعي الذمم، بخلاف غيرهم ممن لهم اختلاط بالعجم، * وفطرتهم منطبعة على بعض التغفل في أمر دنياهم، لكثرة ما يشاهدون من كون المنع والعطا من مولاهم.

وكانوا في الزمن الأول يتورعون عن الخطط السلطانية، ويتهاجون بها في السر والعلانية، حتى حملهم عليها أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه الله، وجرحهم إليها لمحبتهم له واعتقاده فيهم، لكونه عالما بشنشتهم، وصيانة ديانتهم، لطول مكثه بمراكش أيام كونه خليفة عن أبيه بها، فاستخير سرائرهم، وعرف ضمائرهم، ونشأ فيه جبههم، حيث ظهر له خيرهم، فأمر باستخلائهم فيما يليق بطباعهم وأفهامهم، فامتلأوا، ومنهم أناس كثيرون اتصلوا وتعللوا، فاحتمل — رضي الله عنه — لهم ذلك، وسلك مع كلا الصنفين أحسن المسالك.

ومما يذكر من الغرائب ويسطر، ويدرس في مجالس أهل الخير وينشر، أن رجلا من أهل مراكش يسمى الحاج عبد السلام العمري كان جعله مولانا الحسن رحمه الله أمينا على بعض البنيان بمرسى الجديدة، فذهب إليها وتنزه عن حيازة الأجرة على ذلك العمل، مدعيا أن الكفاية حاصلة له بمتاعه، فضاقت بذلك ذرع من معه من العدول والعرفاء، لانحصارهم في الأجرة المعينة ووقوفهم عندها، [172] وذلك خلاف المتعارف في مثل تلك * الخططة، فطار على ذلك شرهم، ونسبوا له ما لا يليق بمقامه، فكثرت شكواؤهم، وتواردت دعاؤهم، وهو مكب على شغله بالصدق والأمانة، ومستنكف عن طريق الغدر والخيانة،

إلى أن أراحه السلطان ماجورا، وبرضى الله ورضى رسوله مغمورا مبرورا، وأحسن الله عاقبته، ومات شهيدا بداء البطن وهو بالمسجد، رحمه الله وغفر لنا وله، وأين هذا الحال من أحوال وقتنا، فلو رأى ما نحن فيه من تقدمنا من إخواننا وأهلنا لجاهدونا، وتبرأوا منا وقومونا، عاملنا الله بستره الخفي، ولطفه الوفي، آمين.

وعلى كل حال فالغالب على أهل مراکش هو ما قلناه، وبيناه وشرحناه، وإن كانت الأحوال اليوم قد تبدلت، والطباع من أهلها تغيرت وتحولت، والخوارق ظهرت واستعلنت، واتسع الخرق على الراقع، وامتلأت من الفتوق وتقلبات الأعيان والملاحم والمسامع.

ومن طباع أهل مراکش الميل إلى الخمول، وقلة التظاهر بالثراء المؤثر في الجوارح والعقول، وكانوا في الزمن القديم كلما ازدادوا ثراء ازدادوا تسترا واختفاء، حتى كان من لا علم عنده يظن أكثرهم فقراء، وهم في المعنى أغنياء كبراء، ومن طباعهم الصبر على ظلم الحكام، وانتظار الفرج من الله [173] الملك *العلام، وكانت الاجابة تليهم سريعة، كأنها لهم مأمورة مطيعة، ولهم اعتقاد كبير في أولياء بلدتهم، وصلحاء جهتهم، ولو لم يكن لهم من السر الذي ظهر، وبان واشتهر، إلا قضيتهم مع عاملهم عام تسعة وثمانين ومائتين وألف لكفى، وذلك أن العامل كان يعاملهم على ما قالوا بالجور الصريح، والاعتساف الصحيح، مدة مديدة، وأعواما عديدة، إلى أن آل الحال إلى التجاوز إلى الحريم والأولاد، واستباحة الممنوع عند سائر العباد، والناس يتألمون لذلك ويتوجعون، ويتمزقون غيظا واسفا ويتقطعون، واشتهر ذلك اشتها الشمس في الوجود، وتبين حاله عند كل كائن موجود، فعيل الصبر وانقضى، وفات إبان التحمل ومضى، فأقاموا حججا كثيرة بذلك لا يمكن إلغاؤها، ولا يصح بحسب دين الاسلام إبطاها وانتفاؤها، ثم بعثوها لحضرة السلطان مع من انتخبوه من المرابطين، وأهل الخير والأعيان، متطارحين في عزله عنهم بعد أن نصبوا من يحكم بينهم ويمهد، ويقارب ويسدد، فوجدوه بأرض تادلا محاصرا لبعض عصاتها، وقبائل عتاتها، ورجعوا بخفي حنين، وبالعويل والأنين، وكانت [174] عاقبة الأمر أن أقلع السلطان عن تادلا في *الحين، وجاء إلى مراکش لتدارك

الأمر قبل أن يفوت ويحين، ودخل للمدينة على غير الوجه المعروف، واسقط المظل في ذلك اليوم المعروف بالتجمل والشفوف، ثم رد العامل لمكانته، وكلاؤه بكلايته، رغما على أنف من ألى، وأعرض بجانبه وثنا، لأن المباشر بلغ له الخبر مقلوبا، وكان في ذلك الحين على أمره مغلوبا، وصار الناس في خوف عظيم، وهم عريض ملهم، ووقعوا في حيرة أكبر من السماء، ورزية لا شيء فوقها من الدواهي والعناء، ووقع القبض على بعض الكبراء، ودخل الباقي لحرمت الأولياء، وضاعت عليهم الأرض، ما بين طولها والعرض، وبينما هم كذلك إذ مات العامل عن قريب، ووقع الفرج الغريب، ولم يمكث السلطان بعده إلا قليلا ومات في رجب عام تسعين ومائتين وألف، رحمه الله، وقد بلغنا أن السلطان وقف عليه في منامه القطب الرباني، والعارف الصمداني، مولانا عبد الله الغزواني، رضي الله عنه وأرضاه، ورأى أنه انتزع منه الطابع، وفي الصباح ذهب لزيارته، على خلاف المتعارف من عادته، فزاره بالخصوص ورجع، وتعجب الناس من هذا الشيء الذي صنع، ولم يلبث بعدها إلا قليلا، وكان أمر الله مقضيا مفعولا، وأخبر بعض الناس بأنهم علموا انقضاء مدته، وتمام [175] أيام سلطنته، * بإسقاطه المظل يوم دخوله للمدينة، لأن المظل من خواص السلطان، وبه أبهة الملك واشتاره في تلحم الأوطان، وسقوطه في ذلك الوقت الذي هو من المواطن المشهوده دل على شيء يقع في المنصب، والسبب في إسقاطه المظل هو أنهم قالوا له إنهم مترصدون للسلطان، وعازمون على الإيقاع به إذا ساعدتهم الامكان، وينبغي له أن يسقط المظل لينبهم شخصه ويختفي عنهم عينه، فاتبع رأيهم ومشى على قولهم، ودخل للمدينة كذلك، وذلك الذي توهمه السلطان جريا على قولهم لم يكن منه شيء في نفس الأمر وإنما هو سفسة وهذيان، وكذب وبهتان، وعند الله تجتمع الخصوم، والناس قاطبة يعلمون شدة الحرارة في أولياء مراكش وسرعة النهضة، وكم لهذه القضية من نظير.

ولندكر بعضهم تبركا بذكرهم، وتقربا إليهم، نفعلنا الله بهم، وجعلنا من المستظللين بظلمهم، اللائذين بجانبهم، وإن كان الاتيان بأسمائهم خاليا في الغالب عن تواريخهم، والتعرض لأنسابهم، لأن ذلك لم يحضرني منه كتاب، ننقل منه كل ما يستطاب، وأولياء مراكش كثيرون جدا لا يمكن إحصاؤهم،

ولذلك شاع وذاع عند الناس أن مراکش فيها كل قدم بولي، كما أن فاسا — [176] صانها الله من كل بأس — * ينبع (4) العلم من صدور أهلها كما ينبع الماء من حيطانها، ولم نزل نسمع هذه الكلمة من الناس الاخيار من صغري إلى كبري، نفعا الله بهم وبأمثالهم آمين ولنات — أولا — بالأولياء السبعة رجال المشهورين بهذا الاسم في تلك البلاد على حسب ترتيبهم في الزيارة، لأنهم قالوا: إن من زارهم على هذا الترتيب تقضى حاجته، وتيسر رغبته، فأولهم سيدي يوسف بن علي رضي الله عنه، المدفون قبالة باب أغمات خارج المدينة بينه وبين الباب نحو الخمسين خطوة، وقد ذكره في «الاستقصا»، وبين تاريخ وفاته وهو سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة في شهر رجب منها، وله مناقب وكرامات، ومقامه حفيل عليه من الأنوار والبهاء ما دل على سعادة صاحبه وثبوت ولايته، وبه مقابر عديدة لبعض الأعيان، منهم الفقيه الوزير السيد محمد الصفار التطواني، والفقيه الشريف مولاي العباس بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام، والفقيه الكاتب الحي السيد محمد بن داني الكبير، والسيد البشير بن الوزير السيد موسى بن أحمد وغيرهم، رحم الله الجميع، ومما هو مكتوب على باب قبته

أنا القبة التي أنالفت بحسنا والقت طراز الفخر زهوا على الغرب
وما تذكر القباب أي بينها كبدر الدجى وهم حولي كالشهب
وبالقرب منه مقبرة باب أغمات المشتعلة على ما لا يحصى من مقابر الأولياء، والعلماء والأتقياء، والصلحاء الأخيار، الأجلة الأبرار، وهي بقيع [177] مراکش، ولهم * اعتقاد كبير فيها، لما اشتملت عليه وضمته من أجساد الأولياء رضي الله عنهم قديما وحديثا، وما رأيت أكبر منها بالمغرب قاطبة، ولها فضل عظيم، ويمن جسيم، وهي مسورة من جميع جهاتها، ولها بابان واحد من جهة باب أغمات، والآخر من جهة باب أحمر، رحم الله من فيها، وغفر لنا ولهم.

ويليه في الزيارة الولي الصالح، القطب الواضح سيدي القاضي عياض، صاحب «الشفاء في التعريف بحقوق المصطفى»، دفين حومة باب

(4) ينبع من باني قعد وتفع. «مصباح»

ايلان داخل المدينة قريبا من الباب المذكور، ومقامه له مزيد احترام وتعظيم، والأنوار لاثثة عليه، والقبول يرفرف بين يديه، والسمت الحسن ظاهر فيه، وللروح والجسم انتعاش وانشراح بالدخول إليه، ولا زالت القبة المبنية على قبو المقدس على حالها الأول، لم يتغير منه شيء ولم يتحول، وهي صغيرة بالنسبة لقباب غيره من السبعة رجال، وبلصقتها مسجد صغير بإمام راتب، رضي الله عنه ونفعنا به، وكانت وفاته يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة وقيل في شهر رمضان، سنة أربع وأربعين وخمسمائة في دولة عبد المومن بن علي.

ويليه في الزيارة قطب الرحي، وشمس الضحى، ومعدن الصلاح والفلاح [178] والجود، والكرم والبذل الموفور المحمود، الرجل الصالح، والغوث *الواضح، الصادق في محبة الله تعالى ومحبة الرسول، المنفق من بحر فضل الله على خلق الله فنال المنى دنيا وأخرى وغاية السؤل، صاحب السر الظاهر، والكثر الوافر الباهر، والكرامات العديدة، والمناقب الغزيرة الحديثة والجديدة، أبو المساكين والفقراء، والمحايج والضعفاء، وأهل العاهات صغارا وكبراء، حبيب الناس، وضوء النبراس، الشيخ الواصل، العامل الكامل، سيدي أبو العباس، المعروف بالسبتي، نفعنا الله به فيما مضى وفيما يأتي، دفين الزاوية العباسية داخل المدينة قرب باب الخميس الذي هو أحد أبوابها، وله مقام حفيلى، مكرم جليل، وفيه انوار تبهى العقول، وتعيى وصفها ونعتها الأقلام والنقول، وأحزاب قرآنية تقرأ في طرفي الليل والنهار، وأذكار مرصعة بجواهر المعاني والأسرار، ويواقيت الصلاة على النبي المختار، وآله البررة الكرام الأخيار، وفتوحات تأتي من كل فج عميق، من كل وجه ومن كل طريق، وزراني مبثوثة، وشموع فوق أرائك منعوتة، ومصانع منحوتة، ومصابيح يلوح نورها من بعيد، كأنها نجوم وبلدها ضريحه المقدس السعيد، وذبائح كثيرة من جميع أنواع النعم، لا يمر وقت إلا بإراقة الدم في بابه السعيد المكرم، وحوله بيوت لسكنى الفقراء [179] *كثيرة، وانفساح كبير برحابه المنورة الشهيرة، وبحرمه الشريف مسجد جامع كبير، يفوح شذاه بالمسك العبير، وفيه رونق وبها، وأنوار تكامل الحسن فيها وانتهى، وفيه أشجار النارج على نهج الأقدمين رحمهم الله، فزادته حسنا وجمالا لا حد له ولا تناء، وله صومعة وقفت على أساس التعظيم والتفخيم، والمنظر البهي الكريم، وفيها محل للميقاتي الذي يرصد الأوقات، لسائر

الصلوات، وبلصق قبه الشريفه التي ضمت جسده الكريم على يمين الداخل إليها من ناحية الغروب مقبوه عظيمه محترمة باحترامه، ومنوره بأنواره، ومتوجه بأسراره، ولها مدخل خاص خارج عن الحرم، وفي حائط القبة الموالي لها شرجب أي كوة عظيمه مطل عليها ترى المقبوه منه، وبجانب القبر الكريم قبران يكتنفانه ومتصلان به، ولعل أحدهما قبر الامام القصار، كما كنت وقفت عليه في نشر المثاني، ومن المدفونين بصحن القبة المنوره الشريف الأصيل، الماجد الأثيل، المسن البركة، مولاي محمد — بفتح الميم الأولى — بن الحسين الصفريوي، المستوطن قصبة النحاس داخل القصبة المنشية بمراكش، وتاريخ وفاته لم يحضرني الان، وهو عندي بمراكش، وعلى كل حال فقد مات في أيام [180] أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله، وأدى عنه الديون، ودفن هنالك * بأمره، وكان يقول إنه صاحب أبي العباس السبتي واشتهر ذلك عنه، ولذلك دفن هنالك، وهو شيخ أبيض اللحية والرأس، ربة للقصر، متفاهم الأسنان، غليظ الأنف، واسع العينين، أشيب الحاجبين كثيفهما، ضليع الفم، يميل قليلا إلى السمرة، كبير الهامة، أصلع، سبط اللحية، وكان يكتحل بالاثمد كثيرا، يعرفني ونعرفه، وكان الناس يعتقدونه، رحمه الله ونفعنا بالجميع.

وللشيخ أبي العباس أحباس كثيرة تدخل منها أموال عريضة تفضل على اللوازم، وتشتري من تلك الفضلة الأصول والعقار، ولاسيما إن كانت بيد الثقة، ومدخول فتوحات الربيعه التي عند قبو كثير جدا، ويوجد فيها الذهب والفضة الكثيرة والفيلس التي لا نهاية لها، وكَم من مرة تعمر وتفرغ في اليوم مرتين وثلاث، وهي كبيرة فلا يحملها إلا إثنان من الناس الصحاح، ما رأيت مثلها في الكبر فيما عاينته بأضرحة غيو من الأولياء، وما علمت مقاما كمقامه في كثرة المدخول، وفيه نفع كثير للمسلمين، رضي الله عنه وأرضاه، وجعلنا في حماه، آمين، وكانت وفاة الشيخ أبي العباس السبتي — رضي الله عنه — سنة احدى وستائة، يوم الاثنين الثالث من جمادى الأخيره، وكان [181] جميل الصورة أبيض اللون، حسن * الثياب، فصيح اللسان، قادرا على الكلام لا يناظره أحد إلا أفحمه، حليما صبورا عطوفا، برا باليتامي والمساكين رحيماً بهم، ويحض على الصدقة ويأتي بما جاء في فضلها من الآيات والآثار، فتتثال

عليه من كل جانب فيفرقها على المساكين وينصرف، إلى آخره، رضي الله عنه ونفعنا به.

وبليه في الزيارة شيخ الشيوخ الأكابر، الولي الصالح الشهيد الصابر، قطب الأقطاب، ومذهب الأدران والأوصاب، صاحب دلائل الخيرات، ومعدن الصلاح والفلاح والبركات، الفجر الطالع، والنور الساطع، والفخر الجامع المانع، الغوث الكامل، والشيخ العالم العامل، ذو الصريحين، وذو المقامين، فريد الزمان، ووحيد الوقت والأوان، وينبوع الكرم والجود والعرفان، عين أعيان الأعيان، حبيب الله وحبيب المصطفى، الراقي في معارج الوفاء والمودة والصفاء، مربى المريدين، ومنيل رغبة القاصدين، من ظهرت كراماته، وطلعت كمطالع السعود علاماته، وكانت في الله حركاته وسكناته، ولهجت بذكره أهل المغرب وأهل المشرق، وتشبثوا بذيله المنير المشرق، والشریف الحسيب النسيب الأريب، الورع الناسك، الزاهد السالك، غرة الأولياء، ونخبة الاتقياء، [182] نادرة الزمان، الشيخ الكبير * الشهير، سيدي محمد بن سليمان، المعروف بالجزولي، دفين رياض العروس بعد نقله من بلاد افرغال بقبيلة حاحا عن نحو ثمانين سنة من وفاته، رضي الله عنه، وقد كنت رأيت في شرح دلائل الخيرات لسيدي المهدي الفاسي رحمه الله، أن الشيخ الجزولي هذا لما مات دفنوه في بلاد افرغال من قبيلة حاحا، ثم نقله من هنالك بعض الملوك بعد وفاته بثمانين سنة وجاء به إلى مراکش ودفنوه برياض العروس منها، قال ولما كشفوا عن وجهه الكريم الفوه صبيحا منعما مورد الخدين، فوضع بعضهم أصبعه على خده وأنحصر الدم هكذا وهكذا، وحيث رفعه رجع الدم لمحله لم تعد عليه الأرض، ولم يتعير عن هيئته.

وقد ساق هذا الخبر في الاستقصا، وبين العلة في النقل، فلينظره من شاء، ولا زال مقامه الأول الذي نقلوه منه معظما محترما مبنيًا على هيئته أضرحة الأولياء، وبه مسجد، ولأهل ذلك المحل عناية به واعتناء، وكنت رأيته من بعيد لما وصلت إلى تلك البلاد عام تسعين ومائتين وألف، وشق علي الوصول إليه، لأن البلاد صعبة المراقي والسلوك لكثرة ما بها من الحبال والأحجار، والأشجار والأنهار، ولأن الوقت كان مخوفاً، فزرت من بعيد، [183] * وتمثلت بقول القائل السعيد

انا اقمنا على عذر وعن قدر ومن اقام على عذر كمن راحا
وبين قبيلة حاحا ومراكش أربعة أيام متوسطة في ناحية الغروب،
ومدينة الصويرة جاءت في حدود أرض حاحا، وحاحا قبيلة كبيرة وأرضها
ذات خيرات، وزروع وضروع وأشجار وأنهار وبناءات فاخرات، ومياه
متكاثرات، وغايته أنها من القبائل الكبار في الحوز، وفيهم دين متين، وشأنهم
شأن عظيم.

ولنرجع إلى ما كنا فيه فنقول وللشيخ الجزولي بمراكش مقام جليل،
رائق جميل، فيه من البهاء والنور، ما تزين به الشمس والبلور، وتشرح به
القلوب والصدور، ويتجدد السرور والحبور، وتقضى الحوائج وتيسر الأمور،
وبه مسجد جامع بهيج، مبارك عظيم أريج، وفيه أنوار تغلو وتروح، وبهجة
حسنها دائما يلوح، لا تفي به الأقوال والشروح، وبصحنه أشجار النارج
الظريفة، فزادته محاسن ومشاهد لطيفة، وظلالا رخيمة وريفة، تصلى فيه
الجمعة وسائر الصلوات، وينشر العلم الشريف فيه في كل الأوقات، وقبته على
أحسن ما يكون لأن الملوك اعتنوا بها وجددوها، وزوقوها ونمقوها، وصار فيها
[184] * من الحسن والرونق والسر ما لا يمكن وصفه إلا بالمشاهدة، وله احترام عظيم
بمراكش، بل وفي غيرها من سائر الأقطار، وخصوصا أهل حومته فإنهم
يعظمونه كثيرا، ويتدارسون مناقبه الكريمة وكراماته الفخيمة، ويلهجون بذكره،
ويتمسكون بذيل ستره، وتلك الحومة كانت كلها حرما آمنا، فمن دخلها أو
سكنها فإنه آمن في نفسه وما له وسريه، ومن تجرأ على من فيه بظلم فإنه لا
محالة لا ينجو ولو بعد حين، كما ذلك مشاهد معلوم، وعلى كل حال فمقام
الشيخ الجزولي كبير، وحرمة المبارك عظيم شهير، ومناقبه لا تحصى، وكراماته لا
تستقصى، ومن أراد الاطلاع عليها فعليه بكتاب «ممتع الأسماع بمناقب الجزولي
والتابع وما لهما من الأتباع»، ولو حضرنى لنقلت منه ما يناسب المقام، رضي
الله عنه وأرضاه آمين، وكانت وفاته رحمه الله تعالى سنة سبعين وثمانمائة
مسموما في صلاة الصبح، ودفن بتاصروت بعد نحو عشرين سنة من موته،
وإنما كان في تابوت على وجه الأرض، ثم نقل بعد إلى مراكش ودفن برياض
العروس منها حسبما تقدم.

[185] ومن المدفونين بحرمه الشريف الفقيه * العالم العلامة الفصيح البليغ

الفهامة، نادرة الزمان، وفريد العصر والأوان، البارع الأريب الأمثل، الحبي المعظم المبجل، الأوحد، الأجل سيدي الحاج محمد — بفتح الميم الأولى — المعروف بأزنيط رحمه الله، وقابلنا وإياه بمحض فضله، وقد كانت له محبة تامة في الشيخ الجزولي، وكان يسكن بحرمه الشريف، وهو إمام الجمعة بمسجده المبارك وخطيبها، والمتولى لنشر العلم فيه ليلا ونهارا، وكان طيب الأخلاق، حلو المفاكهة، فصيح اللسان، سلس العبارة، ظريف المنزع، وكان عظيم الحثة بطينا ربعة للقصر، ضخم الكراديس، أبيض يميل قليلا إلى الصفرة، خفيف العارضين خالطه الشيب، براق الثنايا منور الوجه مليح الصورة، ولما مات رحمه الله تولى ولده الفقيه السيد عمر الامامة والخطبة بالمسجد المذكور في محل أبيه، وفق الله الجميع بما فيه رضاه آمين.

وبلي الشيخ الجزولي في الزيارة مريده الصادق، وتلميذه الجليل الفائق، والولي الصالح شيخ الشيوخ، ومعدن العرفان والرسوخ، ذو الكرامات الوافرة، والمناقب الكثيرة الفاخرة، الشيخ الكبير النفاع، سيدي عبد العزيز التابع، [186] دفين الثلاثة فحول رضي الله عنه وأرضاه، ونفعنا به وبأمثاله، آمين، ومقامه* مقام حفييل مكسو بالبهاء والنور، والسر الموفور المشهور، والرونق الذي لا يبلى قشيبه على مر الأيام والدهور، وقد اعتنى به أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه الله وبدل أسلوبه وزاد فيه ونقص، وصيروه على هيئة أفضل وأحسن من الهيئة الأولى بكثير، ووسع نطاق حرمه الكريم العبيق أرجه بالمسك العبير، وحول الطريق التي كانت تمر بحرمه وصيرها لناحية أخرى، وطهره من ممر الكفار الأشرار، أجزل الله ثوابه وتقبل عمله وانزله منازل الأبرار، غير أن ذلك لم يكمل إلا في أيام ولده أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز، بواسطة الوزير الأجل الفقيه السيد أحمد بن موسى بن أحمد رحمه الله، فجاء على أحسن ما يكون بهجة ورونقا وإشراقا، وأوسع ساحة ونطاقا، وحق أن يتلى عليه المثل السائر كم ترك الأول للأخر، وبلصقه مسجده ألبي، الحائز من الكمال السر الشهي، وفيه أشجار النارنج فزادته حسنا وابتهاجا، ورونقا ناصعا وهاجا، ولأولاده سر ظاهر في علاج المرضى، وحصول المعافاة والشفاء ببركة أيديهم البيضاء، وذلك مشهور معلوم عند أهل مراکش، فما يباشروا مريضا إلا وآتاه الفرج بالبرء عيانا، وذلك واضح لانتاج فيه برهانا، ومناقبه أكثر من أن

[187] تحصى*، فقف عليها في «ممتع الأسماع»، إن أردت أن تعرف قدر هذا الولي النفاع، رضي الله عنه وجعلنا في حماه، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة أربع عشر وتسع مائة، رحمه الله ونفعنا به آمين.

ومن المدفونين بمقامه المبارك الفقيه السيد محمد بن سليمان الفاسي أصلاً ومنشئاً، المراكشي داراً ووفاة، وقد سمعت من طرق عديدة أنه رأى في نومه كأن والده جاء به إلى قبة الشيخ التباع وعقله فيها، وضرب عليه كبلاً وأبقاه بها، فعبرها هو لنفسه بكونه يموت ويقبر هنالك، فكان الأمر كذلك، بقدرة الله تعالى، وأخوه وزير البحر الفقيه السيد عبد الكريم بن سليمان هو الذي سعى في دفنه ثمة.

ومن المدفونين بالصحن الفقيه السيد محمد بن الفقيه الكاتب العلامة السيد عبد الرحمان بن محمد الشرفي الفاسي، رحم الله الجميع، آمين.

ويليه في الزيارة مريده الناصح، وتلميذه الولي الصالح، القطب الرباني، والغوث العارف الصمداني، سيدي عبد الله الغزواني، منحنا الله ببركته غاية الأماني، بجاه النبي العدناني، دفين حومة القصور، وله مقام جليل، يرد [188] الغليل، ويشفي العليل، وفيه بهاء وأنوار، ومعاني وأسرار، *تدركها أولوا البصائر والأبصار، وحرمة الشريف عظيم، وشأنه المكرم فخم، وهو مشهور بسرعة الاجابة، وسماع دعاء الانابة، فصار لأجل ذلك مقصوداً عند الناس، في حالتي السراء والبأس، وله هبة في القلوب، وتأثير يرتعش من جلالاته الطالب والمطلوب، وبجواره مسجدان من حساب حرمة، وتحت ظل رأيته وعلمه، وغايته فكرامات الشيخ الغزواني كثيرة، ومناقبه جليلة شهيرة، وقد تكفل بها كتاب «ممتع الأسماع»، ويكفي منها أنه كان أول أمره بفاس، وله زاوية بها بناحية رأس قلعة، وكان له تلامذة وخدام، وجرى بينه وبين سلطان الوقت ما ألجأ الشيخ إلى الذهاب إلى مراكش، فتبعه تلامذته واستوطنها، فكانت دار قراره، وسماه نجومه وأقماره، ولما كان خارجاً من فاس قال يا سلطنة اتبعيني إلى مراكش فكان كذلك، فإن السلطان المذكور وقتئذ كان من بني وطاس فرقة من بني مرين، وكان كرسي ملكهم ومحل استقرارهم بفاس، فثار عليه بعد تلك المقالة الشرفاء السعديون بنواحي مراكش، وفتحوا أكثر بلاد الحوز

[189] وحاصروا مدينة مراكش وأخذوها، فتوجه لهم السلطان الوطاسي من فاس بجيوش كثيرة وأنشأ الحرب معهم، وخرج الناس من *المدينة للتفرج على القتال وخرج في زمرتهم الشيخ الغزواني من باب الخميس، وبينما هم كذلك إذ جاءت رصاصة من مدفع وضربت في صدر الشيخ، فخرقت ثيابه وحيث وصلت لحمة تقرصت كأنها ضربت في صخرة صماء ولم تعد عليه بشيء، فأمسكها بيده وقال هذه خاتمة حربهم ثم رجع، وفي تلك الليلة ورد الخبر على الوطاسي بأن بعض أقاربه قام عليه بفاس طالبا للملك، فانشئ من الغد راجعا إلى فاس، ولم يعد بعد إلى مراكش، وآل الأمر إلى ثبوت السلطنة للسعديين وخروجها عن الوطاسيين كما قال الشيخ رضي الله عنه، ومن كراماته — أيضا — أن مريده الشيخ الصالح سيدي عبد الله بن حسين دفين تمصلوحت قرية كبيرة قرب مراكش بنحو ساعتين من ناحية غروبها، كان قد استوطن تمصلوحت بأمر شيخه الشيخ الغزواني وكانت خبرة وقتئذ، فسكنها ثقة بشيخه واعتمادا على قوله، وكانت له بقرة يتعيش بلبنها، فمر بعض العمال يوما بتمصلوحت وهو ذاهب إلى مراكش عند السلطان فعثر على البقرة وحدها في المرعى فأخذها، ولما تفقدها رها ولم يجدها ذهب إلى مراكش لاستقراء خبرها، فذهب إلى بعض الناس وأخبره بالواقع، فقال له اذهب إلى شيخك الذي [190] أمرك بالسكنى بتلك القرية الخربة، فذهب *إلى قبو واشتكى عليه وبكى وتضرع بين يديه، ثم ولى راجعا لتمصلوحت، ولما وصل باب الرب أحد أبواب مراكش وكان خارجا منه وجد العامل واقفا بالباب والبقرة بيده ينتظره بها، فجعل يصوب بصره إلى البقرة ويصعده، فقال له العامل هل أنت عبد الله بن حسين صاحب هذه البقرة ؟ فقال نعم، فقال له خذ بقرتك في حفظ الله، فقال له ما السبب في اتيانك بها بعد أخذك إياها، فقال إني رأيت في المنام الشيخ الغزواني وبيده سيف وقال لي رد البقر إلى رها عبد الله بن حسين وإلا قصمتك بهذا، ولعله قال رآه ثانيا كذلك وثالثا، قال فقلت له يا سيدي وأين عبد الله ابن حسين ؟ فقال لي انتظره في الباب فإنه سيأتيك، فانتبهت مرعوبا وهاك بقرتك، فقال له الشيخ ابن حسين اصبر حتى آتيك، ورجع وأخبر الذي أمره بالشكاية على شيخه بأنه اشتكى عليه ووجد البقرة بالباب، فقال له يقدر ذلك العربي عليها، ثم حاز بقرته وذهب لمحلته مجبور

الحال، منعم البال، رضي الله عن أوليائه الكرام، أئمة الهدى ومصابيح الظلام، انتهى بالمعنى حفظاً من «المتع»، فعليك به تقف على عجائب وغرائب من [191] أخبار هذا * الولي الجليل، جعلنا الله في حماه، وكانت وفاة الشيخ الغزواني رضي الله عنه سنة خمس وثلاثين وتسعمائة، رحمه الله ونفعنا به، آمين.

ومن المدفونين بمقامه الشريف — عند عتبة قبته المنورة عن يمين الداخل إليها — والدنا رحمه الله، المتوفى عام ستة وثمانين ومائتين وألف، ونص ما هو مكتوب على قبره «الحمد لله حق حمده، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبيه وعبد، هذا قبر الفقيه العلامة، الدراكة الفهامة، الوزير الأعظم الصالح، الجاري في ميدان المنافع والمصالح، سيدي الطيب، ابن الفقيه الكاتب النزيه الخير سيدي اليماني الخزرجي المدعو بابن أبي العشرين، وقد استأثر به الله جلّت قدرته، وعظمت سطوته، ووسعت رحمته، في الرابع عشر من شعبان الأبرك، عام ستة وثمانين ومائتين وألف، جعله الله في زمرة الصالحين، أهل الثبات واليقين، آمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين»، وكانت لوالدنا محبة عظيمة في جانب الشيخ الغزواني واشتياق كبير إليه، فجذبتة المحبة إلى أن دفن بمقامه الشريف بينه وبين القبر الكريم نحو ثلاثة [192] أذرع، وبلصق قبر والدنا من ورائه قبر حظيته المرأة * الياقوت، والمتوفاة قبله بنحو عشرة أعوام، وهو الذي دفنها — باختياره — في ذلك المقام، لمحبة لها وشغفه بها، رحمهم الله أجمعين، ومن المدفونين بداخل قبته المبجلة على يسار الداخل إليها، الشريف الغطريف مولانا علي، نجل أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام، وبجانبه قبر والدته رحمهما الله تعالى.

ومولانا علي هذا كان ذا حظوة واعتبار عند أبيه وإخوته وبني عمه، وكان خليفة أي نائباً بمراكش نحو العامين عن أخيه أمير المؤمنين سيدي محمد أول سلطنته لمغيبه بفاس، فزادت بذلك نخوته، وعلت همته، ولما رجع أخوه لمراكش استبدله بولده مولانا الحسن قدسه الله، وأسكن أخاه مولاي عليا بالكتبيين قرب مسجدها الأعظم، فبقي هنالك مقتصرًا على خويصة نفسه، وكان لا يخلو بحسب القرائن من ترقب وانتظار، وإتيان وقت يتبين فيه الليل من النهار، وكان العلماء وأهل الحوائج والطماعون يقصدونه، ويبشرونه ويعلمونه، وربما كان يصغى إليهم، ويميل إلى قولهم، ثقة بما لديهم، فكان ذلك من أسباب

[193] ما قاساه من الشدائد، ولم يصح ما بشر به، وكان من قبيل الخرافات، التي حفت بالعاهات والأفات، والعياذ * بالله تعالى، وقد قيل إنه مات مسموما والعلم لله تعالى، فمن جملة الموبقات الواقعة له قضية قيام أهل مراکش على عاملهم عام تسعة وثمانين ومائتين وألف وخروجهم عنه، فنسب الوشاة ذلك له قائلين إنه الذي أغراههم، ليجد السبيل لاعطائه البيعة وتصييه سلطانا، ولذلك لما ورد السلطان بإثر الواقعة إلى مراکش كان صدره ضيقا حرجا من جهتهم، ولم يسمع لهم كلاما، ولا رضي منهم سلاما، وذلك كذب وزور، وبهتان عظيم مهجور، إذ لو كان حقا لأبرزوه للوجود، لأنهم لما قاموا على العامل كان السلطان غائبا عن مراکش، وكان خليفته المعترف بمراكش — وهو ولده مولاي الحسن — غائبا أيضا عنها، فكان المحل فارغا، وأي شيء صدهم عن المراد مع هذا، بعد كون السبب في خروجهم عن العامل هو الاغراء من المذكور، وإذ لم يفعلوا ذلك في أول الأمر فلماذا لم يفعلوه حين رجع وفدهم من عند السلطان خائبا، ولذيل المذلة والمهانة ساحبا، فكانت الفرصة ممكنة في ذلك الوقت لو كانت هي منيتهم وبغيتهم، وما ذاك إلا محض سفسطة وقلب الحقيقة للسلطان، فمن بلغ إليه خبر الواقعة غيرة على العامل حيث إنه [194] الذي أشار به ونصبه، وقد تقدم ما فيه * الكفاية في القضية.

ومن جملة موبقاته قضية الرجل المعنوه الذي دعا له بالنصر ثلاث مرات بأعلا صوته عند صلاة الجمعة بالمسجد الأعظم بالكتبيين، والسلطان حاضر به وسمع ذلك بإذنه، وسمعه كل من في المسجد، وذلك أن مولانا الحسن أمير المؤمنين كان له ولوع أول سلطنته بصلاة الجمعة في جامع الكتبيين، وكان يخرج له من باب برجة على حال لا شيء فوقه من ضخامة الملك وأبهة السلطنة، واستمر على ذلك مدة إلى أن قام ذلك المعنوه يوما، ودعا بالنصر لمولانا علي جهارا على رؤوس الناس في داخل المسجد بعد الخطبة وقبل الاحرام بالصلاة، فوقع القبض عليه في الحين، لأن الدعاء بالنصر في عرف أهل المغرب خاص بالسلطان، ولما تمت الصلاة وخرج السلطان من المسجد ألفاهم واقفين به عند الباب، فأمرهم بالمشي به إلى دار المخزن، وفي تلك الساعة وجه على العلماء واستفتاهم فيه، فحكموا بتأديبه دون القتل، والقتل كان مراد السلطان على ما قالوا، فسجن وعذب عذابا أليما، وقرر عمن أمره

بذلك وما أقر بأحد، ثم مات عن نحو ثلاثة أيام، وقد قيل إنه معتوه مختلط المزاج، ومن ثم لم يعد السلطان للصلاة في ذلك المسجد إلى أن لقي الله [195] تعالى، *وأما ما كان من أمر مولاي علي فإن السلطان وجه عليه لدار المخزن في الحين، ووبخ وعوقب وعددت عليه المثالب المسموعة عنه، ففترأ من ذلك وتنصل، وحضر المصحف الكريم وحلف فيه يمينا مغلظة على براءة ساحته مما رمي به، وعلى أن ذلك إنما هو عمل باليد، وما تفلت من تلك الشدة إلا بعد أن اعتقد أنها آخر العهد به، وما رجع لداره إلا قرب نصف الليل كأنه بعث بعد الموت، وأيس منه أولاده وأهله، وأنهم عليه لشدة ما اعتراه من الخجل والفضيحة فرضه ونفله، ووقع له غير ذلك مما يطول تتبعه، والله تعالى أعلم، رحم الله الجميع، وتجاوز عنا وعنهم بحاج النبي الشفيع، آمين.

وبلي الشيخ الغزواني في الزيارة الولي الصالح، العالم العلامة، القلوة الفهامة، الشيخ الامام، العارف الهمام، أبو القاسم وأبو زيد سيدي عبد الرحمان السهيلي الخثعمي، دفين باب الرب خارج المدينة بلصق سورها عن يمين الخارج من الباب، وله قدر كبير، وجاه عريض شهير عند أهل مراكش، وهو محاب الدعوة، وله هذه الأبيات، ويقال ما سأل الله بها سائل إلا أعطاه كما في ابن خلكان والاستقصا وغيرهما، وهي

يا من يرى ما في الضمير ويسمع	أنت المعد لكل ما يتوقع
*يا من يرجى للشدائد كلها	يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن	أمن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة	فبالفقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرع لبابك حيلة	فكن رددت فأني باب أقرع
ومن الذي أدعو وأهتف باسمه	إن كان فضلك عن فقيرك يمنع
حاشا مجدك أن تقنط عاصيا	الفضل أجزل والمواهب أوسع

انتهى.

وعلى مقامه طلاوة، وله في القلوب والعيون بهاء وحلاوة، وقد اعتنى بمقامه أمير المؤمنين سيدي محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن ابن هشام رحمهم الله، وبناه ونمقه ووسعه وصيروه على أحسن ما يكون، وجعل له قبة كبرى جيدة بهية فارحة عالية، بعد أن هدم القبة التي كانت عليه لصغرها

وتلاشيها، وكونها لانضارة فيها، جزاه الله خيرا وتقبل عمله، وذلك على يد القائد ابراهيم الجراوي باشا القصبة المنشية رحمه الله، وبوسط صحنه الفسيح شجرة واحدة من شجر التارنج، غرسها بيده صاحبنا الشريف مولاي أحمد بن العربي الدمناتي مؤدب أولادنا ومقرئهم رحمه الله تعالى، فزادت لذلك الحرم بهاء وحسنا، ورونقا رقيق المعاني والمبنى، وحوله مقبرة كبيرة جدا ما علمت [197] أكبر منها بعد مقبرة باب أغمات، ومن *المدفونين بها الفقيه العلامة الكنسوسي، صاحب «الجيش العرمم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي السجلماسي»، وولده الأديب الشاعر الناصر حريري وقته السيد عبد الله الكنسوسي، والفقيه الشاعر ابن الطاهر عامل مراکش بعد عزل القائد الأجل الخير السيد أحمد بوسته عنها، ومؤدبنا الفقيه البركة الصالح الخاشع الحبي السيد علي رزكو رحمه الله، وكان يحبني كثيرا ويقدمني، والشريفة السباعية والدة كبار أولادنا بوصية منها، المتوفاة بداء الطاعون في أواخر ذي الحجة الحرام ختام عام خمسة وتسعين ومائتين وألف، رحمها الله وغفر لنا ولها، آمين، وقد كانت من العابدات، القانتات الصالحات، وكانت تحفظ ما تيسر من القرآن العظيم والد عوات الرائقات، وتقرأ المكتوب، وتخشى من علام الغيوب، ولم تنزل في زيادة من دينها إلى أن استأثر الله بها في التاريخ المذكور، أثابها الله الجنة بغير حساب، ولا مناقشة ولا عتاب، ومن المدفونين بداخل قبته المعظمة الشريف الحسيب، مولاي موسى بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمن بن هشام رحمه الله، ومن المدفونين بصحنه المنور الباشا القائد ابراهيم الجراوي، وصاحبنا الشريف العفيف الحسيب، النسب الأريب، العدل الحبيبي سيدي محمد بن [198] هاشم العلوي مستوطن *القصبة المنشية، رحم الله الجميع، وجعلنا وإياهم في حماية النبي الشفيع، والامام السهيلي به تختم زيارة السبعة رجال، أولهم سيدي يوسف بن علي، ثم القاضي عياض، ثم الشيخ أبو العباس السبتي، ثم الشيخ الجزولي، ثم الشيخ التباع، ثم الشيخ الغزواني، ثم الامام السهيلي وهو الختام، لأولئك الأجلة الكرام، ويقال إن من زارهم على هذا الترتيب قضيت حاجته، وتيسرت رغبته، وقد كنت رأيت أبياتا في مناقبهم، والحض على زيارتهم، بحسب هذا الترتيب الذي هو السر المكتون، والكنز المدفون، لم يبق على بالي منها إلا بيت واحد وهو

فزرهم على الترتيب في كل حاجة يسهلها المولى وعنك يدافع
رضي الله عنهم ونفعنا ببركهم، وجعلنا في حماهم وتحت حياتهم، وظل رايتهم،
أمين، وكانت وفاة الامام السهيلي — رحمه الله — سنة احدى وثمانين
وخمسمائة.

وأول السبعة رجال موتا القاضي عياض، ثم الامام السهيلي، ثم سيدي
يوسف بن علي، ثم الشيخ أبو العباس السبتي، ثم الشيخ الجزولي، ثم الشيخ
التباع، ثم الشيخ الغزواني، رضي الله عنهم ونفعنا بهم، أمين، وترتيبي لهم الآن
في الذكر أنما هو على حسب الترتيب في زيارتهم، لا على حسب وفياتهم.

وبمراكش أولياء كثيرون لا حصر لهم، ولنذكر بعضهم تبركا بهم ومحبة
فيهم، ولو كان ذلك خاليا عن كراماتهم، ومناقبهم ووفياتهم، لأن ذلك قد
تكلفت به الكتب الموضوعة في هذا الشأن، وليس عندي الآن شيء منها
لغرتي، وانتقالي عن أهلي وبلدي، وأرجو ببركهم تيسير أوتي، ونجاح رغبتني
[199] و*إجابة دعوتي، عن قرب قريب، وفضل كبير عجيب، إن ربي لسميع
الدعاء، والمكمل لمن ارتجاه الرجاء.

فمنهم الشيخ أبو عمرو القسطلي دفين رياض العروس، رضي الله عنه،
وله مقام حفيل، ومسجد بهي جميل.

ومنهم سيدي أحمد السوسي رضي الله عنه، وهو قريب من رياض
العروس.

ومنهم الشيخ أبو العباس ابن العريف دفين سوق العطارين رضي الله
عنه. ومقامه كبير، وشأنه عظيم شهير، وكانت وفاته بمراكش ليلة الجمعة أول
الليل، ودفن يوم الجمعة الثالث والعشرين من صفر، سنة ست وثلاثين
وخمسمائة، وقد كان سعى به إلى أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن يوسف بن
تاشفين فاحضروا إليها، فمات واحتفل الناس بجنائزته، وظهرت له كرامات فندم
على استدعائه، ومن شعره رحمه الله تعالى ورضي عنه ونفعنا به

شدوا المطايا وقد نالوا المنى بمنى وكلهم بألم الشوق قد باحـا
سارت ركائبهم تندي روائعها طيا بما طاب ذاك الوفد أشباحا

نسيم قبر المصطفى لهم روح إذا شربوا من ذكره راحا
يا واصلين إلى المختار من مضر زرم جسوما وزرنا نحن أرواحا
إننا أقمنّا على عذر وعن قدر ومن أقام على عذر كمن راحا
من بعض تقاييدي ولم ادر من أين نقلته، ولعله من ابن خلكان.

ومنهم الشيخ ابن صالح دفين الموقف، وله مقام كريم، ومسجد جامع، ومدرسة، ومنار ماثل قديم مكتوب على بابة تاريخ بنائه والمملك الذي بناه حسبما كنت رأيت ذلك. قلت لما قدمت إلى مراکش وقفت على التاريخ المذكور، فالفيت مكتوبا فيه ما نصه «بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا ومولانا محمد النبي الكريم، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما، ابتدئ ببناء هذه الصومعة المباركة في غرة شهر رجب الفرد المبارك من عام احد وعشرين وسبعمائة»، هـ قلت ولعلها بنيت بأمر سلطان الوقت وهو أبو سعيد عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، المولى سنة عشر وسبعمائة، المتوفى سنة احدى وثلاثين وسبعمائة، والله اعلم.

[200] ومنهم * سيدي غانم دفين الزاوية العباسية، ومقامه عظيم، وبه مسجد جامع فخيم.

ومنهم الشيخ سيدي عبد الكريم الفلاح ضجيع القاضي عياض وجاره، وكنت وقفت على ذلك في الممتع أو في نشر المثاني والله اعلم، رضي الله عنه. ومنهم أبو العباس الجباب دفين باب تاغزوت مجاورا للزاوية العباسية: رضي الله عنه.

ومنهم مولانا علي الشريف دفين باب ايلان مجاورا لحرم القاضي عياض، وهو جد هذه الدولة الشريفة العلوية، وله مقام حفييل، وموضع حسن جميل، وأبهة ملوكية، وبهجة هاشمية علوية، وقبر الشريف هو الذي في مواجهة الداخل للقبّة، وهو أول ما يليه من تلك القبور الكريمة، ومن ورائه لصقا قبر أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام، المتوفى عام تسعين ومائتين وألف رحمه الله، وهنالك قبر أمير المؤمنين مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، وقبر مولانا عثمان بن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمن بن هشام، المتوفى عام ستة عشر وثلاثمائة وألف، أو عام

سبعة عشر بعده، وهو الذي كان ينوب بمراكش عن أخيه أمير المؤمنين مولانا [201] الحسن، وله كان وزيراً الفقيه العلامة السيد عبد الرحمن الشرفي، *ومن نظم الفقيه الشرفي يمدح والدنا ويذكر نزهة جعلها بظاهر مكناسة الزيتون، حضرها جميع كتاب السلطان عام واحدو ثمانين ومائتين وألف، ونصه

جمع الأفاضل بالسرور كفيل	وبكل ما تهوى النفوس حفيل
لا سيما بجميلة قد غمقت	أزهارها حيث النسيم عليل
فاضت هناك مواهب من سيد	فيه المديح وأن أطيل قليلا
فخرا بني العشرين سدم إنما	أنتم جليل يقتفيه جليل
هذا الوزير الطيب الأفعال من	علياؤه للمكرمات مقيلا
أسمى بأوج السعد بدرا طالعا	لا يعترى ذاك الجلال أقول
ابقاه ربي في مدارج عزه	يرق ويجزل به وينيل

انتهى، رحم الله الجميع، وبالقبة المذكورة أيضا قبر الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد، وقبر ولده الوزير الفقيه السيد أحمد بن موسى، رحمهما الله، وهنالك مقبرة عظيمة خارجة عن الصحن والقبة، فيها كثير من مقابر الشرفاء، ومن المدفونين بها السيد ادريس وأخوه السيد سعيد ولدا الفقيه الوزير أبي عمران السيد موسى بن أحمد.

ومن أولياء مراكش الشيخ سيدي أبي اسحاق البلفيقي دفين سوق الدقيق، رضي الله عنه، وله تعظيم كبير، وشأن شهير.
وسيدي أبو الأوقات دفين رياض الزيتون القديم.

[202] ومن *المدفونين به ولدا شيخنا الكبير سيدي ماء العينين رضي الله عنه، وهما سدي عثمان وسيدي محمد تقى الله وبعض من تلامذته، رحم الله الجميع.

ومنهم سيدي أبو الرجال، ومنهم من يقول (أبو الرجاء)، ومنهم من يقول (بورجان)، ولعل هذا هو الاسم الصحيح، دفين الرحبة، وله كرامات ومناقب كما في الاستقصا.

ومنهم سيدي أبو الفضائل دفين حومة القنارية.

وسيدي أبو العبادة دفين درب ضبشي، ومقامه ثلاث نخلات نابتات.
ومنهم الشيخ سيدي مسعود بالموقف.
ومنهم سيدي أيوب وحومته تسمى بحومة سيدي أيوب في مجاورة
الشيخ ابن صالح.
ومنهم سيدي حمزة بجوار الشيخ التباع قرب الثلاثة فحول.
وسيدي أحمد الكامل المدفون قبالة باب بريمة.
ومنهم سيدي الظاهر دفين حومة امصفح.
ومنهم سيدي جابر دفين سوق الخميس الداخلي، ومقامه عظيم،
والناس يقصدونه لاجل الفهم والتعليم.
ومنهم سيدي أبو القاسم دفين السجينة قرب جامع الكتبيين.
ومنهم سيدي السمرقندي قرب مقام الشيخ التباع.
ومنهم سيدي ميمون، وحومته تسمى بحومة سيدي ميمون، وهي قرية
من باب الرب أحد أبواب المدينة.
ومنهم سيدي منصور دفين القصبة المنشية.
[203] ومنهم سيدي اليماني دفين حومة المواسين من ناحية *الكتبيين.
ومنهم سيدي الداودي دفين حومة جنان ابن شكرا.
ومنهم المرأة الصالحة السيدة شاشا بحومة دوار اكراوا.
ومنهم سيدي أبو النور خارج باب دكالة بنحو عشرين خطوة.
ومنهم سيدي البربوشي خارج باب الخميس بنحو خمس خطوات.
وسيدي علي بن ناصر خارج باب الدباغ قريبا من الباب.
ومنهم سيدي أحمد الزاوية خارج باب الخميس بنحو شوط.
وسيدي عمارة خارج باب يغلي قرب الباب بنحو عشر خطوات.
وسيدي عبد الله غياث خارج المدينة في قبلتها، بينه وبينها ساعتان،
وهو مقصود للتداوي، وله سر ظاهر.

وسيدي عبد الله بن حسين الأمغاري دفن تمصلوحت بينهما وبين المدينة نحو ساعتين، وهو مقصود أيضا من كل النواحي، وعلى مقامه ازدحام وانكباب، وكنت زرتة يوما ونقلت من الرخامة المكتوبة عند قبو الشريف ما نصه «كانت وفاة الولي الصالح، والقطب الواضح، الشيخ الواصل، البالغ الفاضل الكامل، فريد عصره، ووحيد دهره، سيدي عبد الله بن حسين الشريف الحسني، يوم الاثنين عند الزوال الحادي والعشرين من ربيع النبوي، عام تسعة وسبعين وتسعمائة، ودفن بعد صلاة العصر من اليوم المذكور، وشيخه الذي وصل به أعلا المقامات *شيخ المشائخ، قطب الأقطاب، [204] سيدي عبد الله الغزواني، درك الله الجميع بفضائله، ونفعنا ببركاته، آمين»، انتهى من تاريخ له رضي الله عنه بمحل دفنه بتمصلوحت مختصرا، وكان تقييدي له أول ضحوة يوم الخميس سابع عشر رمضان المعظم، عام تسعة وتسعين ومائتين وألف، انتهى من بعض تقييدي، ومن مناقبه رضي الله عنه كما في «المتع» أنه رحل يوما عن تمصلوحت لأمر أوجب ذلك، فرحل معه جميع ما فيها من الحمام، ولما رأى أهل تمصلوحت ذلك ذهبوا إليه وتطارحوا عليه في الرجوع، وتملقوا بين يديه واستعطفوه فرجع ورجع الحمام معه، نفعنا الله به آمين.

ومن صلحاء نواحي مراكش الولي الصالح، الراجح الرابع، أبو سالم مولاي ابراهيم دفن جبل غيغاية، وبينه وبين المدينة نحو ست ساعات، وله كرامات متعددة، ومناقب جليلة مشتهرات، ولأهل مراكش ولوع بزيارته ملتسمين بها الثروة والغنى، ومنهم من جرب ذلك وصح عنده.

ومنهم الشيخ سيدي عبد الله بن ساسي خارج المدينة بينه وبينها نحو ساعتين، وله حرمة وتعظيم.

ولنقتصر على هؤلاء الصلحاء ففهم — إن شاء الله — كفاية، إذ [205] تتبعهم غير ممكن، رضي الله عنهم و*نفعنا بجمعهم، آمين.

وأما مساجد الجمعة بمراكش فنحو العشرين، وهي مسجد الشيخ أبي العباس السبتي، ومسجد سيدي غانم، ومسجد الشيخ الجزولي، وتآخر فيه صلاة الجمعة إلى قرب العصر، ومسجد الشيخ سيدي أبي عمرو القسطلبي،

ومسجد الشيخ التباع، ومسجد المواسين، ومسجد رياض الزيتون القديم، ومسجد رياض الزيتون الجديد، ومسجد القنارية، ومسجد درب ضبشي، ومسجد سيدي أبي اسحاق، ومسجد ابن يوسف وهو المسجد الأعظم، وبه أهل التوقيت، وله منار جيد بهي على هيئة منار الرصيف نفاس، وبانيهما أمير المؤمنين مولانا سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل، كما بنى منارا ثالثا مثلهما بالصورة، وقبالة مسجد ابن يوسف مدرسة عظيمة ما رأيت أكبر ولا أحسن ولا اتقن ولا أكثر مرافق منها، والكلام عليها وعلى المسجد المذكور، طويل لا يسعه هذا المسطور، ومسجد الشيخ ابن صالح، ومسجد باب الدباغ، ومسجد باب إيلان وبه شجر النارج، ومسجد باب دكالة وبه شجر النارج أيضا، ومسجد الكتبيين وهو أكبر مساجد مراكش، وأصغر قليلا من مسجد القرويين بفاس، وبه المنار الهائل الذي لا مثل له في مراكش بل في جميع المغرب، وهو من بنيان المنصور الموحيدي، والمسجد من بنيان جده عبد المومن بن علي، وبني — أيضا — منارا مثل هذا المنار بمدينة اشيلية بالاندلس كما في نفح الطيب، وبني منارا مثلهما بالرباط يسمى حسان ولكنه لم يكمل، [206] *وقد رأيته فالفيته كمنار الكتبيين، ومسجد المنصور بالقصبة المنشية، وهو من بنيان المنصور الموحيدي أيضا، ومسجد برمة وهو من بنيان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله بن اسماعيل، ومسجد جنان ابن شكراء، ومسجد حارة الصورة، ومسجد الحارة خارج باب دكالة.

وأما أبواب المدينة والقصبة فهي باب الخميس، وباب دكالة، وباب الرب، وباب القصيبة، وباب يغلي، وباب أحمر، وباب أغمات، وباب أيلان، وباب الدباغ، ونحو الثلاثة أبواب بجنان اجدال، وباب المامونية قرب مقبة الامام السهيلي، وإن كان بعض هذه الأبواب خاصا بالخبزن، كما أن بعض ما ذكرت من أبواب فاس خاص به أيضا، إذ المقصود هو ذكرها على العموم، حيث الجميع نافذ من المدينة إلى خارجها.

ومدينة مراكش أكبر من جميع ما بالمغرب الأقصى من المدن، وأبسط أرضا، وأوسع فجاجا، وأكثر اشراقا ونورانية وابتهاجا، ومدينة فاس انقى، وبنيانها الوثيق أبقي، وكتلتاهما مرجو السعادة، ومقبول السيادة، جعلنا الله من صلحائهما، وخيار أهلهما، آمين.

ومن مدن المغرب المذكورة، ومواطنه المعمورة المشهورة، مدينة مكناسة الزيتون، التي كانت معمورة بالمحاسن والسر المكنون، والناس أهل العفاف [207] والكفاف والصون، والفهم الدقيق* النقاد، والذهن النير الوقاد، والحفظ المسلم، والخط الجليل المعظم، والنفس الأبية، والهمم العلية، والشهامة الحاضرة الجبلية، وفيهم تيقظ وانتباه، وشراسة عند موجب الاشتباه، ولهم ظنون كادت أن تكون كشفا صريحا، وتقع وقعا صحيحا، ولنسائهم وأولادهم من الطاعة والحياء من أوليائهم، ما به تضرب الأمثال، ولا يبقى ما يقال.

ومدينة مكناس هذه جاءت فوق مكان مكين، وربوة ذات قرار ومعين، يراها القصاد من بعيد، كأنها عروس تجلت في زينتها ونحوها يوم عيد، وهي متأخمة في القبائل البربرية التي لا تنالها الهضمية والامتهان، ولا تقرب ساحتها ذلة ولا هوان، لما جبلت عليه من عزة النفوس وشدة الاباية، وقساوة الرؤوس من كثرة العناية، فشرقت المدينة بغصتها، وأذعنت لقهريتها وقوتها، وقعدت على طرف الاضمحلال محاسنها، إذ غير جوها الصقيل من أولئك الاقوام آسنها، وصارت اليوم على حال من الخضوع والخشوع، والافتقار المفضي إلى التقهقر والرجوع، والداء الكمين تحت الجوانح والضلوع، مالا يفي به شرح، ولا يتأسك لسماعه صرح، قد طويت أعلامها، وذهبت أيامها، ولا سيما حيث أعرض عنها الملوك في هذه الأزمنة وطلقوها، وغضوا الطرف عنها وأهملوها.

[208] *بعد أن كانت دار قرار ملك السلطان الأصيل، الشريف الماجد الأثيل. أمير المؤمنين مولانا إسماعيل، والملوك بنيه من بعده، وكانوا لا ييغون بها بدلا، ولا يولونها سئامة ولا مللا، فقد كان فيها من القصور المشيدة، والمتنزهات الفريدة العديدة، والأسوار الشاهقة التي أخذت في العلو والارتفاع أخذا كبيرا، وبلغت في الكثرة شيئا كثيرا، والقباب الفارهة، والديار الفسيحة البارعة، ما يعسر حصوه، ولا يعي تتبعه ونشرو، وقد ذكر صاحب «الجيوش العرمم الخماسي» بناءات هذا السلطان، ومآثره الجليلة الحسان، التي خلد في تلك الأوطان، فليطالع من أراد الوقوف على ذلك، والاطلاع على ما هنالك، ليعلم ما كانت عليه مدينة مكناس، من البهجة والضخامة والعزة والإيناس،

جبر الله أحوالنا وأحوالها، ونفى عنا وعننا أهوالنا وأهوالها، ولبعضهم يمدحها ويسلي أهلها فيها

لا تنكرن الحسن من مكناسة فالحسن لم يرح بها معروفًا
فلئن محت أيدي الزمان رسومها فلربما ابقت هناك حروفاً.

وبمكناس أولياء أخيار، وصلحاء أبرار، قد سار ذكرهم مسير الصبا،
[209] وهبت نفحاتهم على الجبال والوهاد والرئي، *منهم الولي الصالح الكبير،
والمسك الفائح العبير، الشيخ الكامل الامام، والقطب العامل الهمام، والغوث
الواصل الضرغام، علم الاعلام، ومصباح الظلام، ذي القدم الراسخ، والمجد
الشامخ، والقدر الباذخ، الذي لم يزل يرشد الانام ويهدي، سيدي محمد بن
عيسى الفهدي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعلنا في حماه، وهو من تلامذة
الشيخ الجزولي مباشرة أو بواسطة الشيخ التباع، كما في «ممتع الاسماع»، ولأهل
مكناس عناية كثيرة به واهتمام، واعتقاد لا يبلى قشيبه على مر الليالي والأيام،
وجرت عادتهم بأن يجعلوا له موسماً عظيماً كل عام، يوم العيد النبوي، والمولد
المصطفوي، يحضره الجم الغفير من سائر البلاد والأقطار، يأتون رجالاً، خفافاً
وثقالاً، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق بالليل والنهار، والعشايا
والأسحار، وأكثر من يحضره طوائف عيساوة الذين يزعمون أنهم متمسكون
بعهد الشيخ متشبثون بأذياله، وتابعون لأفعاله، وأقواله، مع أنهم كاذبون، وليس
هم من طريقة الشيخ في شيء، وحاشاه من ذلك، وستسمع من أحوالهم ما
[210] تعلم به كذبهم في الانتساب إليه، بل لو عاش الشيخ * رضي الله عنه ورأى
ما هم عليه لتبرأ منهم، وتباعد عنهم، وفر إلى الله تعالى بدينه وعرضه، وأقبل
بخاصة نفسه على نفيه وفرضه، إلى أن يلقاه سالماً من خلطة أولئك الأوباش
الذين لا خلاق لهم.

وها أنا أقول لك عنهم ما علمته ورأيت عياناً، وراه وعلمه جميع من في
قطر المغرب ولا ينكره إلا من دينه تابع لهواه، والعاقل الورع المنصف الذي
يراقب الله تعالى ويخافه، ويعلم يقيناً أنه مسؤول عما يقول، يفرق بين الحق
والباطل، ويحكم بعقله السليم بمقتضى ميزان الشريعة المحمدية التي هي أصل
ديننا، وأساس إسلامنا وإيماننا، وهي حجتنا على من خالفنا، وسببنا الذي به
تمسكنا، وبه نجاتنا وفوزنا وسلامتنا، فمن أمورهم الفظيعة، التي هي في قلب

أهل الايمان والاسلام وجيعة، أنهم كلما أرادوا الاجتماع لأجل الذكر في زعمهم والعبادة، لابد من حضور أهل الطبول معهم وأهل الغيطات أي الزمرات والبنادير والطعاريح، وغير ذلك من آلات اللهو المنهي عنها شرعا وطبعاً، وتحضر النساء العيساويات على اختلاف أنواعهن في الكبير والصغير والقبح والحسن مكشوفات الشعور والوجوه، مودرات الخلود، ومصبوغات الأيدي والأرجل [211] بالحناء والطيب، * وغير ذلك من أمور الزينة والاحتفال، فتأتي المرأة إلى حلق الرجال على هذه الحالة، وتأخذ في محاكاتهم في أقوالهم وأفعالهم، وصياحهم وقفزهم ووثوبهم واضطرابهم، وفراقهم الأرض بقدر ذراع أو ذراعين، وتمايلهم يمينا وشمالا، والحلقة ممتلئة من المتفرجين من كل فريق ومن كل جنس، ثم تنبطح بقوة في وسط أولئك الأقوام، مظهرة أنها غابت في حب الله تعالى، فيأتي العيساوي إليها ويحملها على عاتقه وهي أجنبية منه، ويمشي بها إلى محل منزّل عن الناس، يأخذ في الترويح على وجهها بمروحة أو كتان، ثم يجسها بيده ويغمزها في كل ذاتها، ومنهم من يدخل يده معها وربما يمر بها على قبلها، ولم يزل ملازماً لها ومباشراً لحالها إلى أن تفيق من غيبتها، وهكذا، وقد سمعنا سماعاً قوياً أنهم يباشرونهن في ذلك الحال إذا أمكنهم التستر عن الأعين، ولا تسئل عما يقع، ولما علم النساء منهم ذلك تساقطن على تلك الطائفة سقوط الذباب على العسل، ورغبن في الدخول في زمرة أهلها وتمسك بعروتها، فطائفة عيساوة أكثر الطوائف نساء وأطفالاً وصعاليك وأراذل، وأهل الأدران [212] والأوساخ والفسقة والرعا، وتعرفهم بسيماهم بأنهم لا * مروءة لهم ولا دين، وكثير منهم أو كلهم لا يصلون ولا يتوضؤون، فتمر عليهم أوقات الصلوات وهم في حلق ذكرهم من الظهر إلى قوائم وقت العشاء، وما فيهم من يتوضأ ويصلي، وتكرر ذلك منهم تكرراً لم يبق معه احتمال، حتى صار ذلك معلوماً منهم ومغروزا في طباعهم ولا يحتاج فيه إلى برهان، وليس الخبر كالعيان.

ومن أمورهم السخيفة، وترهاتهم الخفيفة، أنهم يحاكون الوحوش فيجعل العيساوي نفسه ذئباً يعوي، ويجعل على ذاته لباساً يحاكي به حلية الذئب، ويكون له ذنب ملتوي، ثم يدور على الناس بتلك الحالة يطلب الفلوس، وهو مظهر أنه غائب في حب الله، ومنهم من يجعل نفسه جملاً فيزغو كرجاء الجمال، ويجعل شيئاً في فمه يلوّكه وريقه يتساقط على الأرض وعلى صدره، ثم

يأخذ في طلب الفلوس من الناس والدوران عليهم، وغالب الناس يعتقدونهم ويعطونهم، وأكثر أهل الاعتقاد النساء والأغمار الذين لا يدرون الحي من اللبي، ولا النشر من الطي، ومنهم من يجعل نفسه سبعا عاديا، فتراه يأتي للناس جريا زاعما أنه يريد افتراسهم، وقد حضرت مدة في موسمهم بمكناس عام تسعة وثلاث مائة وألف، ورأيت بعضهم فعل ذلك وانفرج الناس له وهربوا، ثم أعادها مرارا، ثم جاء مرة إلى بعض أولاد قائد المشور القائد ادريس بن العلام [213] * فقام معه أصحابه وأمسكوه، وانخرطوا من عصي وزراويط كانت معهم وانقضوا عليه بالضرب بذلك انقضا من قلب مغيظ، والحال أنه عريان ليس عليه إلا السراويل، واشبعوا ظهره وضلوعه من الضرب المبرح وهو يستغيث ولا يغاث، وما اطلقوه إلا بعد أن عاين الموت الأحمر، ثم غاب ولم يظهر بعد.

ومن هؤلاء السباع من يجري ويختطف النساء اللواتي في حلقة الحضرة، ويمشي بمن أراد منهم إلى أن يغيب عن الأعين، ثم يسرحها ويمسك أخرى، ثم يأتي سبع آخر وينتزع منه المرأة إن كان أقوى منه ويبعث بهما، وهكذا وفي ذلك من المناكر العظيمة ما لا يوجد في ملة من الملل التي تعرف الله تعالى وتعرف الرسول وبما جاء به، وهذه الأمور شاهدها بنفسي في الموسم، ولا ينكرها أحد إلا من باع آخرته بدنياه، وجحد وجود النهار وآثار الميل إلى هواه.

ومن مناكرهم العظيمة أنهم يأكلون الجيفة وينهارشون عليها، وكذلك الدم المسفوح ويتلطخون به وبالنجاسة وهم حفاة الأرجل عراة الرؤوس، لأن من عادتهم أن يحضر لهم من أراد أن يتفرج عليهم شاة - ضأنا كانت أو مغرا - وهم في حال جمعهم واشتغالهم بحضرتهم، فيتسابقون إليها ويقرها لهم أحد [214] زعمائهم، مظهرا أنه فعل بها ذلك بأظافيه تشبها بالسبع، فينظر * ذلك من لا علم عنده ويظنه صحيحا، ويزيد غبطة فيهم ورغبة واعتقادا، وهو إنما تأتي له بقر الشاة بسكين صغير جدا يجعلها بين أصابعه بنوع من أنواع الحيل ويخفيها عن أعين الناس، حسبما بلغنا ذلك من طرق عديدة ولم يبق عندنا ريب فيه، ويمزقونها ويطير كل واحد بقطعة منها أو من جلدها بدمها وفرثها، وفي هذه الأزمنة القريبة صار الناس لا يرمون لهم الشاة إلا إذا ذبحوها فيتخطفونها

وأوداجها تشخب دما وتنفور، ويمرغون وجوههم ولحاهم فيه، وكذلك حوائجهم وأيديهم وأرجلهم، فيصирون على حالة لا شيء فوقها من الشقاوة والرزالة والمهانة والعياذ بالله، ويظهرون أنهم يأكلون اللحم النىء وهم كاذبون.

ومن كذباتهم ما يظهرونه من أنهم يأكلون الأفاعي والحيات، ويحكمون فيها ولا تلذغهم وإن لذغتهم فلا تضرهم، وذلك كذب محض، وقد حضرت يوما لواحد منهم ونحن بدكالة جاء إلى رفيق لي وفي يده حنش صغير جدا وطلب منا إعطاءه الفلوس، فقال له الرفيق لا، إلا إذا أكلت ذلك الحنش، فقد سمعنا أنكم تأكلون الأحناش والحيات بالحياة ولا تضرهم، فقال نعم، ثم أخذ الحنش وقطع رأسه بأسنانه ورماه، بعد أن أمسك فم الحنش بأصبعيه [215] ومنعه من فتحه، ثم *قطع قطعة منه بأسنانه أيضا وصار يلوكها ولم يتلعه، ثم تفلها، وتبين كذبه، ومن عيساوة من لذغه الحنش والأفعى ومات من حينه، ومنهم من لسعته العقرب وتألم منها إلى أن وصل إلى حد الموت.

حكاية مضحكة كنا سمعنا سماعا فاشيا من طرق عديدة، وكنت بدكالة وقتئذ عام أحد عشر وثلاثمائة وألف أن بعض عيساوة الذين يعانون الأحناش والأفاعي ويسترزقون بها جاءوا مرة إلى بعض العمال بدكالة، وسمى لي وعرفتهم ولم أصرح باسمه الآن لعدم تعلق العرض به، وراموا منه إعطاءهم شيئا من الدراهم لمعاشهم، فأمسكهم للمبيت عنده وذلك بعد مذاكرته معهم في شأن ذوات السموم وزعمهم بأنها لا تضرهم ولا تعدو عليهم، ولما جاء الليل أرسل أصحابه إليهم وأمرهم بأن يذهبوا إلى محل نزولهم ويوقدون به النار، لينظر ما يقع بهم مع الأفاعي إذا لذعتها النار، ويحصل اليقين فيما يزعمونه من كونها لا تضرهم، ففعلوا وأغلقوا عليهم البيت، ولما فتحوه عليهم في الصباح وجدوهم موتى إلا واحدا تعلق بدفة الباب، فانزلوه وذهبوا به إلى العامل فسأله عما جرى، فقال إن الأفاعي لما أضنكتها النار وألهبتها خرجت من مزودها ولم [216] تملك نفسها، وصارت *تنهش كلما وجدت وتضطرب في البيت وتجري في أركانها، وكلما تحيزوا لجهة تأتيم الأفاعي إليها، ولما لم يجدوا عنها محيصا لذغتهم وماتوا، قال إلا أنا فتلقت بدفة البيت إلى الصباح، وحيث فتحوا علينا وجدوني كذلك وماتت الأفاعي أيضا، فضحك العامل منه وسرجه بعد أن رضح له بشيء تافه، وذهب الآخرون لأمرهم الهاوية، وذلك جزاء من يدعي بما

ليس فيه، ومن ادعى بما ليس فيه كذنبه شواهد الامتحان، ولا زال هذا العامل في قيد الحياة الآن الذي هو أواخر جمادى الأولى عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ولكنه معزول عن مكانته، وقاصر على خويصة نفسه.

وقد كانت جمعتي الأقدار بمكناس — عام تسعة وثلاثمائة وألف — مع بعض من يدعي أنه من أولاد الشيخ إبن عيسى نفعا الله به، وتذاكرت معه في هذه الأمور، فأجابني بأنهم عالمون بأن عيساوة ليسوا على شيء، ولكن الأحوال لم تطاوع إلى غير ما ترى.

وسمعت أيضا وأنا بمكناس بعد أن وقعت المذاكرة في شأنهم، أن يهوديا من يهود مكناس صار عيساويا، ودخل إلى حلقتهم وشطح معهم وجاءهم بالفريسة ورمأها لهم وافترسوها والتزمها لهم كل عام، وادعى محبتهم ومحبة الشيخ ابن عيسى، وحيث سألتهم هل أسلم أولا قالوا إنه باق على يهوديته ولم [217] يسلم، ولكنه فعل ما سمعت وتحققت محبته لهم، فقلت لهم الاسلام *أساس العمل، وإذا انعدم إنعدم ماسواه، وكأنهم كرهوا ذلك لشدة غبطتهم في عيساوة.

وكان عيساوة في القديم يمنعون الناس إذا كانوا في خمرتهم من لباس النعال ولباس الثوب الأسود، فيتحامون ذلك إذا رأوهم ويمشون حفاة حتى يبعدوا عنهم، وكان اليهود لا يظهرون لهم بوجه من الوجوه إذا كانوا في خمرتهم، ومهما رأوا يهوديا تسابقوا إليه وتخطفوه، وفعلوا به الفعل الذي يكون الموت أهون منه، وكانوا ينهبون ما يباع في السوق من الحلواء، قالوا لأنهم لا يملكون أنفسهم على العسل إذا رأوه وهم في الخمرة، وكان الناس يفرون بحلأوبهم إلى حيث يأمنون عليها منهم بمجرد سماعهم ضوضاءهم⁽⁵⁾ من بعيد.

وقد كنا سمعنا قديما أن بعض الناس بمراكش كان يبيع الحلواء بجامع الفناء هنالك، وكان بإزائه رجل يبيع الفلفل الحمر، وبينما هو كذلك إذ فاجأه مجيء عيساوة فلم يتمكن الهروب بحلأوته، ثم إنهم رأوا الحلواء من بعيد فجاءوا يتعادون إليها، فتنحى ربا عنها وتركهم وما يفعلون فلم يكن إلا كلمح

(5) الضوضاء أصوات الناس في الحرب، والضوضى مقصورة الجلبة واصوات الناس لغة في المهموزة، والضوة الجلبة، كالضوضاء... والجلبة اختلاط الصوت.

أنبصر أو أقرب حتى صارت خبراً بعد عين، وتقاسموا الاناء الذي كانت فيه، وصاحب الخلاء ينظر إليهم وقال في نفسه لا كلام لي معهم إذا أكلوا الفلقة أيضاً، وإلا فالحاكم بيني وبينهم، ثم إنهم مضوا لحالهم ولم يعرجوا على الفلقة أصلاً،^[218] فتبعهم إلى محلهم* وتأنى إلى أن أصبحوا من جنونهم، وصاح عليهم بأعلى صوته ورفعهم للحاكم فتبعه مقدمهم إليه، وحيث قرر ما وقع للحاكم ضحك وألزمهم الغرم، وكمن واحد مزقوا له ملبوسه الأسود أنعله وغرموه بحكم الحاكم، وانقطع ذلك منهم الآن وعاد الناس يلبسون النعال والملبوس الأسود بمحضهم ولا يكلمهم أحد منهم، بل صار اليهود. بظهرون لهم ويمرون من بين أيديهم وهم في خمرتهم ولا يكلمونهم، لما يلحقهم من زجر الحكام وضغطهم لهم، وفي ذلك من بطلان دعواهم مالا يحتاج إلى دليل، والحاصل فإنني لو تتبعته ما يتعلق بعيساوة من القبائح لما وسعها هذا المسطور، وهذه الأمور التي ذكرتها عنهم فهي وإن كان فيها طول كثير فإنما هي نقطة من يمين، وقليل من جهم، وما ذكرتها إلا ليتنبه العاقل ويعلم الحال الذي هم عليه، ولا يغتر بهم وبكثرة ما يرى من اتباعهم، لأنهم كلهم أغمار وليسوا بمن يقتدى بهم، وعلى كل حال فإنما هم إخوان الشيطان، إن لم يتوبوا ويرجعوا إلى الله الملك الديان.

وأما لهم في ذلك طائفة الحمادشة، بل هؤلاء أسوأ حالا من أولئك، فلا نطيل بأخبارهم الشنيعة، ومذاهبهم المصادمة لمناهج الشريعة، وكمن طوائف على شاكلة هذين الطائفتين في الانحراف عن طريق السلامة،^[219] والعكوف على ما يوجب السخط من الله* تعالى والملامة، فما أجدرهم بمن يتولى تقويمهم وتأديبهم من الحكام، الذين يؤثرون جانب الله تعالى وجانب الرسول عليه الصلاة والسلام، وهذا مصداق الحديث الشريف «افترقت بنو إسرائيل على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين كلها في النار إلا واحدة، وهي ما أنا عليه وأصحابي»، وقال صلى الله عليه وسلم «التمسك بسنتي عند فساد أمتي وجبت له شفاعتي»، نسأل الله تعالى أن يسلمنا من مكائد الشيطان، الغرور اللعين الفتان.

وأسلم ما رأيت من الطوائف بالمغرب الأقصى طوائف درقاوة أينما كانوا، فإنهم فيما ظهر على النهج القويم، والصراط المستقيم، وفيهم العلماء

والأتقياء والزهاد وأهل الخير والورع، ولهم أشياخ أحياء، وعلى كل حال فلا بأس بهم، والطائفة التجانية كذلك، والطائفة الكتبية، وطائفة الشيخ ماء العينين رضي الله عنه.

والطائفة الكتانية التي ظهرت الآن إن سلم لهم الأشياخ التصلية التي وضعها لهم شيخهم الشريف الأجل الحافظ سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني وجعلها أساس وردهم، وهي التي يقول فيها اللهم صل على سيدنا ومولانا أحمد، الذي جعلت اسمه متحدا باسمك ونعتك. ويقول في آخرها حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده، وهي طويلة (6) جدا، فقد [220] اعترضها* عليه العلماء، منهم الفقيه البوعزاوي ونسبه إلى الكفر وبين وجهه، وقد أجابها واضعها بجواب طويل، ورد كل ما قال وكفر القائل بكفره، وقد كنت وقفت على الأصل والجواب، ووقع شئان بينهما كبير إلى أن وصل الخير للسلطان وأحضر العلماء بفاس للنظر في كلام كل منهما، وانفصل الأمر بأمرهما بعدم التعرض لتمزيق أعراضهما بانكفافهما، وإن كان البوعزاوي لا يلحق شأو الكتاني في قلمه وحفظه وتوسعه في العلم ولو أعانه قوم آخرون، والحق أحق أن يقال، والشمس لا تستر بالغربال.

ومن جملة من اعترض عليه تلك التصلية وشرحها وبين العثرات التي فيها بالدليل والبرهان الفقيه العلامة السيد محمد بن إبراهيم السباعي المراكشي، ولما بلغ ذلك للكتاني تألم منه غاية وقلق وحصل له غيظ كبير وتشكى على جانب السلطان، فأمر بجمع العلماء الذين بفاس وألقى إليهم كلام السباعي فسلموه ولم يجدلوا فيه مطعنا، وفيهم من مدحه وقرظه، ولم يكلم السباعي بينت شفة على ذلك، وتحقيق الحال عند الله تعالى، وعلى كل حال فإن سلمت لهم تلك التصلية فإن طائفتهم لا بأس بها، وشيخهم هذا له تأليف عديدة كثيرة، وهو حافظ منور مفتوح عليه بلا شك مع اقبال سنه، [221] وفنوة عمره، نعرفه بالاسم والعين، وهو شريف* كتابي، ووالده سيدي عبد

(6) لا طول فيها، بل المذكور نصفها أو قريب منه، وإنما الطويلة صلوات أخر له — رضي الله عنه — من جملة أوراده الشريفة، نعم الصلاة المذكورة سلمها جمع من العلماء الأجلة، كشيخ المؤلف وقلوته وعمدته الشيخ ماء العينين، وله عليها كتابة في الثناء عليها وعلى صاحبها، قد طبعت وسارت الركبان بها، والحمد لله على كل حال... انتهى من تعليق لأحد قراء الكتاب.

الكبير بن محمد لازال في قيد الحياة بفاس، وهو من الخيرة والتودد للناس بمكان، وعليه رونق وطلاوة، ولهم تلامذة كثيرون بفاس وغيره، من جملتهم ولد أخينا السيد العربي بن العربي بن الطيب بن اليماني بوعشرين المكناسي ولادة ومنشأً وداراً وقراراً، الخزرجي الأنصاري أصلاً ومحتداً، وله فيهم محبة أكيدة تامة قادته إلى أن تطوع لهم بمحل مجاور لداره بمكناس يجعلون فيه زاوية لهم، فقبلوه منه وقام ببنائه تلامذتهم وأهل محبتهم، وجاء على ما ينبغي، وهو أول زاوية لهم بتلك البلاد، وبها اشتهروا هنالك وفاض مددهم وتأتي لهم الاجتماع في أوقات ذكرهم، ثم أعطاهم السلطان محلا ثمة أكبر من هذا باقتراحهم عليه ذلك وتعيينهم إياه، وجعلوه زاوية أخرى وانتقلت العمارة إليه، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وولد أخي هذا هو أحسن وأفضل ممن رأيت من أقاربنا هناك دينا ومروءة ووجاهة، فهو سيدهم على الاطلاق، فتح الله علينا وعليه بما فتح به على أوليائه الكرام، وختم لنا وله بالسعادة المستمرة مدا الدوام. آمين.

وحاصله فغالب ما يسمع بالمغرب الأقصى من الطوائف التي تنتسب للأولياء على ضلال مبين، وغلط فاحش مستبين، واتباع طريق الشيطان [222] اللعين، القائل لأقعدن لهم صراطك المستقيم، ثم لأتينهم من بين أيديهم* ومن خلفهم وعن إيمانهم وعن شمائلهم، ولا تجد أكثرهم شاكرين، نسأل الله السلامة من كيد الكائدين، وحسد الحاسدين، بمنه وكرمه آمين.

ثم اعلم أن الشيخ ابن عيسى رضي الله عنه لأمرية في كونه من أكابر الأولياء، البررة الأتقياء، وأنه لا علة ولا نسبة بينه وبين عيساوة الذين ينتسبون إليه إلا مجرد الادعاء، فإنهم في واد وهو في واد، هذا هو الحق الذي تعض عليه بالنواجذ وتجمع يدك عليه، وكذلك كل طائفة لم تكن على منهاج السنة المحمدية التي هي الطريق الواضح الموصل إلى الله تعالى، ولا تلتفت لغير ذلك، ولما يحتاج به من لا علم عنده ولا ورع مما يذكره لهم من الكرامات فكل ذلك لا أصل له، وإنما يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله اعلم بما يكتُمون، وبما يسرون وما يعلنون، «قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون»، وللشيخ ابن عيسى مقام حفي، منور جميل، وكان جدده واعتنى به أمير المؤمنين سيدي محمد بن أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام رحمهم الله

أجمعين، وقد زرت مرارا والحمد لله، وبمقبرته الميمونة جدتنا والدة والدنا رحمهما الله، وقد زرتها وتيمنت بها ودعوت لها وللمسلمين بخير تقبل الله.

كما كنت زرت جدنا سيدي الإمامي والد والدنا المدفون بمدينة سلا، [223] أمنها الله من كل مكروه ومن كل بلا، في المقبرة المطلة على البحر * خارج المدينة عام تسعة عشر وثلاثمائة وألف، بعد أن أرشدني إلى قبره باقتراحي واطراحي، وأعملت قدمي وارشت جناحي، واحد من أهل البلاد الذين يعرفونه، ووجدته مشهورا هنالك، وقرأت بإزائه ما تيسر من القرآن، وكلفت بعض الأحبة بجمع الطلبة وقراءة جميع القرآن عند ضريحه المقدس، حيث لم يسع الحال لمباشرة ذلك بنفسي، وكتب لي وأنا بفاس بأنه قد فعل، وبالع الجهود وبذل، جزاهم الله خيرا أجمعين، وكثيرا ما كنت أطلب وأبحث عمن يعرفني بقبره كلما مررت بمدينة سلا ولم يتيسر إلا في هذه المرة، وحصل لي من الفرج والسرور بمعرفته والوقوف عليه ما الله أعلم به، ولم يلحقني ريب في كونه هو، لأني رأيته على الأوصاف والنعوت التي كنت سمعتها من أهلي وأقاربي، وقد وقفت على تاريخ وفاته في الكتاب المسمى «دوحة المجد والنسرين، في نسب أبناء أبي العشرين»، فقال إنه مات بمدينة سلا عام أربعة وأربعين ومائتين وألف، بعد وفاة أمير المؤمنين مولانا سليمان بن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله، وأثنى خيرا على جدنا، ووصفه بالعلم وذكر أشياخه وما عنده من الاجازات، وساق بعض إنشائه وطول في ترجمته، ولم يحضر لديّ الآن الكتاب المذكور، وقال إنه كان منظورا إليه بعين الاعتبار والوقار، والتعظيم والتجلية والفخار، ورأيت مذكورا أيضا عند الفقيه الكنسوسي الكبير، في كتابه «الجيش العرمم الخماسي، في دولة أولاد مولانا علي [224] * السجلмасي»، وصحح نسبته وأثنى خيرا عليه، وذكر أنه عاصره وعرفه، وسياقي بقية الكلام في شأنه إن شاء الله تعالى.

ومن صلحاء مكناس الولي الصالح سيدي سعيد المدفون خارج المدينة، وقد ذكره في ممتع الأسماع فعليك به تقف على جلالة قدر هذا الولي ومنصبه من الولاية والمكانة، رضي الله عنه ونفعنا به وبأمثاله.

ومنهم مولاي أحمد الشبلي رضي الله عنه

ومنهم سيدي أحمد بن خضراء رضي الله عنه.

ومنهم سيدي قدور العلمي رضي الله عنه، وله مقام حفييل جليل، وبجانب قبره ضريح أخته، وقد اعتنى به أمير المؤمنين مولانا الحسن ابن أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الرحمان بن هشام، وبني بازائه مسجدا جامعاً بهياً، ومنارا في غاية اللطافة والحسن والسر، وصارت تصلى فيه الجمعة وقد صليتها به في بعض الأحيان، ولثمت اعتاب ذلك المقام والحمد لله.

ومنهم لال عائشة العلوية رضي الله عنها، وبها من مقابر بعض أقاربنا كثير رحم الله الجميع، ولم نستحضر الآن غير هؤلاء الأولياء نفعا الله بجمعهم، آمين.

ومن المدفونين بمدينة مكناس أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف، وبإزائه قبر أمير المؤمنين مولانا عبد الرحمان بن هشام بن محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف، رحمهم الله أجمعين، وبالقرب من ذلك المقام المقدس ضريح الشيخ سيدي عبد الرحمن المجلوب رضي الله عن الجميع، والشيخ [225] *المجلوب هذا أصله من دكالة من قبيلة أولاد فرج كما في «الاستقصا»، وهو سابق بالدفن هنالك على السلطان مولانا إسماعيل بكثير من السنين، اظنها مائة سنة وثلاثا وستين، والله اعلم.

وبالقرب من مكناس بنحو ثلاث ساعات زاوية مولانا ادريس الأكبر ابن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن مولانا علي ومولاتنا فاطمة الزهراء، رضي الله عن جميعهم، ونفعا بهم وجعلنا في زميرهم، وتحت ظل ألويتهم ورايتهم، آمين، وبها مقامه الشريف، وجسده المنيف، المقدس المنور العفيف، ووصلت إليه وزرته والحمد لله، وسفح جبل زرهون من الجهة المطلّة على مكناس، ضريح الشيخ ابن حملوش، نفعا الله به، وقد تقدم ذكر الطائفة الحمدوشية التي تنتسب إليه وكونها ليست على شيء فليراجع، ولعل الشيخ المذكور في ممتع الأسماع، فقد علق ببالي أنه فيه أو في دوحة الناشر.

ويخرج مكناس بمسافة ساعة الولي الصالح سيدي بوزكري رضي الله عنه، وقد زرته مرارا، ووصلت إلى المسجد الجامع الذي بالناحية المعروفة بالأروى، وهو مسجد بهي فسيح الصحن جدا، ما رأيت مثله في المغرب في

الانفساح والاتساع، وهو من بنيان أمير المؤمنين سيدي محمد بن عبد الله [226] حسبما ذلك مكتوب في محرابه، * ولم استحضر الآن تاريخ إنشائه، وبإزائه مدرسة ويوت للطلبة والمعتكفين، رحم الله بانيه.

ولنذكر ما وصلته من الأمصار، وأدتني إليه الأقدار من الأقطار، أما مراکش فإنها بلدي، وهي أول أرض مس جلدي ترابها، زاد الله في معناها، وبلغها من كل خير منهاها، وأما غيرها من البلاد فإنما وصلته عابر سبيل، فوصلت مكناسا ثلاث مرات، ووصلت فاسا، وطنجة، والجزائر، وأصيلا، والعرائش، والقصر، ومهدية، وسلا، والرباط، والدار البيضاء، وأزمور والجديدة، وآسفي، والصويرة، وأكادير، وتارودانت، وماسا، ووادي ولغاس، ومرسى أصكا، وتزنيت، ووادي نون، وأكلميم، وسوق عام القريب منه بنحو ساعة، وإداوتنان، وبلاد حاحا، والشيظمة، وشيشاوة، وزرت بها الشيخ الصالح القطب سيدي أبا زيد رضي الله عنه، وجبال المصامدة، إلى أن وصلت بلاد اوناين من سوس، وذلك في الوقت الذي كانت جيوش السلطان فيه محدة بالكنتافي المتقدم الذكر في دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن قدسه الله، ووصلت غيغاية، وزرت الولي الصالح أبا سالم مولاي ابراهيم المعروف بطير الجبل عند العامة، رضي الله عنه، وقد تقدم ذكره في جملة أولياء [227] مراکش، ووصلت أمزميز، ومجاط، وآجرجور، وزرت * الصالحة تاكركوست، واغتسلت بمائها الشبيه بماء مولاي يعقوب بالغرب في الحرارة والشفاء، بينها وبين مراکش نحو خمس ساعات، ووصلت بلاد أولاد أبي السباع، وزرت الولي الصالح سيدي المختار رضي الله عنه، ورأيت في تلك البلاد من الأولياء ومقاماتهم وقبابهم ما لم نره في غيرها كثرة ونورانية، وزرت سيدي عبد المومن رضي الله عنه، وكان أولاد أبي السباع في الزمن الأول من أمتن الناس دينا وعلما وأدبا وحفظا وصيانة وشجاعة وفروسية، وكان ذلك مغروزا في طباعهم حتى النساء، وكان الحسن مقصورا عليهم، وكان الناس يضربون الأمثال بحسنهم وصفاء أذهانهم، وقد صاروا اليوم على الضد من ذلك، لكثرة ما توالى عليهم من الكروب والدواهي، جبر الله أحوالنا وأحوالهم، آمين، وشرفهم مسلم عند جميع الناس فلا مطعن فيه لأحد، وهم محمولون عند الناس على التوقير والتعظيم والمراعات، وكان والدي — رحمه الله — يحبهم كثيرا، وكانت له

مصاهرة معهم، وكذلك أنا بمباشرة والدي، وحمدت مغبة تلك المصاهرة وشكرتها، وجاءني منها أولاد نجباء أدباء والحمد لله.

وعرفت منهم شرفاء أبراراً، وعلماء خياراً، منهم الولي الصالح العالم العلامة الأديب العفيف الورع الزاهد الشريف سيدي محمد الدراكي، رحمه الله [228] الله وقده، وبسببه انقذني *الله من ظلمات الجهل وموارد الردى، وفتح علي فتحة لدنيا، وكانت بيني وبينه محبة وصداقة ما تقدمت ولا تأخرت لي مع أحد، وكانت محبته هو أكثر، وكان يدلني على الخير ويسمى لي فيه، وهو الذي عرفني بطريقة شيخنا سيدي ماء العينين رضي الله عنه ورغبني فيها، وذكر لي كثيراً من كراماته وصححها لي، ونفى بعضاً مما كنت سمعته منها من غيوه، لعدم ثبوت ذلك عنده بعد البحث عنها من مظانها، وطالت مرافقتي له أزيد من العشرين سنة وما رأى مني ولا رأيت منه ما يكدر الخواطر والحمد لله، ولم يزل في زيادة من دينه والحرص على مروءته والمحافظة على همته والغبطة في جانب شيخنا، إلى أن لقي الله تعالى عام خمسة عشر وثلاثمائة وألف، بسبب سم سقاه إياه بعض أعدائه قاتلهم الله، وكان أخبرني بذلك كتابه بخط يده وهو مريض وسمى لي من سقاه وعرفته، ثم رجع وكتب لي ثانياً بما يخالف ما قال سترأ على أولئك الأعداء، وعند الله تجتمع الخصوم، ودفن بمحلّه من قبيلته بمسجد بناه لله تعالى من عنده، وأخبرني صهره الشريف الفقيه سيدي بلخير بأنه شاهده يتبسم ضاحكاً بعد موته وهو ثقة عدل، رحمه الله وألحقنا به مسلمين، وجعلنا في حماه ومن أهل زمرة آمين، وخلف أولاداً ظهرت [229] نجابتهم، وتبينت سعادتهم، جعلهم *الله خير خلف، آمين، وأخبرني رحمه الله أن الشيخ — رضي الله عنه — بشرو بأنه ولد المصطفى حقاً، ثم قال له والله لا أرضى لك عند الله بدون القطبانية الكبرى، ولما مات سألت الشيخ عن مقامه وأخبرته بما سمعت منه فأجابني بأنه فوق ذلك، وبما أفادنيه سيدي محمد الدراكي رحمه الله كتابة بخطه ما نصه الحمد لله، وقد أخذت عن شيخنا الشيخ ماء العينين أطال الله حياته، وأخبرني أن من واطب عليه صباحاً ومساءً يفتح عليه في الشعر ولو كان أكثر جموداً من حجر، وذكر لي أن بعض التلاميذ طلب منه معرفة الشعر فلقنه إياه ففتح عليه فيه، حتى صار كأنه امرؤ القيس وقته، وذلك المريد اعرفه ولا زال بقيد الحياة، وله يد

طولى في الشعر واللغة، وهذا ما أخذت عنه «وقد أذنتك فيه قدم عليه ترى ما يسرك ان شاء الله مع حسن الظن وعدم السّامة، تقول صباحا ومساء يا مبدىء سبعا وأربعين مرة بتقديم السبعة، بسم الله الرحمن الرحيم، الرحمن علم القرآن، خلق الانسان علمه البيان، إلى قوله تعالى ولا تحسروا الميزان، سبعا، والسلام، في العشرين من صفر الخير عام ستة وثلاثمائة وألف، محمد السباعي الدراكي».

ووصلت بلاد حمير، وعبد، ودكالة، والشاوية، والأعشاش، وتادلة [230] والقنطرة التي على * وادي أم الربيع، وقصبة آيت الربيع، وهي من بناء أمير المؤمنين مولانا إسماعيل بن الشريف، وبها مسجد بهي وصومعة للآذان جيدة، ووصلت بلاد زعير، ودمنات، وهنتيفة، وزمران، والسراغنة، وغرم الأعلام، والقصبة الزيدانية، وغير ذلك، ولم يبق لي طلب ورغبة الآن إلا في الوصول لبيت الله الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه وعلى من معه الصلاة والسلام، يسره الله لي على أحسن مراد، آمين.

وأنا الآن بشغر الجديدة في غرض مهم للسلطان، وهي قرية من مراكش بينهما مسافة أربعة أيام، ومن الناس من يقطعها في ثلاثة أيام، وصلتها في أواخر ربيع الثاني عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف، ولم نزل فيها إلى الآن وهو أوائل جمادى الثانية من العام المذكور، وتلمح الوصول إلى مراكش إن شاء الله بعد الفراغ من هذا الغرض، نسأل الله التيسير، بجاه النبي البشير، وذلك بعد ان كنت بفاس موله البال، ومستغرق الأحوال، وكان النهوض عندي منها من الأمر البعيد، فيسره الله في أسرع من طرفة العين من غير تحريك أسباب، ولا استفتاح لذلك الباب، وإنما هو فضل من الرب العلي الكريم الوهاب. وذلك ببركة سبعة رجال وتوسلي بهم وطلبي ذلك منهم عند [231] ذكرني لهم فيما تقدم * من هذا الكتاب، فقد أجاب الله في الحين دعوتي، ويسر رغبتني، إذ لم يمض لها إلا نحو السبعة أيام أو أقل وجاء الفرج كفلق الصبح، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وتستجاب الدعوات، وتنال الرغبات، وزدت يقينا في قوة جاه الصالحين، وأولياء الله المفلحين، وأن الاجابة تلبي من سأل الله بهم سريعة، وتأتي إليهم سمیعة مطیعة، جعلنا الله في حماهم، وأعطانا من كل ما أعطاهم، بمنه وكرمه آمين.

وبعد وصولي لهذا المحل من الكتاب بنحو ثمانية أيام وأنا بشجر الجديدة، بلغني أمر السلطان — نصره الله — بالتهوض منه، والتوجه لمرافقة أخيه الشريف الحسيب النسيب الأجل مولاي عمر، الموجه من قبله نائباً عنه في الرباط على بعض القبائل من أهل الحوز، بقصد أخذ الترتيب منهم واصلاح ما انثلم من أمورهم، ومولاي عمر هذا هو من أجل إخوته وأنجبهم، وأفقههم وأنبهم، وله ذكاء وقاد، وفهم نقاد، ودراية، لا تكاد تجد بغاية، وقد تقدم ذكره في دولة أبيه السلطان مولاي الحسن رحمه الله، فامتثلت — إذ ذاك — أمر السلطان، ولحقت بمولاي عمر المذكور في أزموور ورافقته إلى مراکش، فوصلناها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الثانية عام ثلاثة وعشرين [232] المتقدم، والتقيت بأهلي* وعشرتي، وصبيتي وجيرتي، وأهل ودي وأحبتي وعترتي، ولم تملك العين عند رؤيتهم دمعها، فجاءت به كالمواطر الغزار، هطلت وتأبطت طلبها ووبلها، ولم نملك معهم إلا أقل من القليل، ثم خرجنا من عندهم والنفس إليهم تواق، والروح تخفق إشفاقاً من طول المغيب الذي مللت مذاقه، واستخشنت رواقه، ولو طاول الوقت وساعد القدر لبثت طلاقه، ولصيرته في زاوية الإهمال إلا إلى مقام المصطفى الذي ما عاينه أحد إلا سر به وراقه، ونحن — الآن — وهو أواخر رجب الحرام عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف نعيمون في زاوية الشيخ أبي الغزم سيدي رحال، الذي له الصيت البعيد والكرامات ذوات البال، والنفس في قلق عظيم، وهم عريض ملهم، من أجل ما عايناه من التهاون بمنصب المملكة، والاجترأ على حماها الذي طالما أته السعود طوعاً وأخذ بزمامها وملكه، وصار الأمر كمن يضرب في حديد بارد، والناس في حيص يبص وكلهم عن الاستقامة شارد، كمن ليس فيهم رشيد، سواء في ذلك الشيخ والكهل والشاب والوليد، ولذلك أسباب، ليس من دونها حجاب، ولا هي متنبقة بنقاب، يعلمها الخاص والعام، ولا يجحدها مأموم ولا إمام، فاستوى الماء والخشبة، وكل واقع في الشرك الذي سواه ونصبه، أمر معلوم، وجزاء من جنس عمله مختوم، طويت الصحف وجفت الأقلام، «فمن [233] أحسن فلنفسه* ومن أساء فعليها، وما ربك للعبيد بظلام،» وسرى لنا في هذه الوجهة ضياع كبير، وتفريط أثير شهير، جره سوء التدبير، والطمع الذي يردي الصغير والكبير، والاعراض عن الرب السميع البصير، الذي له الخلق

عن قدر لمح نخة	في قربه يا من سما
واضمن إلى سعة	تكفي وتكفي ألى
إني طفيل فضلكم	فاملاً يدي مكارما
ولا ترد خائباً	قصدي وسعي تمما
لك الكمال كلماً	جادت بربلها السما

انتهت، وبغاية الله تعالى ورعايته اتصلت، والحمد لله على كل حال،
 [235] له الحل والعقد وإليه المثال، ونسئل الله أن لا يخيب قصدنا، ولا يقطع منه*
 رجاءنا، بمنه وكرمه آمين.

وفي أثناء هذا بلغنا خبر يتعجب منه على لسان من نظن صدقه، وهو
 أن بعض النصارى تواطئوا مع بعض من المسلمين أهل حمايتهم على أخذ
 قسبة فضالة المطلة على البحر بين الرباط والدار البيضاء، والاستيلاء على
 أرضها ونواحيها، لتكون وسيلة لشيء آخر أدهى وأمر، واتفقوا على إنزال
 المكاحل والقرطاس هنالك من البحر في أيام متعديت، ويخفونها في الرمال
 هنالك إلى أن تحصل الكفاية منها وتمكنهم الثورة، ففعلوا وبالغوا في الكتمان،
 ولكن الله — تعالى — خيب قصدهم، وأبدى سرهم، فاطلع عليه أهل المحل
 من قبائل زناتة وجاءوا يتعادون كالسباع الضارية، لا يدرون الغادية من الجائية،
 ونهبوا تلك المكاحل كلها، بعد استخراجهم لها من مكانها، ووجدوا كثيراً
 منها بيعت ديار المسلمين المذكورين وأخذوها، وهدموا تلك الدار وأرغموا
 أنفها بالتراب، وصيروها قاعاً صفصفا كأن لم تغن بالأمس، وهرب النصارى
 ومن أعانهم من المسلمين يلتفتون وراءهم، فإن صح هذا الخبر فإنه من الأمور
 التي تزيد القلوب غماً، وتعمرها هماً، وتزيد للراغبين طمعاً في الأرض، ما بين
 طولها والعرض، ولا سيما حيث أيسوا من المقابل، وأمنوا من طروق الرمح
 والذابل، تدارك الله أمر الاسلام، وأعاد علينا وعليه بركة النبي عليه الصلاة
 والسلام، [236] وليكن هذا آخر هذا الباب، الذي ملأ من* الأخبار الوطاب،
 واشتمل على ذكر الصالحين، وأولياء الله المفلحين، حشرنا الله في زمريهم،
 وجعلنا دنيا وأخرى في حماهم، بمنه وكرمه آمين.

لكن اردت أن نختمه بذكر شيخنا الشيخ ماء العينين ابن شيخه الشيخ محمد فاضل بن مامين، رضي الله عنهم وأرضاهم، ليكون كالمسك ختامه، ولبشائر الفتح تشير أعلامه، أما الشيخ رضي الله عنه فإنه صاحب الوقت وهو الغوث، لأنه صرح بذلك في أبيات صدرت عنه، وهي في ديوانه الذي جمعه أصدقاء تلامذته وطبعوه بفاس، وهو موجود بأيدي الناس، ولم يحضرني الآن، وكنت رويت تلك الأبيات عن صاحبي وأخي وحيي سيدي محمد السباعي الدرياكبي رحمه الله ورضي عنه، ثم وقفت عليها في الديوان المذكور، وما رأيت ولا علمت أحدا اليوم بالمغرب قاطبة في درجة الشيخ رضي الله عنه في الشهرة وكثرة الأتباع وبعد الصيت وإقبال الخلق عليه، وخضوعهم لديه، حتى السلطان ومن دونه، ولا أعلم أحدا منزل عنده وعند سائر وزرائه وكبراء دولته منزله، وكثير منهم تلامذة له، وأكبرهم في ذلك صاحب المشور ابن يعيش، وبشرو الشيخ في القديم بعلو الدرجة وارتفاع المكانة وكان ذلك، فهو اليوم أبو عذرها، ورئيس موكبها، وبدر هالتها، وحكى لي بعض تلامذة [237] الشيخ رضي الله عنه أن الشيخ لما ورد على حضرة السلطان أيام* الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، كان تكلم مع الوزير المذكور بالتوجيه على ابن يعيش هذا من تطوان إذ كان عاملا بها ويرده إلى حضرة السلطان، فتعلل الوزير ثم وعد وعدا ظاهره المساعدة حياء، ثم تكلم معه فيه ثانيا وثالثا ووعدته ولم يف، ومن جملة ما قاله الشيخ للوزير في حق ابن يعيش، أثناء مباشرته الكلام معه في مجيئه من تطوان أنه قال له إن ابن يعيش كان أتاني يوما بهدية كبيرة، فقلت له أطلب ما شئت فإن الله تعالى يعطيكه ولو الوزارة، فقال لي الوزارة أحببتها للفقير السيد أحمد، وأنا لا أريد إلا مكانة والدي وهي القيادة على المشور، فقلت له قد أعطاكم الله تعالى ذلك، وذلك دليل على محبتي لك، فينبغي أن تجازيه عليها بأن تجمعهم مع أهله ويأتي لحضرة السلطان، وقد تكلم مع الشيخ مرة وهو بالصحراء بعض تلامذته، وسأله عما فعل الله بابن يعيش هل جاء إلى حضرة السلطان أو بقي بتطوان، وهل وفي الوزير بالوعد أولا، فأجابه الشيخ قائلا يا ولدي أنا أروم اليوم مجيء ابن يعيش من الله، ولست نرومه من الوزير، فلم يلبث أن مات الوزير وجاء ابن يعيش إلى حضرة السلطان في غيبة المهدي المنهبي لبر النصارى، وتولى ابن يعيش الامارة

على المشور، ومن ثم وهو في صعود إلى أن صار الآن شاه الرقعة وواسطة العقد [238] كما قلنا، وصدق * ما قاله الشيخ لابن يعيش من ارتفاع الدرجة وعلو الكلمة، وقال لي مرة سيدي محمد الدراكي رحمه الله، إن الشيخ قال وكانوا يتكلمون على ابن يعيش لو شئت أن يكون لابن يعيش التقدم على كل الوزراء ولا يبقى بينه وبين السلطان واسطة ولا حجاب لفعلت، ولكني اخترت الأدب مع الله تعالى في ترك عبيده لما خلقهم إليه، قلت وقد صار ابن يعيش اليوم بهذه المثابة التي قال الشيخ، ولا حجاب ولا واسطة بينه وبين السلطان، فما أصدق فراسة هذا الشيخ الجليل وأثبتها، فكأنه ينظر في اللوح المحفوظ ويرى الشيء عياناً، وكَم من أمور تكلم بها قبل وقوعها وكانت بإذن الله تعالى، وسمعنا من الكرامات عنه شيئاً كثيراً من التلامذة، وقالوا لنا إن بعض تلامذته الأصدقاء جمعها بالصحراء في كتاب ذكره لنا وضل عنا اسمه، وكتبت مرة لمريده الأصادق الفقيه العالم العلامة، الحبي الخير الأجل الصالح الولي الحجة النفاة البركة الصلوق النصوح البشوش الورع الزاهد العابد، ذي الخلق الحسن الذي لم يتطرق إليه احتمال ولا لبس أبي العباس سيدي أحمد الشمس وهو بالصحراء يومئذ، طالبا منه أن يقيد لنا بعضاً من كرامات الشيخ لأن الناس يستلون عنها كثيراً، ويريدون أن يحققوا ما يسمعون منها عن [239] ثقة، لأن الروايات كثيرة فيها، * فأجابني بمثل ما قلت، ثم قال الكرامة التي لا غبار عليها ولا نزاع فيها هي الاستقامة والثبوت عليها وعدم التزحزح عنها من عهد الصبا إلى الشيخوخة، فانظر بالله إلى هذا الجواب القاطع لكل خصام، والمسكت لكل كلام، وصدق رضي الله عنه، إذ بالاستقامة تتبين الأحوال، وتظهر مقامات الرجال، وتنال منازل الأبرار والأبدال، والاستقامة أقوى مثابة من الكرامة، وربما تظهر الكرامة على من لم تكمل له استقامة، نسأل الله تعالى أن ينفعنا بحجة هذا الشيخ الجليل، ويبقينا على متابعتة واتمسك بذيله إلى لقاء الله تعالى وبعد لقائه، آمين.

وللشيخ رضي الله عنه من التأليف في كل فن شيء كثير، وكنت قيدت بعضه يوماً بفاس وبلغت إلى نحو العشرين تأليفاً، وهي أكثر من ذلك بأضعاف، منها رائق الفتق على فائق الرق، ومنها نعت البدايات وتوصيف النهايات، ومنها : السيف والموسى على قضية الخضر وموسى، ومبصر المتشوف

على منتخب التصوف، وتبيين الغموض على نعت العروض، ومفيد النساء والرجال في بيان بعض ما جاز من الابدال، وسهل المرتقى في الحث على التقى، والمقاصد النورانية في ذكر من ذاته وصفاته متعالية، ومغري الناظر والسامع، على تعلم العلم النافع، والأقدس على الأنفس في أصول الفقه،^[240] * وتنوير السعيد على المفيد، وكتاب الصلوات، في فضائل بعض الصلوات، وتبيان الحق الذي للباطل سحق، ومظهر الدلالات المقصودة من ألفاظ التحيات، والنصيحة، وإظهار الطريق المشتهر على اسمع ولا تغتر، وقرة العينين في الكلام على الرؤية في الدارين، والايضاح لبعض الاصطلاح، وكتاب إنما الأعمال بالنيات، وكتاب يتعلق بالحسد، وكتاب في التيمم، وكتاب آداب المخالطة مع اليتيم، ومنها غير ذلك مما يطول تتبعه ولم نستحضره الآن، وكل تأليفه مقبولة حسان مرغوب فيها عند الناس، ومنظور إليها بعين التجلة والوقار والائناس، ومن تأليفه المشرب الزلال، في الصلاة على أفضل الرجال، وهو تأليف جليل، لكل خير جزيل منيل.

قلت ولما فرغت من كتابة هذا المحل أوقفني أخي وحيي، وصاحبي وليي، الفقيه الأجل الحبي الأود الأمثل، المريد الصادق، والتلميذ السابق، البركة النفاة الأريب، سيدي عبد الله بن محمد المعروف بابن الأديب، على كثير من أسماء تأليف شيخنا بعد أن طالع ما اثبتناه منها هنا، وحض على ادراجها وانضمامها لما ذكرناه من أخواتها، وهي اللؤلؤ المحوز الجامع بين الجامع والراموز في علم الحديث في ثلاثة أسفار، وموافق الموافقات، نظم به موافقات الامام الشاطبي في أصول الفقه، وشرحه — رضي الله عنه — في ثلاثة أسفار، ودليل الرفاق على شمس الاتفاق، نظم فيه رضي الله عنه المجمع عليه من الشريعة، وشرحه بجميع ما اختلفت فيه وسبب الخلاف بين الأئمة رضي الله عنهم، وهو كتاب جليل عظيم الفائدة في ثلاثة أسفار، ومفيد الحاضرة والبادية في شرح الآيات الثمانية، وهو من عجائب الدهر في سفر واحد، ومنيل البش فيمن يظلمهم الله تحت ظل العرش في سفر واحد، ومنيل المآرب على كفاء الواجب، تكلم فيه رضي الله عنه على مقامات أهل التصوف في سفر واحد، ومفيد الراوي على أني مخاوي، والمداوي على أني مخاوي، ومفيد الأنام، في معرفة الخاص والعام، وهداية النبيه في النحو، والايضاح فيما للقوم من الاصطلاح،

وإزالة الرين في جواز رؤية الله بالعين، وإبراز اللثالي المكنونات في أسرار أسماء الله المظهرات والمضمرات، ومذهب المخوف على دعوات الحروف، وجامع المهم من النكاح الملتئم، وإفادة الأمير والرعية والوزير، بأسرار فاتحة الكتاب المنير، والفوائد الأجمدية، والفوائد الأحمدية، وحزب الخيرات وأسبابها الرافع للمضمرات وأربابها، والحزب الجسيم في أسرار سلام قولاً من رب رحيم، والأدعية النافعة، وديوان أشعاره في التوسلات الإلهية والمدائح النبوية وغير ذلك، وهو جزآن في سفر، قال وللشيخ رضي الله عنه تأليف أخرى غير هذه.

وفي تلامذته من العلماء والأخيار والشعراء شيء كثير، رأينا منهم من لا نقدر على عدّه، وعليهم من الأنوار والسكينة والوقار، ما يومي إلى حال الصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الانقياد للشيخ ومناصحته، وتعظيمه وتفخيمه، وكثرة الذكر والطاعة والمواظبة على الصلوات في الجماعة، وغير ذلك من كل وصف جميل.

ولللشيخ رضي الله عنه أولاد علماء عظام، وأسود نجباء فخام، نبلاء أتقياء، وكرماء أولياء، فيهم الحلم والحياء، والسمة الحسنة والبهاء، ولهم النور [241] الباهر، وكلهم في الفطانة* والتؤدة والسيادة ماهر، وفر الله جمعهم، وصان من كل مكروه ريعهم، وبارك فيهم ولهم، منهم الولي الصالح النبي سيدي محمد الشبيه، والولي الكبير الميمون المشهد والغيبة، سيدي أحمد الهية، وسيدي عثمان، محل الأمن والأمان، وسيدي محمد تقي الله، الذي أولاه مولاه ما أولاه، وسيدي النعمة، محل العلم والفوائد الجمّة، وغيرهم رضي الله عنهم، وذكر لنا الموارد أن أولاد الشيخ كثيرون جداً، وأنهم يتحامون عدّهم خوفاً عليهم من العين، حفظهم الله ونماهم، وكثرهم وزكاهم، وأبقى الولاية والنعمة في عقبهم إلى يوم الدين.

وطريقة الشيخ — رضي الله عنه — قادريّة، منسوبة إلى مولانا عبد القادر الجيلّي رضي الله عنه، أخذها عن أبيه الشيخ محمد فاضل بن مامين، وهو أخذها عن أبيه، وهكذا إلى عشرة آباء، وهم أخذوها عن الأشيّخ الكبراء، منهم الشيخ الشاذلي وابن هيت ومولانا عبد القادر الجيلاني، إلى مولانا علي كرم الله وجهه، وهو عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل،

عن رب العزة جل جلاله، وعندى بمراكش هذه السلسلة الشريفة مقيدة في بعض تقايدى، أخذتها عن سيدي محمد الدراكي رحمه الله، وإن يسر الله وتوصلت بها فإني نلحقها بهذا الموضع إن شاء الله تعالى، لأن كثيرا من الناس يظنون أن الشيخ ماء العينين أخذ عن الشيخ *المختار الكنتي رضي الله عنهما من حيث أن طريقتهما واحدة، مع أنه إنما أخذ عن أبيه، وأبوه أخذ عن أبيه، وهكذا إلى عشرة آباء كما قلنا، قلت وطريقة شيخنا أخذها عن أبيه الشيخ محمد فاضل، وهو أخذ عن أبيه ما مين، عن أبيه الطالب حيار، عن أبيه محمد، عن أبيه الجيه المختار، عن أبيه الطالب الحبيب، عن أبيه الطالب علي، عن أبيه سيدي محمد، عن أبيه يحيى الصغير، عن الشيخ زروق، عن عقبة الحضرمي، عن علي بن أوفى، عن والده محمد، عن الامام الباخلي، عن ابن عطاء الله، عن أبي العباس المرسى، عن الامام الشاذلي، عن مولانا عبد السلام بن مشيش، عن ابن العربي الحاتمي، عن النجيب السهروردي، عن ابن هيت، عن مولانا عبد القادر الجيلي، عن أبي الوفاء، عن الشنكي، عن انشيلي، عن الجنيد، عن أبي الحسن، عن معروف الكرخي، عن الحسن البصري، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن جبريل، عن رب العزة جل جلاله، وتعاضم سلطانه، انتهى. كما تلقينته من سيدي محمد الدراكي رحمه الله ونفعنا به وبمن في هذا السلسلة المباركة من الأخيار.

وللشيخ — رضي الله عنه — وأنجاله الكرام محبة تامة في جانبي، [243] *ويدعوني بولدي، ويدعو لي بخير كثير، وبشرني بشارات متعددة، منها أنه قال لي أول مرة رأيتك أرجو لك من الله — تعالى — مرتبة أعلى من مرتبة والدك، وقال لي مرة أخرى إنك من ترق إلى ترق إلى الدرجة التي لم يبلغها أحد، وكاشفني مرة وكنت عازما على سؤاله عن ذلك الشيء الذي كاشفني به وذكره لي من تلقاء نفسه قبل أن نذكره له، وقال لي فيه ما سرني، وهو أنني كنت مريدا أن نسأله عن حال عاقبتني في أواخر عمري، فقال إنني أرجو الله تعالى أن يجعل آخرك أفضل من أولك، فحصلت على فائدتين على كرامة للشيخ من جهة الكشف، وعلى البشارة في حق نفسي، والحمد لله: وقال لي أنه رأى والدي واجتمع معه وأحسن إليه، ودخل الشيخ لداري وزار

منه جميع أهلنا وأولادنا كبارا وصغارا وأناس آخرون وجدهم الحال عندنا، وكذلك والدتنا رضي الله عنها لأنها كانت في قيد الحياة يومئذ، ودعا للجميع بما نرجو قبوله من الله، ودخل لداري أيضا جل أولاده وتلامذته، وأكلوا طعامنا، وشرفونا بأقدامهم المباركة، إلا الشيخ فلم يأكل شيئا لا عندي ولا عند غيري، وتحت يدي من مكاتيبه لي وأجوبته شيء كثير، وعندي أيضا نصيب كبير من تأليفه المنورة بنور الله، والكل غائب عني الآن، ولو حضرني [244] لذكرتها بأسمائها *وموضوعاتها.

وفيه رضي الله عنه من الحلم والتواضع والرأفة والصبر والتأني والشفقة ومكارم الأخلاق ما لا يوصف، وسمته سمة الصالحين الأخيار، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار، ولا يغضب لنفسه، وكان تلامذته يحبون غضبه عند موجه، لأن النصر يعقبه، والكرامة تجذبه وتطلبه، وكان أثبت من أحد لا تستفزه الرياح، وقافا مع الحق، صادعا بالصدق، لا يخلو طرفه عين من مشاهدة ربه، ومستحضرا لجلاله وكآله بقلبه، راضيا بحكمه، مستسلما لأمره، لهجا بذكره، على سنن السلف الصالح في كل أحواله وعلايته وسره، والحديث والآية وأمثال العرب وأشعارهم وآثارهم كل ذلك على ظاهر قلبه، ما تكلم في شيء إلا استشهد عليه وأوضحه وبينه ونسبه لقائله، وأعطاه الله من الهيبة والوقار والتؤدة ما لم نره في غيره من الأمراء فمن دونهم، والقلوب تميل إليه وتجه بالطبع، ولا يكرهه إلا منافق أو حسود جاحد مطموس البصيرة، مكشوف السريرة، عصمنا الله من بغض الصالحين، وأوليائه المفلحين، بمنه وكرمه آمين، وقد عثرنا على أناس كانوا ييغضون الشيخ ويتكلمون فيه، قال بهم الحال إلى الاحتياج إليه، والاستشفاع به، منهم الفقيه العلامة السيد محمد بن إبراهيم [245] *السباعي أصلا المراكشي دارا، سمعت كراهيته له من ثقة، فنزلت بالسباعي نازلة عويصة سجن لأجلها، وقطع الناس بعسر امره، وبالغ فيما يخلصه وما نفعه، وانبهت عليه المسالك، إلى أن من الله عليه بمجيء الشيخ إلى مراکش عند السلطان فتشفع فيه وسرحه، ومن ثم صار السباعي يعرف القدر للشيخ وكف عنه أذاه.

وأخبرني سيدي محمد الدراكي رحمه الله أن الشيخ رضي الله عنه
 كتبوا للأسرار جدا، قلما يروح بشيء منها، قال وتذاكرت معه يوما وعرضت
 له بسيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله عنه الذي ألف فيه سيدي أحمد بن
 مبارك السجلماسي كتاب «الذهب الابريز»، وقلت له إنه يكشف ويخبر
 بالأسرار ويقع ذلك كما يقول، وقصدي أن نرى ما عنده ولعله يبدي لي شيئا،
 فأجابني بقوله يا ولدي إن القلة إذا كانت فارغة تكلمت، وإذا عمرت
 وامتألت سكنت، قال فتعجبت من هذا الجواب البديهي، وزدت يقينا في
 كونه من الكمل رضي الله عنه ونفعنا به، وقال لي إنه اشتكى على الشيخ مرة
 في شأن زوجه واستشاره في فراقها، فأجابه بقوله يا ولدي إن الزوجة إذا كانت
 لا ثقة بك فلا تطلقها فإن النساء لسن كلهن كذلك، وإن كانت غير لا ثقة
 فطلقها، فإن النساء لسن كلهن كذلك، قال فتنبهت بقوله واسترحت.

[246] وتكرر *مجمي الشيخ رضي الله عنه عند السلطان ست مرات مرة في
 حياة أمير المؤمنين مولانا الحسن بعد أن كتب له ودعاه عام أربعة وثلاثمائة
 وألف كما تقدم في صدر الكتاب، وكان مجيئه لمراكش

المرة الثانية في دولة أمير المؤمنين مولانا عبد العزيز بمراكش أيضا،
 وذلك في حياة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله، ونزل بدار الحاج
 حمادي المسفيوي.

الثالثة في حياة الوزير المذكور أيضا، وأنزله بداره بمراكش، ونوه به
 واعتنى وبالع في البرور، جزاه الله خيرا، ولم يزل ينظر إليه بعين الرعاية
 والاعتبار إلى أن لقي الله.

الرابعة كانت وقت تكليف الفقيه الوزيرا لسيد الحاج المختار ابن عبد
 الله بن أحمد بن مبارك بمراكش كذلك، وسمعا بالتواتر أن الشيخ لما جاء في
 هذه المرة وبات قريبا من المدينة، وفي الغد الذي هو ليلة العيد النبوي يدخل
 إليها وأعلم جانب السلطان وأهل الدائرة بذلك كتب له الوزير الحاج المختار
 المذكور بالاقامة في ذلك المحل إلى أن يفوت العيد، لأن الحال وجدهم
 مشغولين في أموره، فأنف الشيخ من ذلك ولم يعبأ به، وعزم على الدخول
 للمدينة حيث لم يبق بينه وبينها إلا أقل من الساعتين، ولما علم أهل الدائرة

بعزمه تهبأوا له وخرجوا لتلقيه على بعد ومعهم العسكر والموسيقا، وجاءوا معه [247] إلى أن وصل للمحل المعد لنزوله بعرضة المامونية *قرب باب الرب، وهي عرصة لجانب المخزن قديمة، وعليها أبهة السلطنة ونخوة المملكة، فأخبرو مخبر بأن هذه العرصة ينزلها سفراء الروم إذا قدموا على السلطان، فنهض وخرج منها في الحين، وامتنع من النزول فيها، فأمر السلطان بانزاله في دار الوزير السيد أحمد رحمه الله، في المحل الذي نزل فيه قيد حياته، وقوبل بالاعتناء والمراعات على حسب الوقت، إلى أن صدر مجبور الحال لمحله، وذلك عام ثمانية عشر وثلاثمائة وألف، ولم يمض بعد ذلك على الوزير الحاج المختار إلا أيام قلائل ونزلت به تلك النكبة التي تقدم شرحها وكيفيتها في هذا الكتاب، ونسأل الله السلامة والعافية، آمين.

المجيب الخامس للشيخ عند السلطان كان بفاس، ونزل بدار الفقيه الوزير السيد أحمد رحمه الله بفاس الجديد، وقوبل بالاعتناء والمراعات على العادة، ومر في فقوله على بلاد زمور الشلح، وهي منقبة وكرامة للشيخ، لأنها بلاد لا يسلكها أحد إلا اخذ وقتل ونهب، عادة مطردة معروفة، ومشهورة اشتهار الشمس في الوجود، فسلكها الشيخ وجميع من معه من غير بأس، وفرح بهم زمور، وأقاموا لهم الضيافات وذبحوا الدبائح، وأهدوا للشيخ واعتبروه، ووقعت له معهم وقعة كانت كرامة له حكاهنا لنا غير واحد، منهم الشريف مولاي أحمد الذي يتوجه رسولا من الشيخ بمكاتيبه إلى الناس، وطال عهدي [248] بذلك، ولذلك لم نشرحها خوفا *من ذكرها على غير وجهها، حيث نسيت صورتها، ومات للشيخ — رضي الله عنه — في هذه المرة لما اجتاز في فقوله براكش ولد من أعيان أولاده اسمه سيدي محمد تقي الله بالجدري، وهو رجل بأولاده رحمه الله، ودفن حذاء قبر أخيه سيدي عثمان في مقبرة سيدي أبي الأوقات برياض الزيتون القديم، وبنيت عليهما بأمر السلطان قبة فارهة، ومعهما مقابر لبعض التلامذة، رحم الله الجميع ونفعنا بهم آمين.

المجيب السادس للشيخ كان بفاس أيضا، ونزل بدار السيد أحمد المذكور، واعتنى به السلطان كذلك، وقفل على طريق بني حسن.

وفي هذه الأيام وجه ولده الدرة المكنونة، والياقوتة المصونة، سيدي أحمد الهية للسلطان بفاس، ولعله لأجل المفاوضة في أمر النصارى وشيوعهم بتلك البلاد الصحراوية، وطلب الاعانة منه بالسلاح المماثل لسلاحهم، والآذن في جهادهم، وسمعنا أن السلطان قابله بالجميل، وأعطاه شيئا كثيرا من المكاحل، ورجع مجبور الخاطر، وهو — الآن — وهو أوائل شعبان عام ثلاثة وعشرين وثلاثمائة وألف — بمراكش، ومنها يتوجه لأبيه رضي الله عنهما، آمين.

قلت وبعد الفراغ من هذا النصف الأول من هذا الكتاب، جاء الشيخ بنفسه المحيي السابع عند السلطان بفاس، قالوا لاجل المفاوضة في ظهور النصارى ببلاد الصحراء وشيوعهم هنالك، وبعد فراغه من ذلك الغرض قفل راجعا من فاس ووصل إلى مراكش ومكث فيه نحو الشهر، ثم توجه لمحله على طريق متاكة، وبات عند العامل المتوكي القائد عبدا لمالك لأنه طلب مجيئه إليه، ثم توجه على طريق الصويرة ومكث فيها ما شاء الله، ومنها ركب بحرا في اليوم الأخير من رمضان عام أربعة وعشرين وثلاثمائة وألف، وعيد عيد الفطر في البحر، ونزل بطرفاية بناحية الصحراء، ومنها توجه لمحله مصحوبا بالسلامة والعافية، وبلغنا خبر وصوله سالما.

وللشيخ زاوية كبيرة بهية بمراكش في حومة القنارية، كان وعده بها أمير المؤمنين مولانا الحسن رحمه الله ولم تتيسر على يده، ثم تيسرت على يد نجله [249] أمير* المؤمنين مولانا عبد العزيز، بواسطة الوزير السيد أحمد بن موسى رحمه الله ومباشرته وإعانتته، وتمت على أحسن ما يكون، وله زاوية أخرى بفاس في حومة الطالعة أصغر من التي بمراكش، بناها له السلطان أيضا، ولعله بواسطة ابن يعيش، وبنى له السلطان أيضا دارا كبيرة مشتملة على ديار بمحله من الصحراء، ووجه العملة والمعلمين والياجور والجير والخشب من ثغر الصويرة بحرا، ونزلوا بثغر طرفاية وتوجهوا برا، وسمعنا أن ذلك البناء وجد جلّه، وسكن الشيخ في بعضه، وجاء على أحسن ما يكون، وذكر لنا أن الشيخ غرس كثيرا من النخيل بذلك المحل، وصار يحاول أجراء عين من الماء هنالك، وظهر في الناس بسبب ذلك بعض الولوع بالفلاحة والتنبه لها.

ومن عاداته — رضي الله عنه — أن لا يتخلف عن صلاة الجماعة، وهو الامام فيها دائما سرمدًا أبدا صيفا وشتاء ليلا ونهارا من صغره إلى كبره، وإذا صلى المغرب فإنه لا يبرح من محله ذاك إلا إذا صلى فيه العشاء وتنفل بعدها وقبلها بما شاء الله، وقرأ القرآن بعد العشاءين معا ثم يدخل لمحله، وإذا صلى الصبح فإنه يبقى جالسا بالموضع الذي صلاه فيه إلى أن تطلع الشمس [250] ويصلي الضحى، ثم يلتفت إلى تلامذته ويكلّمهم ويقرأ معهم *أنواعا من العلوم ثم يدخل لمحله، وهكذا حاله على الدوام والاستمرار، ما اختل فيه نظامه، ولا صده عنه راحته ومنامه، فحضرته حضرة البهاء والنور، والسعي المحمود المشكور، ولها دوي في طرفي النهار وطرفي الليل كدوي النحل بالذكر وقراءة القرآن والركوع والسجود، والاقبال على الإلاه العلي المعبود.

وله تلامذة كثيرون من أهل مراكش وفاس ومدينة سلا، ومن غالب المراسي والثغور، زيادة على تلامذته الذين لا يحصون كثرة بالصحراء، وما رأيت اليوم بالمغرب الاقصا أشهر من الشيخ ولا أكبر منه قدرا عند العلماء والكبراء، وأهل الوقت والأمراء.

ويليه في هذه الساعة شهرة ودعوة الشريف العالم سيدي محمد بن عبد الكبير الكتاني الفاسي، وقد رأيت بمراكش لما كان منفيًا إليها يقبل يد الشيخ ويلتمس منه الدعاء، فعلمت أنه لا أكبر من الشيخ في الولاية في الوقت، وتشفع فيه الشيخ ورجع لبلده فاس وعفي عنه، واستقر في محله واطمأنت نفسه، وراجع انسه.

ومن طريقة الشيخ — رضي الله عنه — إيقاع الصلاة أول وقتها، لأن أول الوقت رضي الله، ولما رآه أهل مراكش يقدم صلاة العشاء على الوقت الذي يصلونها هم فيه، تكلموا في ذلك وبلغه الخبر فأجابهم بنص فقهي، وهو [251] أن وقتها يدخل بمغيب حمرة الشفق، وكون العادة *بالمدين جرت بتأخيرها إلى غيبوبة البياض لا يخدش فيمن صلاها قبلها، وكذلك وقع بفاس حين رأوه يصلوها قبلهم، وذلك أن أهل المدين لا يعرفون في الغالب أوقات الصلاة بالشمس والنجوم والامارات المعلومة بالشرع، لاعتمادهم في ذلك على المجانة، والرخامة ذات الشاخص المنصوبة لمعرفة الظلال، ولطول استقرارهم في البيوت

والبنيان واختفاء الأفق عنهم به وكثير من النجوم التي بها تعرف الأوقات الليلية، بل لا يعرفون من الكواكب إلا الشمس والقمر، ولا يصلون إلا تقليداً، بخلاف أهل البوادي فلهم معرفة بالغة بالنجوم والأوقات ليلاً ونهاراً، ولا سيما أهل الصحراء فهم أتم معرفة وأكثر مهارة وأنقى أذهاناً، بل رأينا منهم من يعرف الوقت وهو في بيت مسدود عليه غير مشاهد للسماء كشيخنا رضي الله عنه، وأهل المدن بم عزل عن ذلك، ولذلك استغربوا صلاة الشيخ للعشاء قبل وقت صلاتهم لها، وقال لي سيدي محمد الدراكي رضي الله عنه ورحمه على مضي ساعة واحدة من المغرب تغرب حمرة الشفق تجربة محققة، وجربتها أنا مرارا عديدة ووجدتها صحيحة، ولم يبق عندي ريب في كون صلاة

[252] الشيخ تقع في وقتها، وانتفت عني الوساويس جزاه الله * خيراً، وقال لي مرة إن الشيخ حضه على إيقاع الصلاة أول وقتها، ثم قال له وإذا كان من عادة الجماعة تأخير الصلاة عن أول وقتها فلا تنتظرها، انتهى، ودين الشيخ وزهده وورعه وعلمه وتقواه وفهمه وأمانته ونسكه ونصيحته وعدله ووقوفه مع السنة المحمدية ومثابرته على متابعة المصطفى يأبى ذلك من البحث معه في مثل هذا الأمر الذي لا يخفى، حتى على الصبيان ومطلق العوام، فلم يبق إلا الجهل بالشرعية أو التعنت والإذابة، إذ السلامة من الخلق أمر مفروغ في قالب المحال، وشأن لا يتيسر بحال.

والشيخ رضي الله عنه لا عيب في ساحته، ولا ما يخدش في سيادته ونفاسته، شريف النسب، كريم الحسب، حليف الفخر والأدب، بسنا محياه تزين الأقمار، وتستضيء الشمس في رابعة النهار، وتحلى بنور بهائه المخدرات في القصور والديار، يتصل نسبه الشريف النفيس، بنور المغرب أبي العلاء سيدنا ومولانا ادريس ابن ادريس، رضي الله عنهم أجمعين، وعن آبائهم [253] الكرام، وحشرنا في * زمرتهم، وأدامنا على محبتهم، وأماتنا على ملتهم، وعندى بمراكش عمود هذا النسب الشريف، ذي الفخر السامي والظل الوريث، والنور الساطع المنيف، وإن ارتفع العائق ووصلت محلي فأني نلحقه بهذا الموضع إن شاء الله تعالى تبركا به، وتشبثا بذيله المبارك وسببه، ومحبة في جانب الشيخ رضي الله عنه.

ثم إنني لم نبلغ في حق الشيخ عشر المعشار، مما يليق بجانبه من التجلة والاكبار والفخار، حيث لم نجد ما نستعين به على ذلك لفراقي كتيبى وتقاييدي، وإنما ذكرت ما ذكرت من حفظي وفهمي، وبحسب ما وصل إليه علمي، ليلا يخلو كتابي هذا من ذكره، ولأنني التزمت في صدر الكتاب أن أعيد ذكره بأكثر مما هنالك، والأقدار عاقت عن التوسع في الأخبار، ومنعت من التوغل في التكاثر والانتشار، والله أسأل أن يثيبني على حسن نيتي، وصلاح طويتي، وأن يجعل محبة هذا الشيخ الجليل جنة لي مما أخشاه ولذرتي، وأن يجعل بالسلامة والعافية أوبتي إلى أهلي وبلدتي، وأولادي وأهل ودي واحبتي، في صعود وارتقاء، وسعود تطاول السماء، وتكفل باليمن والأمان [254] والخير الكثير والهناء، وأن يختم لنا بالخاتمة الحسنی*، ويجعل لنا في الآخرة ما هو أعلى وأبقى وأسنى، بمنه وكرمه آمين.

قلت ونسب شيخنا رضي الله عنه هو هكذا، فهو الشيخ العلامة، والبحر الفهامة، قطب الوجود، ومشرب الوفود، جامع الحقيقة والشریعة، صاحب الدرجة الرفیعة، ذو القدر المنيف، والنسب الشريف شيخنا وقطب دائرة وجودنا الشيخ ماء العينين، بن شيخه الشيخ محمد فاضل، بن مامين، ابن الطالب أخيار، بن الطالب محمد بن الجیه المختار، بن الطالب الحبيب، بن الطالب علي، بن سيدي محمد، ابن سيدي يحيى الصغير، بن سيدي عال، ابن شمس الدين، بن يحيى الكبير القلقمي، بن سيدي محمد، بن سيدي عثمان، بن مولاي بوبكر، بن سيدي يحيى، بن مولاي عبد الرحمان، بن أران، ابن مولاي اتلان، بن جملان، بن ابراهيم، بن مولاي مسعود، بن مولاي عيسى، بن مولاي عثمان، بن مولاي اسماعيل، بن مولاي عبد الوهاب، بن مولاي يوسف، بن مولاي عمر، بن يحيى بن عبد الله، بن مولاي أحمد، بن عبد الله الأكبر، بن ادريس الأزهر، بن ادريس الأكبر، بن عبد الله الكامل، ابن الحسن المثني، بن الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، بن علي كرم الله وجهه، نفعنا الله ببركاتهم آمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

[255] انتهى ما تيسر جمعه في النصف الأول من هذا الكتاب، الذي أتى بما تستحسنه وترغب فيه أولوا الأبواب، مع الاختصار الذي كاد أن يكون لغزًا،

ومعانيه الدقيقة رمزا، والعاقل لا تخفاه الأحوال، ولا تلتبس عليه الأقوال،
ولست شاكاً في بغيض يقدح، وحسود يكلح وينبح، فكل الأواني بما فيها
تنضح، وعن معانيها تنادي وتصدح، والكريم يمدح ويسمح، ويغضي ويصفح،
على أني لا أبرئ نفسي من الزلل والخطأ، إذ ذاك مقام تزل فيه الأقدام وتقصّر
الخطا، فقلما يخلص مصنف من الهفوات، أو ينجو مؤلف من العثرات، فمن
رأى عيباً فليتكلم بأدب ووقار، وليلتمس العذر لأخيه فإن المومن يلتمس
الأعذار، والكافر يترقى للنكبات وللعثار، والمنصف كريم أدبه، وشريف
حسبه، فالانصاف من شيم الأشراف، والحسود مجبول على التهاثر والاعتساف،
وركوب متن الاباية والاختلاف، فالحسود لا يسود، ولا توفي له في محسوده
وعود، أمر جرى به القلم في أم الكتاب، وقضاه الحكم العدل رب الأرباب،
وأقول له متمثلاً ولله تعالى متمثلاً

ألا قل لمن بات لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب
أسأت على الله في حكمه لأنك لم ترض لي ما وهب
فأخبرك ربك بأن زادي وسد عليك وجوه الطلب

وكل الكلام فيه المقبول والمردود، إلا كلام الله وكلام رسوله الحامد
المحمود، فمن قال ما شاء، لقي ما ساء، ومن جرى طلقاً مع الهوى، تردى في
دركات المقت وهوى، وأقول في جوابه عما تمسّدق به من كسيف خطابه، ما
قاله أبو الطيب المتنبي المسلم الالمعية من كل عجمي وعربي

وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل
ولله الكمال، وعليه الاعتماد على كل حال، هو حسبي وكفى، وسلام
على عباده الذين اصطفى، تنال به في الجنة قصورا وغرفا، ونحظى بحسن الختام
في زمرة النبي المصطفى.

وكان الفراغ منه تحريراً في أوائل المحرم الحرام عام أربعة وعشرين وتلاثمائة
وألف.

وبليه النصف الثاني، وأوله الباب الخامس. (تم).

فهرسة النصف الأول من التيه المعرب عما عليه الآن حال المغرب

17	خطبة الكتاب
20	الباب الأول في الكلام على دولة أمير المؤمنين مولانا الحسن
23	وقعته مع أهل فاس وقبضه على عاملهم السراج
24	وصوله للريف مرتين وقبضه على البشير بن مسعود
25	وقعته مع غيائة
26	رجوعه لمراكش وإيقامه بأولاد أبي السباع والرحامنة
26	رده الوجهة للكتتافي بجبال المصامدة
27	وصوله إلى جبال أيت ومالو وقبائل فازازا وإيقاعه بآيت شخمان
27	توجهه لقطر سوس الأقصى
27	صدور الكتب منه وهو بوادي نون للشيخ ماء العينين
29-29-28	وصول الشيخ ماء العينين لمراكش
29	توجه السلطان لأقطار جبال العلم
30	دخوله لمدينة تطوان وطنجة
30	وصوله للعرائش والقصر ورجوعه لفاس
30	وصوله لقطر تافيلالت
31	رجوعه من تافيلالت ودخوله لمراكش
33-32	خروجه من مراكش بقصد فاس ثم وفاته بتادلا
33	انعقاد البيعة لنجله مولانا عبد العزيز
36-35-34	ذكر وزراء السلطان مولانا الحسن
38-37-36	ذكر كتابه
39	وللسلطان جملة كبيرة من الأولاد وكلهم نجوم تتلأأ أنوارها

- 39 به بناءات ابتكرها وإشادات اخترعها وأظهرها
- 42 الباب الثاني في دولة أمير المومنين مولانا عبد العزيز
- 44 عزل أولاد الجامعي
- 45 وقوع القبض عليهم
- 46 قيام مسميوة ثم حامة بالحوز
- 47 انعقاد البيعة لمولاي محمد من الرحامنة ومن تبعهم
- 47 بين الرحامنة لمراكش وقتالهم إياها
- 48 نهوض السلطان من فاس بسبب الرحامنة ومروره على بلاد رمور
- 48 دخوله لثغر الرباط على عادة الملوك وخروجه منه
- 49 وصوله لبلاد الرحامنة وفتكه بهم
- 49 وقوع القبض على كبيرهم مبارك بن سليمان
- 51-50 كتاب من إنشاء المؤلف بخبر الوقعة على لسان السلطان
- 52-51 كتاب مثله من إنشاء مولاي الطاهر بن أحمد البلغيثي
- 53 دخول السلطان لمراكش
- 53 الخبر عن الاعشاش وحركة السلطان إليهم
- 54 تخيير السلطان على بني عمير من تادلا وفتكه بهم
- 54 كتاب من إنشاء المؤلف في وقعتهم على لسان السلطان
- 58-55 نهوض السلطان عن بني عمير وتخيمه بصخرة الدجاجة
- 59 58 قصيدة للمؤلف يهنئ السلطان بالفتح
- 59 رجوع السلطان لمراكش ودخوله إليها
- 60 الاقطار التي فتحها وتناولها بكلمته العليا
- 62 وفاة الوزير السيد أحمد ووفاة إخوته رحمهم الله تعالى
- 62 وزارة الفقيه الحاج المختار بن عبد الله بن أحمد
- 62 ولاية المهدي المنبهي على العسكر
- 63 وفاة القائد إدريس ابن العلام وتولية ولده
- 64-63 عزل الحاج المختار عن الوزارة وعزل ولد ابن العلام وغيرهما
- 65-64 نهب المهدي المنبهي أموال الوزير السيد أحمد
- 65 سفارة المهدي المنبهي لبلاد النصارى واحتماؤه بالنجليز
- 66 عزل المهدي المنبهي عن ولاية العسكر في غيبته ثم وروده ورجوعه إليها

- 66 خروج مولاي الأمين عم السلطان لتادلا بقصد جبايتها
67 وقوع الاتفاق من الوزراء على وقوع الجمع للمشاورة في أمور المملكة
67 الخبر عن وقوع الترتيب
69 نهوض السلطان من مراكش بقصد فاس
70 وصول السلطان لفاس وما وقع بعد ذلك في الأقطار
71 الباب الثالث في أحوال الوقت وأخبار التائر الفتان
72 خروج السلطان من فاس يقصد مكناس ونواحيها
73 رجوعه لفاس بسبب التائر
73 توجيه الجيش للحصار على الفتان
74 انهزام الجيش عن الفتان
74 إخراج مولاي محمد ليراه الناس
77 توجيه جيش آخر أكبر من الأول لقتال الفتان
78 قيام جيش الفحص بطنجة على عاملهم بركاش
79 قيام الريسوني بتلك الناحية
79 انهزام الفتان عن جيش السلطان
80 توجه القائم مهزوما لتازة ومنها نهض للريف
81 دخول جيش السلطان لتازة
83 نهوض السلطان من فاس يقصد الوصول إلى تازة
83 وصول السلطان لطبوعبان من بلاد الحياينة وتخييمه به
84 وقوع القتال بين السلطان والبغاة
86 وصول الخبر بثوران رجل بآيت سعروشن
نهوض السلطان من طبوعبان راجعا إلى فاس وخروج جيشه
من تازة ودخوله للعيون
86 دخول الفتان لتازة مريضا
87 وقوع الحصار على جيش السلطان الذي دخل للعيون، وإفراغه إياها
88 خروج القائم من تازة لتدوين أقطار الريف وحصاره على قبيلة بني بوزكوا
88 وقوع الغدر من عامل بني بوزكوا وفتكه بأصحاب الفتان
89 وصول القائم لجبل بني يزناسن وحكمه عليه
89 توجه المنبهي للحج حيث استقلته الدولة لسوء صنيعه
90 ورود المنبهي من المشرق وتعويقه بطنجة وحيازة السلطان لاملاكه
90

- 93 قضية ابن زاكور الذي قتله السلطان بفاس
- 94 الكلام على الرعية وانقسامها إلى قسمين
- 95 قيام الأجانب على ما وقع بالمغرب وتسليمهم الأمر للفرنسيين
- 96 ورود باشدورالفرنسيين على السلطان بفاس
- 97 خروج مولاي العباس من مراكش بأمر السلطان لأخذ الترتيب من الحوز
- 98 بعث السلطان عمه مولاي عرفة لأخذ الترتيب من أهل الدير بالحوز
- بعث السلطان الباشا ولد أبا امحمد الشركي لتدويخ قبائل
الجبال بناحية طنجة
- 98 الباب الرابع في أخبار الجزائر
- 100 ورود سلطان النجليز بجبل طارق ووصول سلطان السبنيول لسبتة
- 111 ورود سلطان الألمان لطنجة
- 111 الكلام على أهل دولة السلطان
- 112 أخبار مدينة فاس
- 115 الكلام على مولانا إدريس بن إدريس رضي الله عنهما
- 116 قصيدة للمؤلف توسل فيها بمولانا إدريس
- 117 الكلام على سيدي عبد القادر الفاسي
- 118 الكلام على سيدي أحمد الشاوي وسيدي أحمد التيجاني
- 120 الكلام على مقبرة القباب بباب الفتوح
- 121 الكلام على مقبرة باب الحمراء وسيدي علي بوغانم
- 122 الكلام على الامام أبي بكر بن العربي ولسان الدين ابن الخطيب 122-123
- 123 ومن نثر ابن الخطيب كما في نفح الطيب
- 124 الكلام على مسجد القرويين
- 127 الكلام على مسجد الأندلس
- 128 الكلام على مسجد الرصيف ومسجد باب الجيسة
- 128 بيان ما بفاس من مساجد الخطبة وما فيها من الأبواب
- 129 الكلام على مدينة مراكش
- 132 السبب في قيام أهل مراكش على عاملهم عام 1289 هـ
- 133 الكلام على سبعة رجال وأولهم سيدي يوسف بن علي
- 134-135 الكلام على القاضي عياض والشيخ أبي العباس السبتي

136	الكلام على الشيخ الجزولي
138	الكلام على الشيخ التباع
139	الكلام على الشيخ الغزواني
143	الكلام على الامام السهيلي
145	الكلام على جملة كبيرة من أولياء مراکش
149	مساجد الجمعة بمراكش
150	أبواب مراکش
151	الكلام على مدينة مكناس
152	الكلام على الشيخ ابن عيسى وعلى عيساوة
155	حكاية مضحكة
157	طائفة الحمادشة
	اعتراض الفقيه البوعزاوي على الشيخ الكتاني واعتراض الفقيه السباعي
158	عليه أيضا
160	ذكر المشاهير من أولياء مكناس
162	ذكر الاقطار التي سافر اليها المؤلف
163	فكر ما يقع به الفتح لمن أراد معرفة إنشاء الشعر
166	قصيدة للمؤلف في التوسل بسيدي رحال
168	ترجمة الشيخ ماء العينين رضي الله عنه
169	فكر بعض مؤلفاته
171	ذكر بعض أولاده
171	ذكر أشياخه في الطريقة
172	ذكر أجداده رضي الله عنهم

الثنى 50.00 درهم

مطبعة المعارف الجديدة - الرباط



رئاسة الوزراء - مطبوع المصور الرباط

الهاتف : 79 69 14/79 37 02

المعبرون : 10 شارع النهضة - الهاتف : 79 69 38